كيرلس عاطف

عزبة التفاح الفاسد

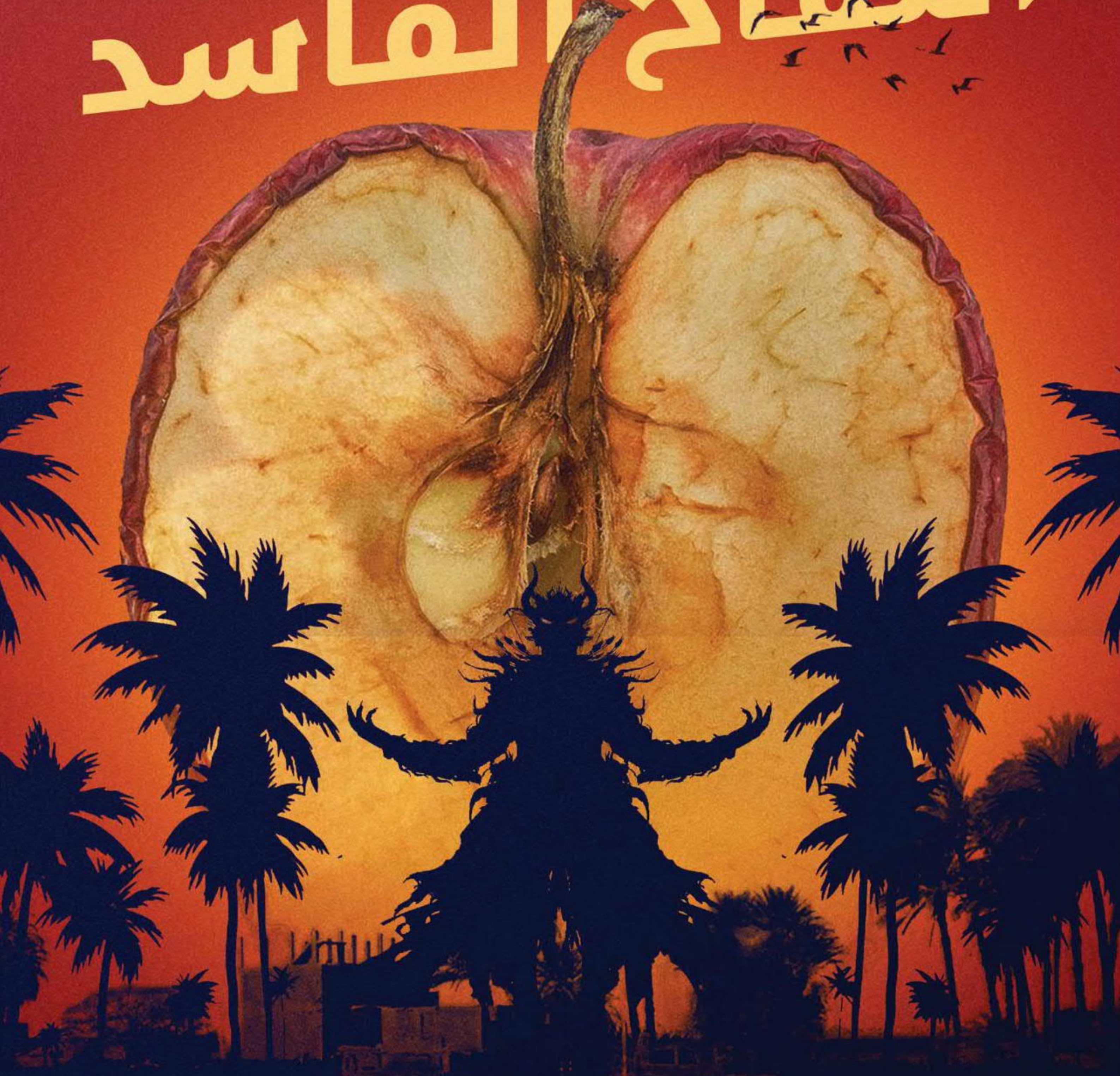

إهداء

هذه المرة ليس هنالك شخص بعينه، صادفت في الفترة الأخيرة العديد من المحن، تعلمت فيها مَنْ الصديق الحق الذي عافر ليتواصل معي، ومَنْ الذي لا يعرفني سوى لمصلحته وبعدها راح يتحاشى أن تتلاقى أعيننا، ومَنْ الذي لم ينتبه لغيابي من الأساس كما لو كنت هباءً منثورا بحياته.

لقد كنت موجودًا دومًا حيث يعثر عليّ الجميع، ولم ينتبه أحد أنني في حاجة إليهم هذه المرة، لقد صرخت ووثبت وأنا ألوّح كالغريق لألفت انتباههم لكنهم لم يلحظوني من الأساس، أو ربما فعلوا لكنهم لم يكترثوا.

هذه المرة أهدي الرواية إلى

من يقيم بين ضلوعي وداخل ثنايا قلبي

من يعتبر الجمال وسط قبح هذا العالم

من تحمّل كآبتي دون أن يتأفف، دون نية للفرار مني

من وقف مشجعًا لكل قراراتي التافهة

إليك أنت

وأخيرًا إلى أسرتي الحبيبة التي لم تتركني لحظة.

تمهيد

انطلقت السيارة تلتهم الطريق الأسفلتي قاصدة وجهتها بتراخٍ، لم تكن أي سيارة، بل كانت عربة الشرطة الشهيرة التي يطلق عليها (بوكس)، وبالمثل لم يستهدفوا أي وجهة، بل هو مسرح جريمة، أو هكذا من المفترض أن يكون.

لقد كثرت البلاغات على نقطة الشرطة في الأشهر الأخيرة، كما لو أن تلك المنطقة قد أصابتها لعنة ما دون تمهيد. بعضها يكون بلاغات كيدية أو مجرد تهويل للأمور البسيطة يمكنها أن تُحل ببعض التعقل ولا تحتاج لتدخل الشرطة، والبعض الآخر يكون صادقًا لدرجة تثير الحيرة.

لقد ضرب سعار ما ضباع الجبل أو حلّ بذئاب الوديان خبل من نوع خاص، مهما كان المسبب فقد ثارت الوحوش وشرعت تهجر مضاجعها للهجوم على الأهالي بمنازلهم دون أن يخشوا من تجمعات البشر التي تفوقهم عددًا وبمقدورها التغلب عليهم.. هذه الحيوانات تعلم أن معركتها محسومة، ربما يتمكنون من قنص روح واحدة أو اثنتين لكنهم سيقتلون في نهاية المطاف، وهذه ليست من صفات الذكاء التي تتسم بها هذه الفصيلة من المفترسات، إنهم يقدمون على مهمات انتحارية حيرت الشرطة العاجزة عن توقع الضربات القادمة.

بلغت عربة الشرطة أخيرًا المكان الذي أتى منه البلاغ، كانت العربة تتكون من ثلاثة أفراد لا رابع لهم، عسكري يقود العربة، وأحد ضباط نقطة الشرطة بجانبه على الكرسي الأمامي، وأخيرًا عسكري ثانٍ يجلس وحيدًا في صندوق العربة بكسل.

لم تلبث السيارة أن توقفت على بعد متر واحد من المكان المزعوم –والذي اتضح أنه كشك بقالة-، حتى صاح الضابط بالعسكري في مؤخرة العربة، ليحرك قدميه ويكتشف الأمر ثم يعاود ليخبرهم، بدلًا من تقاعسه هذا.

هبّ العسكري من العربة مترجلًا صوب الكشك، خشية من المماطلة التي قد تعرضه لغضب الضابط قليل المزاج هذا اليوم.

ظل الضابط يراقب العسكري وهو يدلف للكشك، وهو يفكر في السبب وراء تلك الهوجة التي أصابت أكِلات اللحوم، لقد قرأ في إحدى الصحف، التي كان يلف بها شطيرة الفول خاصته، مقالًا عن الأمر، فقرر أن يمسح فحواها بعينيه على سبيل التسلية مع الفطور. كان من أوائل الأسباب المسؤولة عن تلك الظاهرة، التي ذكرها صاحب هذا المقال، هو آثار النشاط البركاني الذي قد يؤثر على خلايا مخ الحيوانات وينشط حالة الافتراس لديها!

بمجرد أن قرأ الضابط هذا المقطع، ترجم عقله تلقائيًا أن هذا الهراء لن يحدث ببلده أبدًا، فأي براكين تلك الموجودة بمصر أو حتى بمنطقته الريفية البسيطة؟ فألقى صحيفة الجرائد بسلة المهملات بغرفة مكتبة بنقطة الشرطة، وهو يضم تلك الظاهرة كحالة تحدث للآخرين فقط، وراح يسلي فطوره بمطالعة إحدى مقاطع اليوتيوب السخيفة صاحبة عناوين شاهد قبل الحذف.

خرج العسكري من الكشك في حالة أقرب للهرولة، ثم انحنى بجذعه صوب الأرض وراح يفرغ كل ما كان بمعدته من طعام أو حتى سوائل!

راح الضابط يبتسم في سره على رقة عساكر هذه الأيام ومدى ضعفهم، فطلب الضابط من العسكري المتربع خلف عجلة القيادة أن يذهب هو لتفقد الأمر، مادام زميله خائر الأعصاب لدرجة أنه لا يستطيع تحمل منظر جثة ممزقة وبعض الدماء المترامية حولها.

بالطبع المشهد لم يتعد هذا الأمر، فكافة الحالات السابقة تنطبق عليها ذات المواصفات. ترجل العسكري منفذًا للأمر، ثم عاد الضابط يؤنب ضميره على تسرعه في التخلص من المقال العلمي، ها قد أصابهم ما كان يظنه يحدث فقط للآخرين، كما أن مجتمعهم الريفي المتواضع، أبسط من أن

يطلبوا عون أحد العلماء من القاهرة، لدراسة تلك الظاهرة العجيبة وإيجاد حلول لسبر أغوارها.

ولج العسكري الثاني للكشك هو الآخر، لكن الضابط لاحظ من موقعه شيئًا ما. حين خرج العسكري الأول لم يغلق الباب خلفه، فما الذي أدى لانغلاقه ودفع العسكري الثاني لفتح الباب قبل دخوله؟

هل يعقل أن يكون الهواء؟ رغم أن الرطوبة جافة ولا توجد أي نسمات هواء قادرة على دفع قصاصة ورق صغيرة، فما بالك بباب خشبي ثقيل كهذا. أم أن هنالك من أغلقه؟ بالطبع هذه المنطقة البسيطة لا تحمل تلك النوعية المتطورة من الأبواب التي تنغلق من تلقاء نفسها سواء بالمغناطيس أو بالجاذب الإلكتروني، كالتي يراها الضابط في أفلام أهل البندر. إذا ما السبب يا ترى؟

ثم سمع الضابط صرخة فزع من العسكري الثاني وهو داخل الكشك دون أن يخرج منه فارًا كالأول! هنا فحسب قرر الضابط إنه ما من متسع للتقاعس بعد الآن، فهُرع من السيارة صوب باب الكشك الذي كان مفتوحًا على مصراعيه هذه المرة كما لو أنه يرحب به، حرر مسدسه من غمده استعدادًا لأي هجمة غادرة، ربما الضبع أو الذئب المسؤول عن الجريمة لازال يتربع بركن ما بالكشك وقد انقض على

العسكري.

لم يدخل الضابط الكشك، بل بمجرد أن سقطت عيناه على فحواه، تجمدت الدماء في أوصاله لدرجة أن المسدس قد هوى من بين أنامله! هو من كان يسخر من الجميع على رباطة جأشهم الرخوة، ها قد شاركهم ذات الحالة التي لا يحسده عليها أحد.

لقد كان العسكري متربعًا على الأرض في إحدى زوايا الكشك كالأطفال، بل ربما يتمنى بالفعل أن يعود صغيرًا يطلب العون من والدته ويحتضن لعبة محشوة كما لو أن أمان العالم أجمع مختزل بصوفها، مادامت الدنيا بشعة لهذا الحد!

لم يكن حال العسكري الفزع هو ما أثار خوف الضابط، ولا حتى تلك النظرة المنحوتة على ثغره وهي تحمل أعتى علامات الرعب والهلع، بل ما كان بوسط الكشك وجذب صوبه كافة الأنظار المرتاعة.

كان هنالك جسد يتدلى من السقف وهو مربوط بحبل غليظ، معقود على شاكلة مشنقة! ما العجيب بالأمر، إنها حالة انتحار إذن، لم تكن تلك حالة الانتحار الأولى التي شهد عليها الثلاث رجال، بل عاصروا على مدار خدمتهم بجهاز الشرطة الكثير من الوقائع الأكثر هولًا من تلك. ولكن من زعم أنها

انتحار من الأساس؟

لم يكن الجسد المتدلي من المشنقة يحمل الشكل المتعاهد عليه، بالطبع لا يوجد اتفاق خاص بين المنتحرين أن يقدموا على إزهاق أرواحهم بذات الطريقة. بل المقصود هنا هو أن الجثة لم تكن كاملة!

كانت مبتورة الأطراف الأربع، لتبدو كسلحفاة لا يبرز من صدفتها سوى الرأس! كان عنق الجثة منحورًا كما لو أن بتر الأعضاء أو الشنق لم يتموا وظيفتهم على أكمل وجه، لهذا وجب تدخل خارجي!

كان وجه الجثة هو الآخر إصابته ليست بالهينة، بل كان مسلوخًا بشاكلة عجيبة لم يشهد الضابط ضبعًا أو ذئبًا أو حتى ديناصورًا قادرا على تشويه الوجه واقتلاع الجلد عنه بتلك الطريقة عديمة الرحمة.

كانت الدماء تلطخ أرضية الكشك وجدرانه وحتى سقفه لم يسلم من تلك المذبحة التي قامت في المكان، لا يتجرأ على تقليدها أعتى جنود المغول أو أشرس محاربي الفايكنج.

نصف بضائع الكشك قد تبعثرت بكل مكان بعشوائية كما لو أنها لم تتحمل المشهد القابع أمامها فقررت الانتحار بدورها على أن تشهد هذا العذاب.

هنالك بضع رصاصات مستقرة بحوائط الكشك مما يدل على أن هذا التعس لم يمت خاضعًا، بل قاوم حتى الرمق الأخير، وها هو حاله الآن أقرب بالبالون عجيب الشكل المسرب للدماء عوضًا عن الهواء. ليته خضع ورضي بالهزيمة في سلام، ربما كانت نهايته أخف وطأة من هذه الملحمة الدامية.

هوى العسكري الأول الذي كان يختلس النظرات من خلف الضابط، على الأرض فاقدًا الوعي، لقد أفرغ معدته في البداية لكن اتضح أن هذا ليس كافيًا وعليه تفريغ عقله ذاته من هذه البشاعة.

فكر الضابط في الدخول للأخذ بيد العسكري القابع في زاوية الكشك دون حراك، كما لو أنه أصيب بجلطة دماغية أو قضت عليه الصدمة العصبية بالفعل، لكنه تراجع عن الأمر. ليتوقف قلب العسكري عن النبض أو يذهب للجحيم على أي حال، فالضابط لن يلمس هذا المكان الملعون بطرف حذائه حتى لو انطبقت السماء على الأرض.

ربما بالمكان الكثير من الأدلة لم تلاحظها عينا الضابط، كمكتب الكشك المهشم كما لو أن ثورا قد هوى فوقه، أو دقيق الطعام المغلّف للمكان صانعًا مع الدماء عجينة قانية أقرب للتي يتم مشاهدتها في أفلام الرعب إن لم يكن هذا

واحدًا منها بالفعل.. لكنه اكتفى بما شاهده حتى الآن وعاد مهرولًا صوب سيارته ليطلب العون.

لقد لاحظ الضابط من البداية عدم وجود أي أثر لأي من السكان المحليين الذين في الأغلب يتجمعون بالعشرات حول منطقة أي حادث أو أي مسرح جريمة، مهما كان تافهًا لا يتعدى حيز البهيمة النافقة. رجح اختفاءهم في البداية إلى ساعات الصباح المبكرة التي يعمل بها الآن، وأن أغلب الأهالي بهذه الأثناء إما نائمون أو يتحضرون للذهاب للعمل. لكنه الآن يفهم أن الأمر ليس بهذه البساطة، هنالك سبب آخر قادر على إثارة الفزع في قلوب ثلاثة رجال يتعاملون مع القتلى والدماء بصورة يومية، فما بالك بالعمال الذين لا بهم ولا عليهم.

بلغ جهاز اللاسلكي المثبت بالسيارة، ليطلب من الجهة الأخرى أن يمدوه بالدعم من كافة القوات وكافة عربات الإسعاف المتاحة، لكن الكلمات تحشرجت بفمه ولم يخرج من حنجرته إلا فحيح مختنق، حين أبصر باب الكشك ينغلق تلقائيًا في قوة صدر عنها دوي كاد يهشم زجاج السيارة أو يخلع قلبه من قفصه الصدري، أيهما أقرب! هذه القوة لن تأتي من نسمات الهواء الضعيفة، بل هي تحتاج لعاصفة رعدية خاصة لينغلق الباب بهذه الشاكلة المثيرة للفزع.. هنالك شيء

ما أغلق الباب، أو ربما. أحد ما.

التفاحة الرابعة عشر

عزبة شجرة التفاح بمحافظة كفر الشيخ المصرية

عام ٢٠٢٢م

اليوم الأول

كم هي خلابة الطبيعة الريفية برائحة طميها المنعشة للروح وكل ما تحمله من بساطة منازلها الصغيرة التي لا تتعدى الطابقين أو الثلاثة على الأكثر، مصنوعة من طوبها اللبن المميز البعيد عن التكلف. غير نسمات الترعة أو النيل -مهما كانت المسميات- الممتزجة بعليل الصباح التي ترفه المرء بتنفس الصعداء مريحًا لكل الأعصاب من الهموم.. ما أسخف هذه الأمور!

على ما أظن، تلك هي الأفكار السابحة في أذهان هؤلاء المسافرين الجدد لتلك المنطقة أو من يكتفون بالزيارات القلائل، بالأخص مع تلك الابتسامة السمجة على وجوههم، على نقيض هؤلاء المتجهمين المؤكدين أنه يوم آخر لهم في شقاء الدنيا.

عاودت النظر للمشهد من نافذة الميكروباص مكتفيًا من تأمل الوجوه البائسة، لأجده قد تبدل بطريقة مثيرة للإعجاب! فمن الناحيتين لهذا الطريق هو الماء لا غيره!

كما لو أننا نعبر جسرًا بحريًا، فيما عدا أنه طريق أرضي مستقيم. ليس مضبوطًا حد الإتقان بالطبع، لكنه كفيل على الأقل بضمان عدم انقلاب الميكروباص بكل من فيه.. بل كان أسفلتيًا على نقيض أغلب الطرق التي مررنا بها، موحيًا أنه أحد مشاريع الدولة التي وضعت بها حجر الأساس ثم نست أمرها بالكامل بعد هذا. يحده من الجانبين بعض الرمال التي سرعان ما تتحول لطمي إثر اختلاطها بماء البحيرة. ولا شيء يعكر صفو هذا النظام غير تلك الشجرة بمنتصف الطريق تقريبًا وما يجاورها من كشك صغير مهترئ، كما لو أنهما علامة مسجلة لهذا الطريق، يمكن إبصارهما عن بعد بكل يسر.

راحت أذناي تلتقطان عنوةً بعض الهمهمات بين سيدة عجوز وشابة في عمر حفيدتها، يبدو أنهما تعرفتا على بعضهما حديثًا بهذا الطريق ليتضح أن الفتاة طالبة إقليمية لا تزور العزبة إلا بالإجازات، والعجوز هي أم زوجة إسكافي العزبة وقد حضرت لسبوع حفيدتها الذي سيقام عقب ثلاثة أيام من الآن.

عجيب أمر هذا الود الذي يخلق بين الأغراب من العدم! فما أدرى هذه العجوز أن تلك الشابة ليس لديها عقدة من جدتها التي كانت تعذبها في صغرها مجبرة إياها على تناول

لحم الموتى على سبيل المثال، وتنوي قتل أي عجوز أخرى تذكرها بها؟ وما أدرى تلك الفتاة أن تلك العجوز ليست أمنا الغولة أو النداهة أو أي أسطورة ريفية متجسدة؟ هذه الفئة العجيبة تصنع من التفاهات ودًا بل وتبني عليه العشم، فلا بد أن هذه المحبة في الكلام قائمة على شيء ساذج كدفع الفتاة أجرة الميكروباص عن العجوز التي لا تحمل (الفكة).

كدت أهم بقتل كلتيهما لثرثرتهما التي لا تكل أو تمل، وكدت أنحر عنق السائق الذي استغرق وقتًا أكثر من اللازم لوصولنا، لكني تراجعت حين توقفت العربة معلنة وصولنا للعزبة أخيرًا بعد طول عناء في علبة الصفيح تلك.

الآن أترجل من بين هؤلاء العامة. لا لست هذا الشاب ذا العوينات الضخمة، ولست هذا الكهل هزيل الجسد ذا الشارب العملاق المضحك والذي يحرص على نموه ليداري جرحا ذا ماضي ما، ولست تلك المرأة المتشحة بالسواد رغم أنني بالفعل أرتدي ذات اللون.. سأصرح عن كنهي اختصارًا للوقت.

أنا من يسير في وقار العالم وفخر الأكوان، من تتناثر ذرات التراب والرمال من أسفل مخالبي احترامًا ممتزجًا بالخوف، من اشرأب بعنقي فتنحني كافة المخلوقات من حولي خشوعًا، من يفعل أي شيء مهما كان بسيطًا كالإماء بوجهي أو الرمش بعيني لكنها تلقي في مقابلها وابلا من

الاحترام والطاعة، من يحمل اسمه الهيبة الكفيلة بشحن الهواء حتى تبرم به النيران تلقائيًا أو تكثيف الكهرباء بالعقول لمسها بالخبال أو تصلب الدماء بالشرايين لانقطاع نبضات القلوب.. أنا الجالس في هدوء الملوك، متطلعًا صوب هذه العزبة بعيني الضيقتين مفكرًا بمصيرها، هل ستضحي زيارتي مسالمة لأرحل منها في وداعة دون أي مناوشات؟ أم ستسقط الضحايا حتى يحصى تعداد تلك العزبة على أصابع اليد؟ من أخدع؟ فلا أذكر مرة طرقت فيها مكانًا دون إحالته لهشيم على أقل تقدير!

لفت انتباهي شخص يحمل هالة طيفية نشطة يتحرك بين البشر! فقررت تتبعه قبل أن يختفي ثم نعود للتعريف بنفسي لاحقًا.. لقد كان صاحب الهالة يتبع تلك الشابة الإقليمية من جديد! رغم أنني ضجرت منها ويهويني الشوق لنحر عنقها، لكن علي العلم أولا ما المميز بها ليلحقها صاحب الهالة!

ثم بدأت المطاردة! هكذا وبدون أي مقدمات تعجل الفتاة من خطوها وبالمثل يفعل صاحب الهالة، تتلفت حولها على أمل مطالبة العون من أي أحد لكن يبدو أن حيائها يمنعها مفضلة الاعتماد على نفسها أو لم تعثر بين العامة على من تثق من أنه سيمدها بمساعدته دون الإغداق عليها بالسخرية من طفولتها، تمنت أن تنبت الأرض بأي من أقربائها المتوفين

لينقذها من هذا الموقف، أو لتنشق الأرض مبتلعة صاحب الهالة ذاك الذي يواصل ملاحقتها في إصرار الفهود لقنص الغزلان. صاحب الهالة بدأ يعدو بالفعل مطلقًا العنان لجنونه، لكن الفتاة محظوظة في أنها أكثر شبابًا فبالتالي أخف حركة ورئتاها أكثر اتساعًا للتنفس.

عليها التصرف قبل أن يستمر الفراغ الفاصل بينهما في الاضمحلال حد الانعدام وتستطيع يد صاحب الهالة المتسخة من القبض على تلابيبها. هل ستلقي عليه حقيبة سفرها وتفر من المكان بعد أن تكتسب خفة الوزن؟ بالطبع لا فهذا الحل خيالي أكثر من اللازم. هل ستقف للمواجهة؟ لا من جديد، فهذا أبعد عن تصرفات البشر المتعارفة بالفرار من أرض المعركة. وبالفعل لم تخيب أملي.

تشبثت الفتاة بحقيبتها جيدًا ثم هرعت كما لو أنها بالمارثون، وسط ضحكات العامة على فعلها الطفولي، بينما تعثر صاحب الهالة لكهولة جسده، فراح يلتقط أنفاسه بعنف قبل أن يهم مغادرًا المكان كأن شيئا لم يكن ناسيًا سبب المطاردة برمتها إن كان لها حجة من الأساس. لقد كان الرجل مبعثر الثياب والهيئة والشعر وكل شيء آخر، إنه أحد هؤلاء الذين يلقبون بالمجذوب أو الدرويش!

أن يحمل مختلًا يطارد العامة بلا مبررات هالة طيفية بهذا

النشاط فهذا أمر مستحيل، لذلك عليّ معرفة لما تلك الفتاة بالذات من كان يلاحقها؟ فها هو الآن يفعل أمور المجانين تلك كالتحدث مع ذاته أو مضاربة الهواء. رغم أن هنالك الكثير من الفتيات أو النساء ممن هم أجمل وأكثر أنوثة من تلك الشابة يمرون من حوله لو كان غرضه شهوانيًا.. لذلك آثرت تتبع الفتاة لكشف سر تميزها ثم أعود لأمر المخبول هذا فيما بعد، لكن استوقفني..

- انتظر يا قاهر الموت.. لا تزيدنا هلاكًا.

كانت الكلمات خارجة من فم المجذوب بالطبع، دون أن يعبأ أحدهم له كنوع من التعود على هذيانه غير المنقطع.

هل نعتني لتوّه بهذا اللقب الغريب دونًا عن غيري؟ هو لا ينظر صوبي، بل عيناه تتحرك في جنون عشوائي دون أن يقصد وجهه، ورغم هذا نطق بأحد ألقابي؟ إن هذا الرجل يعرف من أكون!

***

بمساء ذات اليوم جلس المجذوب القرفصاء في الخرابة على طرف العزبة، التي اتخذ منها وكرًا يستره ولو من جزء بسيط من قسوة الشارع. كان يجْرُد ما جمعه من صدقات لهذا اليوم وحصيلة ما سيجنيه حين يستبدله بالطعام.

المكان مبعثر وغوغائي لأقصى درجة، فبالكاد يمكن توسم حصير المجذوب المتخذ منه فرشًا وسط هذا الكم الفج من القمامة.

كان أمامه جزء ضخم من مرآة محطمة، لا يعلم هو ذاته كيف حصل عليها أو منذ متى وهي بهذا المكان، لكنه يعتبرها جزءًا لا ينفصل من ديكورات خرابته المتواضعة، فسطحها مستو على أي حال بلا خدوش أو كسور.. وبفضل حالة الخبال التي تملكته تلك، كان يختلس لها نظرات من الحين للآخر، تحسبًا لأي كلب ضال أو قط شارد ينوي مشاركته مضجعه الملكي، أو خيفة من شباب العزبة الذين لا يجدون في يومهم تسلية إلا بالسخرية منه والاحتقار من هيئته الرثة.

لكنه اليوم قد لمح شيئاً في المرآة! كان انعكاسًا لثلاثة أكياس قمامة ضخمة بعض الشيء على بعد خمسة أمتار منه. وإن ابتغينا دقة الوصف، فقد كانوا اثنين في المقدمة وثالثهما خلفهما مباشرةً ليكوّنوا شكلاً مثلث الأضلاع. المكان مليء بالفوضى دون شك لكنه لا يتذكر انتصاب هذه الأكياس على مقربة منه لهذا الحد، بل إنه غير واثق إن كانوا ثلاثة من الأساس! فآخر مرة أبصرهم فيها بالمرآة كانوا كيسان تقليديين على بعد عشرة أمتار على الأقل منه! هل

هنالك من حركهم؟ لكن من يكون وهو لم يسمع أثر حركة أي غريب؟ إنه يستشعر وثبات الفئران في دهاليزها. فما بالك إذًا بشخص سيتعرق ويلهث ويتعثر بفوضى الأرض ليحرك هذه الأكياس، سيصدر عنها ضجيجًا يوقظ العزبة بأثرها؟

توقف عن إعمال عقله المخرف أخيرًا وقرر اتخاذ الفعل، بالنظر خلفه ليتأكد من ظنونه لكنه وجدهم اثنين بالفعل كما عهدهم دون الكيس الثالث في الخلفية. عاد بنظره للمرآه مرة أخرى في حركة سريعة ليتأكد أنها تشاركه انعكاس ذات المشهد ليجد أنهم ثلاثة! بل وتحرك أحدهم في إثارة لغيظه معلنًا أن ما يتعلق بتلك الأكياس ليس طبيعيًا على الإطلاق!

نظر للخلف من جديد على أمل أن يبصر جروًا يتقافز من خلف هذه الأكياس مؤكدًا أنه صاحب هذه الجلبة، لكنه بالطبع لم يعثر على أي كائن حي بل على الأكياس والتي كانت ثلاثة هذه المرة! هل تملك منه الخرف لتلك الدرجة، التي حال فيها عقله البشري إلى ذاكرة سمكية هشة لا يمضي عليها أكثر من ثلاث ثوان لينسى اسمه من الأساس؟

ها قد تحرك الكيسان الآخران مثل الأول، في حين أنه ينظر لهما هذه المرة بأم عينيه وليس في المرآة. لتبيت تلك المرة الأولى التي يلاحظ بها ضخامة هذه الأكياس ومدى صلاحيتها لتحوي بفحواها ثلاث جثث!

فتحرك المجذوب عن جلسته أخيرًا ليحبو صوب الكيس في تؤدة متوقعًا الأسوأ، فلا تزال فكرة أن كل هذا مقلب سمج من الصبية قائمة. كاد يلامس الكيس الثالث في مؤخرة المثلث متجاوزًا ما بالمقدمة، لكن الشلل قد تملك أنامله وربما كيانه بأكمله حين شاهد الكيس على المقدمة اليمنى ينكمش ثم يعاود التمدد كما لو أن أحدهم يتنفس بداخله. ومع الأسف لم يجد الوقت الكافي ليترجم هذا الفعل العجيب حيث انشق الكيس على اليسار لأثب أنا منه أخيرًا ناحرًا حنجرته بمخالبي، ليهوي الرجل محاولًا كتم تسرب الدماء.

كان بإمكاني فعل هذا من البداية بالطبع، لكن هذه المتعة التي تعتريني أثناء إخافة ضحاياي وزرع الفزع بأحشائهم لا تضاهيها أي نشوة. ليس هذا وقت التباهي بعبقريتي الجهنمية، فالرجل سيلفظ أنفاسه الأخيرة وعليّ الخروج منه بمرادي أولًا.

سمعت بعض الحركة القادمة من بعيد، فرفعت عنقي مختلسًا النظر، لأجد أنهم ثلاثة شباب يتحركون على أطراف أقدامهم كاللصوص في محاولة لعدم إثارة أي ضوضاء، حاول المجذوب طلب النجدة منهم لكن حنجرته قد انتهكت عن أخرها بفعل مخالبي، فخرجت استغاثته ضعيفة مشوشة،

بالكاد أسمعها وأنا على بعد سنتيمترات منه.. عليّ الإسراع في مهمتي قبل أن يلاحظنا أحد.

بلغت مقدمة رأسه وهو يفترش الأرض ينتفض بها بلا جدوى، فلم يعد يصل لساقيه الدماء الكافية لتعاونه على النهوض أو الزحف حتى، كشرت عن أنيابي لتلمع في ضوء القمر، قائلًا في ابتسامة شيطانية:

- والآن لنعرف عن سبب سابق علمك بي.

وبدون مقدمات غرست أنيابي في جبهته، لتبدأ مقلتي عينيه بالحركة بشكل عشوائي في جنون، وبذات الوقت تتضح الرؤية في عقلي لأبصر..

***

التفاحة الخامسة عشر

عزبة شجرة التفاح

عام ٢٠٢٢م

الكل اعتقد أن المباراة هي الشيء الوحيد المثير في هذه الليلة، لكنهم لم يتوقعوا أبداً أن تكون هنالك إثارة من نوع خاص، في طريقها إليهم بسرعة مئتي كيلومتر في الساعة.

كان دوي هتافات التشجيع على المباراة عالٍ لدرجة أنه تردد بجميع أنحاء العزبة محولين المقهى الصغير لإستاد كرة قدم، لكن ذلك لم يعِق وصول صرير احتكاك عجلات إحدى السيارات المخيف بالأرض إلى الآذان.

فالتفت الجميع نحو الصوت متسائلين عن هوية هادم حماستهم.. ليفطنوا أنها سيارتك يا (وجدي)! لما كل هذه السرعة التي تقود بها؟! حالت سيارتك بلمح البصر في أنظار قاطني المقهى، من بقعة صغيرة بآخر الزقاق إلى مركبة معدنية ثائرة. تتربع خلف زجاجها يا (وجدي) متشبثًا بعجلة القيادة، كما يبدو أنك نسيت أمر قدمك التي تهرس دواسة الوقود أسفل ساقك المرتعشة! كما لو أنك تسابق الزمن والموت ذاتهما!

مال أحد الجالسين في المقهى على صديق له، مردفًا:

كم أمقت هذا الرجل! يظن أن علينا طاعته بلا نقاش.. كل هذا بسبب علمه والتحاقه بكلية التربية ب(مصر).

ثم راحا يتبادلان الحديث عن الكثير من المواقف التي تظهر مدى تعاليك يا (وجدي) باعتبارك معلم العزبة الوحيد، ومدى سخطهم من جشعك في استنزاف أموالهم في الدروس المنزلية. لكني لا أهتم بأي من تلك النميمة، فما جذب انتباهي، هو طريقة قيادتك لسيارتك يا (وجدي) كما لو أنك مراهق متهور سرق مفاتيح سيارة والده، وهو ينوي أن ينتشي منها بقدر استطاعته قبيل أن يعاقب على فعلته المشينة.

إنك تقترب من المقهى لدرجة أنك تكاد تصطدم به! وهذا ليس تعبيرًا مجازيًا، فلو استخدمت الفرامل الآن، لدهست زبائن المقهى بإطارات سيارتك أو انقلبت على أقل تقدير طبقًا لقوانين القصور الذاتي.

لاحظ زبائن المقهى هذا، فنهض الجميع مسرعين وعقولهم تعمل في ميكانيكية عتيقة.. هل يهرولون بعيدًا؟ هل يحتمون خلف المقهى؟ هل سيفوز فريقهم المفضل بتلك المباراة؟ هل ستتحمل أسوار المقهى المصنوعة من خليط من ألواح الطوب اللبن المتراصة فوق بعضها في غير نظام صدمة ناتجة عن سرعة السيارة الأقرب بالسباقات؟ تكاد

عقولهم تنفجر من سيل الأفكار أو القرارات التي عليهم اتخاذها الآن، ولكن هل سيشفع التفكير لهم إثر الإصابات المميتة التي ستحدثها السيارة دون الإقدام على فعل واحد حتى لو بالبكاء؟

من الجيد أنك تصرفت يا (وجدي) وضغطت المكابح بكل ما مدتك ساقك من قوى مع سحب ذراع الفرامل الجانبي.. لقد كتبت لهؤلاء البؤساء عمرًا جديدًا، وإلا لاكتظت صحف اليوم التالي بأغرب أنواع الإبادة الجماعية على مر العصور!

لن يمر تصرفك الأخير يا (وجدي) مرور الكرام دون بعض الضجة.. فانحرفت سيارتك عن الطريق، ولولا اصطدام جانبها بجدار إحدى المباني القريبة، لأمست السيارة تلثم الأرض الطينية بكلتا جوانبها الأربعة بقبلات اللقاء الأول والأخير قبل أن تتحول لحطام. ثم يتبع صوت الاصطدام صيحات بعض الحيوانات المعترضة على من أزعج منامها بهذا الصخب.

هب الجميع صوب السيارة لتفقدها ولإنقاذك يا (وجدي). هم يكرهون جشعك للمال ولكن ليس لدرجة الموت أو ليس أمام أعينهم على الأقل. فكادوا أن يجيئوا بأي ساق معدنية لمعالجة الباب الذي آل لقفل عملاق يأسرك بداخله بعد محاولاتهم الفاشلة في فتحه، لكنك لم تفقد الوعي بعد

لتترك لهم زمام الأمور، بل رحت تدفع الباب بدورك من الجهة المقابلة، مصحوبة ببعض الضربات من ساقك يملؤها الغِلّ، حتى أفرجت عنك السيارة أخيرًا.

أسباب فقدان الوعي كثيرة بلا شك، وما عاصرته من سرعة سيارتك الهمجية وذلك الاصطدام المدوّي، ناهيك عن دمائك التي زينت جبهتك ولا زالت تنهمر محيلة فروة شعر رأسك للأحمر القاني، كفيلة بإلقائك في غيبوبة طويلة الأجل، لكنها لم تفعل! يبدو أن مفعول الأدرينالين الساري بأوصالك يا (وجدي) لم ينقطع بعد.

ولكن لم هذا الحادث من الأساس؟ بالتأكيد الأمر لن يضحى ساذجا كتلف مكابح السيارة أو تعجلك للحاق بأحد دروسك الليلية أو حتى لمشاركتك برؤية المباراة.. بالأمر شيءٌ أكثر خطورة قد أصابك!

راحت عيناك يا (وجدي) تمسح وجوه الحاضرين مصحوبة بالتفاتات من رأسك ينتفض معها جسدك بأكمله في قوة! كما لو أنك استيقظت لتوك من كابوس مرير لا نجوت من حادث كاد يودي بعمرك وحيوات الجميع!

كانت عيناك زائغتين كأن مجال بصرك يحمل ما لا يستوعبه غيرك من البشر، تنظر إلى الأهالي في تعجب كما لو أنك لا تعرف أحداً منهم أو بتعبير آخر، تبحث عن أحد!

فالتفت لسيارتك التي تهشمت جميع نوافذها الزجاجية، لتبدأ في صب غضبك الجم عليها على هيئة ضربات متنوعة. تركلها بساقك بكل غيظ، تنزل بقبضتك على سقفها حتى كدت تدمي يديك وأنت تصرخ غاضبًا برمي السبب على تلك الخردة والتي لولا توصيات والدك بها لألقيت بها في الترعة بيديك متلذذًا.

فقرر أحد الأهالي المتابعين للمشهد المبادرة بسؤالك عن سبب كل هذا عارضًا عليك أن يقلك لطبيب العزبة نسبة إلى رأسك التي لم يخمد نزيفها بعد. توقفت عن ثورتك أخيرًا يا (وجدي) ثم عدت تنظر للأهالي بخوف هامسًا بأن (مؤمن) قد عادا!

ثم تحشرجت الكلمات في حلقك أو ابتلع القط لسانك كما يقال في الأمثال الشعبية. فقد أتاك التحذير.

أنا على دراية بهذا التحذير عن ظهر قلب.. إنه الإنذار الذي يلقاه الحمقى عند اقترابهم من مناطق نشاط عبث الجان لحثهم على الفرار مادامت في متناول أيديهم الفرصة لذلك، إنه التخويف الذي يجده الوسطاء الروحيون من كيانات الأبعاد المظلمة ينهاهم عن التوغل بخبايا عالمهم، إنه التنبيه الذي يصادف ذوي البصيرة العالية من الشياطين قبل فضح أسرارهم أو وصفهم على العامة.

بعين آدمية سنبصر وجوهاً غارقة في تعابير الشفقة على حالك أيها الرجل الوقور بعد فقدانك لعقلك بهذه الطريقة بين ليلة وضحاها؟ وبعين غير آدمية كالتي أمتلكها وأصبحت تشاركني بها يا (وجدي) كان التحذير بمثابة نفس الحشد لكنهم لم يحتفظوا بالوجوه التي عهدتها يومًا بالعزبة، بل لم تكن هناك وجوه من الأساس لتحدد ذاكرتك إن كانت مرت عليها من قبل أم هي حديثة العهد بك. كانت الوجوه خاوية، خالية من أي تعبير وأي ملامح بشرية، كما لو أن أحدهم مسحها بالممحاة! لكن هذا لم يكن إلا تمهيدًا للتحذير.

فقد كان التحذير الحقيقي يتمثل فيما ينتصب في الخلفية من هول وشناعة! كان هنالك أشخاص يشاركون الجموع في وجوههم الصافية الشبيهة بقطعة الجلد النقي، لكنهم أطول قامة بما يفوق البشر الطبيعي بكثير، مرتدين بزّات أنيقة غير معهودة وسط جلابيب أهل الريف البسيطة. ووسط كل تلك الأوجه الضبابية وجه واحد جلي الملامح. أين التحذير في هذا؟ لا أعتقد أن رؤية أوجه الموتى كـ(مؤمن) بالشيء المستحب.

لم يساندك عقلك الهش فوق هذا الحد، ولن تستوعب عيناك المرتجفة أكثر من هذا الخبال، فسقطت أرضًا يا (وجدي) بعد أن سلمت روحك لتلك الغيبوبة التي طال

انتظارها محولًا اليوم لأمسية استثنائية ستظل عالقة في أذهان الأهالي لأبد الدهر.

***

مرت ثلاثة أيام وأنت ممدد على فراشك يا (وجدي)، ملتصقًا بساعدك أنابيب محلول الجلوكوز مادا إياك بالغذاء الذي تحتاجه في منامك. وبالمنزل كادت أسرتك تشتعل من الخوف على رب دارها الوحيد، داعين أن تفيق سالمًا بأسرع وقت. وإن جئنا للحق، فخارج جدران منزلك يكاد يحترق أهالي العزبة بدورهم، ولكن ليس لمشاركة أسرتك قلقهم على صحتك، بل كانت خلجاتهم تتخبط من أثر الفضول لمعرفة مصابك يا (وجدي)؟!

كان اسمك وحكايتك المجهولة تتردد على ألسنة العزبة بأكملها من الصغار قبل الكبار، لدرجة أن بعضهم قد ينسى إلقاء التحية على الآخرين ويهمّوا بسؤال عن أخبارك وأي مستجدات عن غيبوبتك، كنت تملك من الشعبية ما يكفيك للمنافسة على انتخابات العمودية القادمة لو ظللت حيًا بالطبع.. كم أنت وغدٌ يا (وجدي)؟ لا يكفيك إثارة سخط الجميع في يقظتك، بل رحت تلهب فضول الأجمعين في رقدتك كذلك! للحق أنت محترف في جذب الأنظار إليك في شتى الظروف.

وحينما أبصروا ابنك يهرول بالحارات قاصدًا طبيب الوحدة الصحية بالعزبة طالبًا منه العون، أيقنوا جميعًا أنك أفقت. استطاعت زوجتك يا (وجدي) ملاحظة التطفل الشيطاني للأهالي وادعاءاتهم الكاذبة بالرغبة في الاطمئنان على صحتك، حتى يراك الطبيب أولًا على الأقل. وللحق، لم يكن هذا الأخير أقل فضولاً من الآخرين! فلا تستبعد إذا رأيت فأرًا يتسلل خلسة لمنزلك ليختلس السمع هو الآخر، أو عصفورًا يقف على شرفة حجرتك منتظرًا على أحرّ من الجمر لحظة إفاقتك المنشودة.

حاول الطبيب أن ينهي تلك الفحوصات الروتينية على جسدك من قياس للسكر وضغط الدم وما إلى ذلك ثم طمأن زوجتك باستقرار حالتك الصحية مع توصية بالإكثار من السوائل وكافة هذا الهراء، بأسرع وقت، ليتمكن من الاستعلام عن إجابة السؤال الذي يشتهي طرحه المئات من الأنوف المزعجة، والذي يكمن في ثلاث كلمات صغار:

- ماذا حدث معك يا (وجدي)؟

لتجيبه أخيرًا بصوتك المتحشرج إثر قلة الاستخدام بثلاثة كلمات أنت الآخر بأن (مؤمن) لقد عادا!

بالطبع لم تكن بالإجابة التي توقعها الطبيب أو التي سيرضى بها، فهو لم ينتظر كل تلك الفترة يعض على أظافره،

ليكتفي بتلك الكلمات الموجزة. فعاود يسألك متمنيًا أن تتعطف عليه بالإجابة:

- أي (مؤمن) تقصد؟ أخبرني من البداية.

راحت عيناك يا (وجدي) تمسح الغرفة مفتشًا عن شيء ما! يبدو أن صورة التحذير الشنيعة لازالت تتردد كالصدى بدهاليز عقلك المرهق.

اعتدلت بجلستك ورحت تقص كل ما تتذكره بتلك الليلة المشؤومة، بعد أن تيقنت أنه ليس هنالك المراقب المتطفل على خلوتكم. أو هكذا تمنيت.

***

«كنت تقود سيارتك اللعينة على طريق العزبة الأسفلتي، عائدًا من إتمامك لإحدى مجموعات التقوية بالعزبة المجاورة، محطمًا لذّات الطلبة في متابعة مباراة رياضتهم المفضلة كعادتك.

كان كل شيء طبيعيا كما وجب أن يكون، تعافر مع سيارتك في السيطرة على عجلة القيادة المقاومة لأوامرك في عناد نسبة لعمرها العتيق، ترتب حصص الغد برأسك والدروس التي ستلقيها للصغار، تمصمص شفتيك إطراءًا على النغمات الأولى السابقة لغناء (أم كلثوم) بغنوتها الحبيبة

(فكروني) الصادرة من كاسيت سيارتك والذي لازال يتم وظيفته على أكمل وجه، لأنه الشيء الوحيد الجديد بها.

حتى اقتربت يا (وجدي) من شجرة التفاح التي تقبع في وسط الطريق كالحارس الذي يتابع المارة.. ثم قفزت السيارة فجأة كما لو أنك اصطدمت بشيء أو دهسته دون وعي منك!

كان عقلك يفكر في الكثير من الأشياء، لكنك لم تبلغ مرحلة الشرود لهذه الدرجة أو انزاحت عيناك عن الطريق ولو لثانية، فكنت موقنًا يا (وجدي) من فراغ الطريق أثناء قيادتك. ثم مَنْ هذا الذي يتجرأ على السير وحده بالطريق في ذلك الوقت المتأخر من الليل المحمل بظلماته القاتلة؟ هكذا فكرت لكنك أثرت الحيطة قبل أي شيء، فآخر ما ينقصنك أن يطاردك ذنب دهس لقط أو جرو صغير أثناء نبشه عن طعام ليسد أفواه صغاره المحتضرة جوعًا.

فأوقفت السيارة قبل أن تبتعد عن موضع شعورك بالاصطدام، مترجلًا منها لتفحص المكان على ضوء هاتفك المحمول باحثًا عن كتلة مهروسة من اللحم المختلطة بالدماء على أرضية الطريق أو شيء من هذا القبيل، لكنك لم تعثر سوى على طريق برئ ممتد في قلب الظلام السرمدي، لا يعيبه ولو صخرة صغيرة.

فعاودت للسيارة معللًا توهمك بحجة الإرهاق، وأن ما

صدمته ليس أكثر من صخرة كبيرة بعض الشيء قذفت بعدها للمياه. ولكن قبل أن تعاود مقعد القيادة، لفت بصرك الزجاج الأمامي للسيارة، الذي تزاحمت عليه الشروخ الموحية أن السيارة قد خرجت من حادث لتوها! وأن مجرد لمسات صغيرة على لوح الزجاج، سينهار كليًا متحولًا لفتات، بالرغم من أنه كان سليما صافيًا من أي خدوش كالورقة البيضاء منذ لحظات!

أنت على دراية كاملة بذاتك حين تشرع في طرح تلك الأسئلة الوجودية حول ما تجهله منتظرًا الجواب من العدم، دون حراك. تعلم أن تلك الوقفة ستطول، لهذا عقدت العزم يا (وجدي) على الوصول لبقعة الضوء أولًا، لتستمد منه بعض الأمان ثم تعاود التفكير بما حدث كما تشتهي، والضوء يكمن في العزبة بأعمدة إنارتها، لا بهذا الطريق الحالك الذي ينتابك عنه شعور أن الظلمة نابعة من أحشائه للكون بأكمله.

كم كنت حكيمًا حينها يا (وجدي)! لكنك سرعان ما وأدت حكمتك بيديك حين تلفتت حولك بطريقة غير إرادية، لتلمح كيانًا راقدًا أسفل شجرة التفاح! تسمّرت في مكانك جافلًا كلوح الخشب وكادت أناملك تخونك من هول ما رأيت، مسقطةً سلاحك الوحيد الكامن في هاتفك المضاء المحارب لتلك العتمة لكن يدك الأخرى كانت لسابقتها بالمنقذة، فرحت

تقبض على الهاتف بكلتا يديك بقوة قد تحدث انبعاج بصاجه المعدني أو تهشمه.

كنت تظن يا (وجدي) أن رؤية أحدهم بالظلام أمرًا مخيفًا وقد كنت أحمقًا بجدارة! حتى حين اعتقدت أن إبصار الموتى كـ(مؤمن) جالسًا أسفل شجرة التفاح والدماء تغطي وجهه، في عتمة الليل أمرًا يثير التوجس، فأنت ساذج من جديد؟ فهذا بالطبع مجرد هراء مقارنة بالرأس المبتورة التي يقبض عليها (مؤمن) بين كفيه وتتحرك عيناها وفكها السفلي كما لو أنها حية. هذا فقط ما يعادل الهول ذاته.

ثم بدأ مذياع سيارتك في إصدار صرير حاد أشبه بصوت احتكاك المعادن الصدئة. متى توقف المذياع عن تكملة أغنية (أم كلثوم) من الأساس؟ بالطبع لا تدري أو تلاحظ إن الدقائق السالفة كانت صامتة لا يعلو بها إلا دقات قلبك المتوتر. على أي حال عليك الآن الاهتمام بالفرار من هذا الجحيم الإبليسي قبل. قبل...!»

***

أكمل يا (وجدي) ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

قالها الطبيب محاولا استخلاص باقي الأحداث من فمك المرتجف، لكنه سرعان ما خمدت شعله حماسه بمجرد أن

بدأت يا (وجدي) في الارتجاف والهرتلة بأي كلمات غير متجانسة أو منطقية، لدرجة أن الطبيب اعتقد أنك لا تتحدث العربية من الأساس.

فرحت يا (وجدي) تتقافز عن الفراش كما لو لدغك عقرب، وأنت تنظر لكل أنحاء الغرفة بفزع من يبصر الجحيم في عينيه، حتى استقريت مكتنزًا بإحدى زوايا الحجرة، ضامًا ركبتيك لصدرك بذراعيك، دافنًا رأسك بين كتفيك صارخًا بكل ما أوتيت من قوة، والتي جاءت مدوية للآذان رغم محاولتك لكتمها.. كما لو أنك تخشى النظر لباقي الغرفة، مستنجدًا بالظلام.

هذه لم تكن حالة صرع، فجسدك يا (وجدي) لا يهتز أو ينتفض في حركات لا إرادية، وكذلك ليست بحالة هيستيريا فأنت لم تشرع بتحطيم الأثاث أو ضرب رأسك بالحائط -حتى الآن على أقل تقدير- إنها حالة خوف.

لم تهدأ صرخاتك الفزعة أو تتراخى أعصابك المنتصبة حد الانفجار إلا بعد أن أفرغ الطبيب بساعدك محقنة معيدًا إياك لراحة النوم من جديد. يبدو أن التحذير هذه المرة كان أكثر بشاعة.

***

قررت يا (وجدي) الاحتفاظ بباقي الأحداث سرًا خاصًا بك خشية من التحذيرات المفزعة التي تلاحقك كلما حاولت البوح عمّا بصدرك، مجيبًا بأنك لا تتذكر إن سألك أحدهم. حتى صدقت كذبتك الخاصة وتناسيت الأمر عن عمد، متبعًا نهج صدمة ما بعد الحادث الشهيرة في فقدانك للذاكرة. على نقيض الطبيب الذي لم يتركه أهالي العزبة حتى عاود سرد الحكاية من جديد ولكن هذه المرة من لسانه.

بعد هذا يا (وجدي) تركت دارك وعملك كمعلم فاضل ومن قبلهم أسرتك، ثم رحت تتجول بالشوارع التي اتخذت منها ديرًا ومن الدروشة مذهبًا، مناديًا الجميع بالرحيل عن العزبة وبلائها. وظللت تردد الحكايات والأساطير عن الموتى العائدين من قبورهم، فلم يبق على لسانك غير سيرة (مؤمن) وشتى تلك الأمور التي تتخذ من الخبال عنوانًا.

فقدت اهتمامك بهندامك من الملابس المحترمة أو النظافة الشخصية، متحولًا لما أنت عليه الآن من الشعر المبعثر على رأسك والملابس الممزقة، والأوساخ التي تتخذ من جسدك مضجعًا، ناهيك عن ذقنك غير الحليقة في إهمال متعمد. وكان إحسان الأخّين هو الشيء الوحيد الذي يبقيك على قيد الحياة دون أن تموت جوعًا أو تأكل الحشرات في خرابتك، بعد أن يئست أسرتك من محاولة إقناعك بالعودة

للمنزل أو حتى ترويضك بحبسك بغرفتك، حتى أرهقهم الاعتذار عن تصرفاتك العجيبة من الصراخ على المارة بالرحيل ومطاردة الصغار، قرروا أن يكونوا أول من يستمع لنصيحتك بالرحيل عن العزبة بلا رجعة تاركينك خلفهم.. السبب بالطبع لا يعود لأنك رب أسرتهم وعليهم طاعتك، بل كمحاولة بائسة أخيرة أن يتشبثوا بما بقي لهم من كرامة، بعد أن أهدرتها يا (وجدي).

رحت تكتسب الألقاب الجديدة يوميًا من (وجدي العبيط) مرورًا بـ (مجذوب العزبة)، انتهاءًا بـ (وجدي الملبوس) كما كان الأطفال يرددونها، متناسين أنهم كانوا يدعونك يومًا ب(معلم العزبة الأوحد) وأن أغلب هؤلاء الصبية كانوا يفزعون من ذكر اسمك لمعاملتك الصارمة لهم، والآن أضحى اسمك مزحة لا يأتي بعدها غير السخرية.

فأضحيت يا (وجدي) وحيدًا بهذه الدنيا بعد أن تبرأ منك كل قريب وأي بعيد.. ولكن لا تغادر العزبة حتى لو على مماتك.

فبإحدى المرات ألقيت بنفسك أمام سيارة العمدة كنوع من جذب الانتباه، لتعاود صيحاتك المستبدة بمطالبة العمدة أن يأمر الأهالي بمغادرة العزبة. فلم يكن من الرجل ردة فعل سوى إعطائك ورقة نقدية بفئة العشرين جنيها سائلًا

بسخرية:

ولما لا ترحل أنت عنها أولًا؟

التقطت الورقة النقدية بلهفة لأنها ستسد فراغ معدتك لهذا اليوم بأكمله، ثم رحت تجيبه وبعينيك بريق عجيب:

لقد صرت باليًا بالنسبة لقاهر الأرواح، فلازال التنقيب عن الفاسدين مستمرًا.

***

ساحر الكتب

التفاحة السادسة عشر

عزبة شجرة التفاح

عام ٢٠٢٢

مساء اليوم الثاني

فكرت في المرور على المناطق التي استخلصتها من عقل (وجدي) الخرب، علني أجد أي أثر لماهية هذا الكيان الذي ظهر في التحذيرات. فرغم خبرتي العريقة في كافة كيانات الظلام أو شياطين الجحيم أو أرواح المطهر. أما تلك الهيئة التي ظهر بها كيان العزبة، لم أشهدها يومًا في حياتي، ربما هو أحد هؤلاء المتحولين أو متغيري الأشكال، لكن هذا الاستنتاج لازال ضعيفًا، بل يحتاج الى الكثير من الأدلة المصاحبة لإقراره.

في البدء عرّجت على منزل (وجدي) القديم، فوجدت أن أسرته قد باعته لغيرهم، حتى تتخلص من أي قشة قد تعاود ربطهم بالعزبة، متبرئين من (وجدي) وفضائحه، ومغلقين صفحته. غير عالمين أنني قدمت لهم خدمة، بتخليصي إياهم من همه مرة وللأبد. ربما فكر بعضهم بالأمر لما طالوه من المهانة على إثر جنونه، لكن ما من أحدهم كانت لديه الشجاعة مثلي.

فذهبت للمقهى الذي كاد يصدمه بسيارته، عازمًا على ترك أمر الطريق لما بعد باعتباره بؤرة الأحداث. فعلي البحث أولًا في المناطق الجانبية لعلني أعثر على دليل ما، تاركًا مسرح الجريمة الرئيسي للنهاية.

وكسابقه لم أعثر على شيء مثير للاهتمام. كعادة البسطاء من الناس، يلتفت الجميع إلى حياته العادية بعد أي حادث يثير البلبلة لأيام معدودة، فلكل منهم من الهموم والمشكلات ما تكلفه عمر فوق حياته لاستيعابها، وحياة فوق عمره لمحاوله حلها أو تخطيها. فتلك الأحداث المتعلقة بكيان العزبة وضحاياه، لا تمثل لهم إلا بعض الفواصل الإعلانية القصيرة التي يختلسونها من شقاء الحياة. ليتيح لهم أخذ أنفاسهم بتروٍ مرتاح أو لممارسة هواية النميمة المحببة بين الأصحاب، على دراية أكيدة منهم أن مسلسل الأحمال عائد لا محالة لينهال بكل ثقله المؤرق على عواتقهم.

بل بالأحرى إنني لم أعثر على أي شيء بالعزبة كلها. لم أبصر أيًا من الجانّ العابر بالمكان ولو حتى على سبيل الصدفة، لا أثر لعُمّار المكان كما لو أنهم هجروا العزبة منذ سنوات، جميع قرناء البشر يتبعون أصحابهم في انكسار ووحدة، مع عدم وجود أرواح بشرية هائمة، لدرجة توحي بأن الموت الغادر لم يطرق باب العزبة أبدًا، وأن جميع من

عاشوا بها قد رقدوا في سلام. وهذا غير منطقي على الإطلاق، فأينما يوجد البشر، خُلق في إثرهم الحقد والكره الذي يتطور إلى القتل أو الموت كمدًا دون رضا.

بل العجيب أني رأيت هامة؟! الكثير الكثير منها. والهامة لمن يجهلها فهي أطياف الجان بعد قتلهم غدرًا كأرواح البشر تمامًا. أصادف منهم اثنين أو ثلاثة على الأكثر في المدينة الواحدة، لكن أن أبصر عشر هامات بيوم واحد بالعزبة. هذا يوحي أن هنالك مذبحة للجان قامت في الماضي القريب. أي كائن مظلم هذا الذي يبطش على مختلف أنواع الجان دون حساب لانتقام عشائرهم؟ إما غبيًا جدًا أو قويًا جدًا، وبكلتا الحالتين فهو خصم يستحق الاستعداد جيدًا له.

كدت أرحل من المكان بعدما اكتشفت أنه لا فائدة من مكوثي به، حتى استمعت لأحد الرجال يطالب الآخرين بصوته الغليظة أن يقتربوا منه ليستمعوا لحكايته مع طريق العزبة الشيطاني!

أعلم أن أغلب ما سينطق به الرجل كذب مخلوط بالنفاق، حتى يظهر أمام العامة بصورة البطل المغوار المعطاء دون انتظار المقابل، أو العفي ذي قلب الصخر الذي لا يكفي جميع شياطين العالم لجعله يرمش حتى لكن ما أعدلني عن انسحابي هي ردود أفعال الآخرين.

حيث هُرع صبي المقهى يغلق التلفاز لعدم إزعاج الرجل، وقام مالك المقهى ذاته بإعداد الشيشة الخاصة بالرجل، وأسرع الأهالي في رصّ الكراسي حوله، قاطعين أي حديث بينهم حتى لو يتوقف عليه حياتهم، وغير عابئين بالوقت كما لو أن ما بالدنيا ليس أكثر أهمية من حكاية الرجل.

يظهر على وجوه الجميع الرتابة، أي أن القصة التي سيقصها الرجل قديمة، وربما سمعوها على لسانه عشرات المرات من قبل، بتفاصيلها الممجدة من ذاته المتزايدة بكل مرة. لكن بذات الوقت يطغى على ملامحهم مزيجًا من الاحترام والخوف، هم لا يتشوقون لسماع القصة لحداثتها بل هيبة من ملقيها. لا بد أنه يمثل مكانة مرموقة بالعزبة نوعًا ما، وأي كلمة من لسانه هي أمر واجب التنفيذ.

بل العجيب أيضًا أن الهامات المتحركة بالعزبة بعشوائية، اقترب البعض منهم في تحفظ! أطياف الجان لهي من أصعب الكائنات التي لا يقدر على تسخيرها أعتى السحرة من البشر أو الملوك من الجان. وأن تقترب من الرجل بهذا النظام المثير للريبة، فإما أن هذا الرجل دجال وهذا احتمال مستبعد، فهؤلاء المسخرين يضحي لقرنائهم قوى استثنائية في قراءة الأفكار وإخضاع الأتباع وغيرها، أما قرين صاحبنا هذا فيبدو أكثر من عادي.

أما الاحتمال الثاني، فهو أن ما يقوله يثير انتباه الهامات وأنه متعلق نوعًا ما بما أودى بهم لهذه الشاكلة. لهذا اختلست مجلسًا بين الحضور، ورحت أصغي كالآخرين.

***

رحت يا (جابر) قرابة النصف الساعة تثرثر عن هندسة الطريق العجيبة التي طالما حاولت تغييرها لكن كافة طلباتك كانت تُقابل بالرفض من المحافظة. ولكني لازلت أراهن أنك لست سوى محتال، ولم تتحدث مع شخص بأمره ولو حتى عسكري بسيط.

ثم نصف ساعة أخرى وأنت تتغنى بظلمة الطريق الحالكة، وبالكاد كنت تبصر كف يدك حينها، ولكني صدقتك هذه المرة حين شعرت بالكلام يتدفق من فمك تلقائيًا، دون أن يراجع عليه عقلك قبلها.

لقد لاحظت بنفسي أثناء مجيئي للعزبة بمرتي الأولى، خلو الطريق من أي أعمدة إنارة، كما لو أن أحدهم يخشى تشويه هذه الأيقونة من الظلام السرمدي بأي نوع من الضوء. فهذا المكان لا يقهره إلا حرارة الشمس لتبديد تلك العتمة.

تقول يا (جابر) أن بتلك الأثناء كانت هنالك ومضات صادرة من إحدى أطراف الطريق الأقرب للعزبة الأخرى.

صادرة من بضع الهواتف المحمولة باهظة الثمن، لا يستخدم أي من ملاك هذه الهواتف إلا عشر إمكانياته ولا يعلمون بوجود البقية من الأساس، لكنهم من المفترض ممثلين للطبقة العليا بهذا المجتمع الفقير، وعليهم إثبات هذا بكافة الطرق، فلولا الملامة لحضروا حفلات الأوبرا أو تناولوا الفول بالشوكة والسكين كوسيلة لادعاء الثراء الفاحش.

كنتم ثلاثة رجال وأنت رابعهم يا (جابر)، تهرولون تارة صوب عزبة شجرة التفاح، حاثّين أجسادكم الطاعنة بالسن على الإسراع، وتتباطؤون تارة أخرى بهدف التقاط بعض الأنفاس، لكن بدون التوقف في البقعة الواحدة لأكثر من ثانيتين على الأكثر وإلا أصبحتم لقمة سائغة بين براثن الـ.. الـ..

الـ ماذا؟ أنتم ذاتكم لا تعلمون مما تفرون؟ لكن لديكم فكرة لا بأس بها، أن وجودكم الآن بالطريق بتلك الساعة المتأخرة المتخطية لمنتصف الليل، لهي خطوة انتحارية دون نقاش.

تقول يا (جابر) أن السهرة قد طالت هذه المرة في غير وعي منك، فقد اعتدت أنت ورفقاؤك، أن يحل يوم الثلاثاء من كل أسبوع، موضع ليلة الخميس المسائية الصاخبة. بل وتضم تلك الليلة كافة المحرمات التي قد تخطر على البال، بداية من البغايا، مرورًا بالخمور، انتهاءًا بالحشيش وربما

العقاقير المخدرة أحيانًا أخرى.

تعمدت أن يكون الثلاثاء هو ليلتك السرية يا (جابر) لأنه يومًا عاديًا، لا يوجد به ما هو مميز ليثير الشكوك نحو تسللك من الدار والعزبة بأكملها قرب العصر بقليل ببعض الحجج الساذجة كـ (صفقة عمل جديدة أو زيارة أحد الأقارب المرضى، أو هنالك من يحتاج لمشورتك في مشكلة، أو تلبية نداء فك كرب من واقع بضائقة مالية أو. أو. إلخ).

رغم كل هذا الحذر. ها أنت تجهر به على الملأ كما لو أنك ضامن الولاء والطاعة من رعاياك الذين لن يكشفوا أسرارك ولو على رقابهم، أو تملك عليهم الزلّات الكفيلة بكتم ألسنهم مدى الحياة.

المهم يا (جابر) أنك تذهب وحيدًا أو بصحبة أصدقائك مستقلين تروسيكل (حسن العفي) بعد أن وظفته لديك يا (جابر) كسائق خاص، ينقلك لتلك الشقة المشبوهة التي تنسى بها هيبتك ومكانتك، ثم يقلك عائدًا قبيل المغيب.

كان من عادتك يا (جابر) مهاتفة (حسن العفي) لينتظرك بالتروسيكل عند مطلع الطريق بعد أن تتم ليلتك، ثم تعاود دوّارك دون شهود على فعلتك غير أتباعك.. لكنه لم يأت؟

لقد تبخر (حسن) لقرابة الأسبوع، لكنك لم تعِر للأمر بالًا،

فهو دائم الغياب عن العزبة للعمل في النقل، لكنه يعود بآخر المطاف لا محالة، أو على الأقل لا يتأخر عن موعد عمدته، الذي لحم كتفيه من خيرك يا (جابر) كما تزعم.

لم يكن (حسن العفي) من أقلّك للشقة السرية هذه الليلة، لكن عبق الليلة المنشودة أسكرتك، فاستقللت أحد التكاتك، معميًا عقلك عن التفكير في كيفية العودة؟ بالطبع لن تستخدم سيارتك الخاصة، فسيارة العمدة الفارهة أشهر من النار على العلم كما يقال، ومجرد وقوفها أسفل تلك العمارة المشبوهة أو حتى بالقرب منها، فهذا بمثابة فضيحة سترمي بكل حذرك يا (جابر) عرض الحائط.

بل وما زاد الطين بلة، أنكم تأخرتم أكثر من اللازم. فقد أقامت صاحبة الشقة ما يماثل العمرة الكاملة لوكرها، أصناف حديثة من المخدرات مصحوبة بأنواع مستوردة من الخمور، وفوق كل هذا ألوان حديثة من الفتيات اللاتي اشتهيت تجربتهن يا (جابر) لأول مرة.

ولن يجازف أحدٌ من العزب الأخرى نقلكم على الطريق المشؤوم بهذه الساعة المتأخرة، حتى لو منحتموه بالمقابل مال الدنيا والآخرة. أنتم وحدكم بهذا الموقف وعليكم التصرف.

هل لديكم أي خيار وقتها؟ بالطبع لا.. فإما أن تمكثوا

بهذه الشقة السرية حتى ولوج الفجر، مفكرين بأي حجة ساذجة تتلونها على آذان زوجاتكم، اللاتي ينتابهن الشك في تصرفاتكم بالخيانة منذ فترة لا بأس بها، تجبرهن على تربص أي فرصة كتلك لجز أعناقكم بأظفارهن.

أما الخيار الثاني وهو الاعتماد على سيقانكم لبلوغ العزبة مهما كلفكم الأمر، قد ينتهي هذا الفعل بموتكم أجمعين، ولكن من قال إن هذا سيء؟ فأنتم تفضلون أن تبتلعكم وحوش البحار أو تفترسكم مسوخ باطن الأرض أو تمزق أحشائكم كيانات ما بعد الأكوان، على أن تسقطوا مطأطئين الرأس بمخالب زوجاتكم ويتبعكم العار المثقل بالخسة أينما ذهبتم.

كان أربعتكم يفكر في أبشع جرائمه التي قد يشكلها له الطريق على هيئة أبشع كوابيسه كما سمعتم، وكان أكثركم ذنوبًا وخصوبة في التصورات هو أنت يا (جابر) بلا منازع.

تذكرت الشاب الذي سرق كمية قليلة من محصولك الزراعي ليبيعه بطريقته الخاصة حتى ينفق أمواله على أخته المريضة، فألقيت به في السجن دون نيابات أو محاكم بعون معارفك بالطبع، لتموت أخت الشاب في أثره لتوقف العلاج وكمدًا على أخيها المقهور.

تذكرت تأجير بعض البلطجية لضرب إحدى بائعات الهوى في بطنها، بعد أن جهرت برفض إجهاض الجنين الذي حملت

به منك يا (جابر)، حتى بعد أن وعدتك أنها ستلفق اسم الرضيع لأي أحمق غيرك، وسترحل عن العزبة والمحافظة بأثرها دون مطالبتك بأي شيء غير تركهم في سلام.. لكنك اتبعت مبدأ (حرّص ولا تخوّن) فأنت لا تضمن أن تعود هذه المرأة للعزبة بعد مماتك، قابضة في يدها كف صبي مراهق قذر الهيئة والملبس، مطالبة حقه من ورث أبيه.

هل ستنبثق شقيقة الشاب من الماء لتغرس أنيابها في كاحلك يا (جابر) كالأفاعي؟ هل ستتشبث يد خفية بجلبابك ساحبة إياك للعالم السفلي، لتتجرع قليلًا من عذاب الآخرة، الذي أذقته للفتاه وجنينها؟

هذا ما اعترفت به على الجموع بالمقهى يا (جابر)، مؤكدًا على أنك نادم على ما فعلت وأنك كنت طائشًا أرعنًا، أما الآن متدينًا خلوقًا.. لكني أراهن أن ما صورته لك أفكارك من ماضيك حينها، يفوق محض هذين الموقفين التافهين اللذين ذكرتهما.

كان بإمكانكم أن تخرجوا بحلول عبقرية لاختلاق الحجة المناسبة للتهرب من حل بلوغ الطريق هذا. لكنكم تصرفتم كالصغير الذي سمع أمه تسأل عن لص الحلوى، فراح يخر لها معترفًا بجرمه دون توجيه الاتهام صوبه حتى.

ثم سمعتم الصوت! أي صوت؟ حتى الآن يا (جابر) أنت

لا تعلم ماهيته، حيث سمع كل من أربعتكم صوتًا مختلفًا لصاحبه.

حيث صرخ أحدكم بأنه سمع مواء القط المتطفل الذي قذفه من الطابق الثاني بداره كنوع من التخويف كي لا يعاود سرقة الطعام مرة أخرى، لكن القط لم يجد الوقت ليهيئ وضعية جسده لتحمل سقطة الأرض، فهوى صريعًا بلحظتها.

ثم جهر الآخر بأن صوت الذئب الذي كاد يقتله في صغره ويجعل منه وجبة غذاء لقطيعه، قد طرق أذنه مثيرًا معه كافة الذكريات المفزعة التي عانى لأشهر ليتخطاها وهو يتخيل نفسه لحما مهروسا بين أنياب هذا الوحش الضاري.

ولم تمض ثوانٍ دون أن يصيح ثالثكم بأنه يستمع لصوت آلة المخرطة بمصنع الحديد، التي بترت كف والده عن ذراعه، أثناء شروده للتفكير في إيجاد حلول لديونه المالية، غفل عن عمله لثانية واحده لكنها كلفته الكثير.

المهم أنت يا (جابر) من بين هؤلاء، هنالك من سمع أسوأ كوابيسه أو أبشع ذكرياته أو حتى أرهب مخاوفه.. فما الذي بلغ أذنيك حينها يا (جابر).

تقول إنك سمعت نداءات استغاثة بصوت بشري طبيعي!

قد يبدو الأمر عاديًا، لكن حين سمعتها بصوت أخيك المتوفي حديثًا، هنا ستشارك زملائك الجنون.

تلفتم حول أنفسكم متأهبين لأي حركة غادرة من قلب هذا الظلام، لكن أضواء هواتفكم المحمولة لم تظهر إلا رجلًا عاديًا! مبعثر الثياب كما لو أنه خرج من حادث منذ قليل أو تدحرج من قمة جبل، لكنه رجل عادي لأقصى حد.. هذا لو تغاضينا عن فمه المطلق لكافة تلك الأصوات العجيبة، أجل فقد كان هو مصدر تلك الأصوات جميعا في آن واحد.

لم يسمع اثنان ذات الصوت، فكلٌ منهم تلتقط أذنه شيئًا خاصًا دون مشاركته مع أحد، كما لو أنها رسائل شخصية موجهة له وحده. ولم يستطع ترجمة حديثه إلا أنت يا (جابر) الذي فهمت كل حرف ينطق به، ولكن لما بصوت أخيك العزيز الذي حزنت على وفاته أكثر من ذويك ذاتهم.

حاول الغريب الاقتراب أكثر، لكن الرجال اتخذوا وضع القتال وهم يحذرونه من الدنو. هل حقًا يظنون أنه أحد كيانات الطريق؟ لو كان منهم لأمسيت يا (جابر) أنت ورفاقك جثث ممثلة بأقل من ثانية؟ وهل تعتقدون أن تكويركم لقبضاتكم بتلك الشاكلة، ستكون ندًا له من الأساس؟

استنتج عقلك كل هذا وأكثر يا (جابر) بل واتخذت قرارك

سريعًا كذلك. فنزلت على رأسه بعصاك التي لا تتعكز عليها على الإطلاق، بل هي نوع من الحلي الرسمي لوظيفة العمدة المضيفة المزيد من الهيبة لشخصيتك.

هوى الغريب أرضًا فاقدًا الوعي لتتوقف كافة الأصوات العجيبة عن الآذان، فكاد أصدقاؤك ينهالون عليه بالركلات باعتبارك أول من بدأت في الشجار، لكنك أوقفتهم مصححًا فكرهم، بأنك قررت أخذ هذا الغريب معكم للعزبة ليصبح هو حجة غيابكم.

اعترض البعض باعتباره أحد كيانات الطريق ووجب عليهم قتله مادامت تسمح لهم الفرصة، لكنك أردفت بأن كيان الطريق لا يعبث معكم، بل يعبث بكم، وتلك الأصوات ليست إلا حيلة لحثكم على الجنون أو قتل بعضكم البعض.

لم يكن لأي منهم طاقة على النقاش أو المعارضة بعدما أعادت تلك الأصوات من ذكريات مفزعة، فأطاعوك يا (جابر) في حمل الرجل والترجل صوب العزبة، آملين أن يكتفي كيان الطريق بالعبث لتلك الليلة.

***

مرت الليلة بسلام بعد أن كادت قلوبكم تتوقف عن العمل، لكنهم على الأقل تخلصوا من شكوك زوجاتهم بحجة الغريب

الذي وجدوه مغشيًا عليه بوسط الطريق كالجثة مع الكثير من التفاصيل التي تحبك كذبتهم. عاد الثلاثة الآخرون لمزاولة حياتهم الطبيعية متناسين تلك الليلة برمتها. بعضهم قرر الاعتدال بعد أن ذاق الرعب ذاته، وبعضهم الآخر لم يتعظ وراح يتفق على لقاء الثلاثاء السري القادم. إلا أنت يا (جابر)، حيث اعتبرت أن هذا الغريب، متاهة عليك بلوغ نهايتها.

وحين أفاق الغريب بوحدة العزبة الطبية، لم تمر خمس دقائق حتى اقتحمت غرفته كالمجنون يا (جابر) تسأله أن يروي لك أصل ما حدث، فلولا الملامة لكنت قضيت ساعات الليل مع الطبيب منتظرًا أن يفيق. بالطبع لم تكن لضربتك على رأسه كل هذا التأثير، لكن يبدو أن ما مر به هذا الغريب من إرهاق على مدار اليوم قد ساهم في إطالة غيبوبته.

فَخَرَّ الغريب بكل ما حدث له، كما لو أنه يحتاج لمشاركة ما مر به مع أحد يطمئنه أو حتى يكذبه، حتى لا ينهشه الجنون. وبصوت طبيعي هذه المرة علمت أن الغريب اسمه بالفعل (غريب) ويعمل سائق سيارة أجرة.

بدأ الأمر معه حين استوقفه زبون يرتدي حلة داكنة. كل ما ظهر على الزبون الثراء، لن يلاحظ مضاعفة السائق لسعر الأجرة، كما أن الإكرامية لن تضحى هينة. هذه القواعد

متعارف عليها لدى كافة السائقين.

طالبه الزبون أن يقله لمنطقة (التفاح الفاسد)، لم يكن لدى (غريب) فكرة عن هذه المنطقة، لكن الزبون يعرف الوجهة وراح يرشد سائقه أي الاتجاهات يستقل، حتى بلغ طريق العزبة المميز بحده للبحيرة من جانبيه.

أقسم (غريب) أنه سار في هذا الطريق قرابة الساعة دون أن يبلغ نهايته، على نقيض أنه بالأصل لا يستغرق أكثر من ربع ساعة. وبدون أي مقدمات طالبه الزبون بالتوقف هنا!

كانت المنطقة التي اختارها فارغة صامتة كئيبة كغيرها التي مر عليها لمدة ساعة كاملة، فما المميز بهذه النقطة إذًا؟

رجح (غريب) أن الزبون قد يكون بالأصل تاجر ممنوعات وقد جاء لإتمام صفقة ما مع تجار سينشقون من قلب البحيرة مرتدين ملابس الغوص أو أي تصور سخيف آخر. ليس له شأن بهذا، ليأخذ أجرته وليرحل بسلام!

كاد (غريب) أن ينطق بثمن الأجرة، لكن الرجل قذف له ورقة تحمل فئة المئتين جنيه وترجل من السيارة دون كلمة واحدة؟ ظل يراقب وجه الزبون في غيظ من تصرفه الأخير الذي ينم عن قلة احترام.

في المواقف العادية، سيقذف (غريب) المال في وجه

الرجل يصحبها لكمة من قبضته دون العبء لمكانته أو سلطته، أو يمزق المال ويوجه ذات اللكمة لفك الرجل، سيفعل أي شيء ينتهي باللكمة ليرضي غروره. لكن حين رأى الرجل وهو يسير صوب البحيرة حتى غمرت المياه نصفه بالفعل تراجع عن كل أفكاره.

ظل الرجل يسير بالبحيرة غير مبالي بمنسوبها الذي يرتفع في انتظام، وجسده الذي يختفي بين طيات المياه ببساطة كما لو أنه يترجل على شاطئ ساحلي ساحر.

أسرع (غريب) يلتفت بالسيارة بعدما أيقن أنه منتحر سيلفق له جريمته بسبب حظه التعس هذا، لكنه سرعان ما عدل فكره حين لمح وجه الزبون وهو يلتفت له قبل أن يختفي تحت سطح البحيرة المدعية للبراءة، دون أي فقاعات أو اهتزازات تثبت أن هنالك كائن بجوفها، فقد كان وجهه ممسوحًا دون أي ملامح.. فعلم أن الزبون لم يكن منتحرًا بل لم يكن بشريًا من الأساس، فضغط الوقود بكل قوته حتى كادت ساقه تخترق أرضية السيارة.

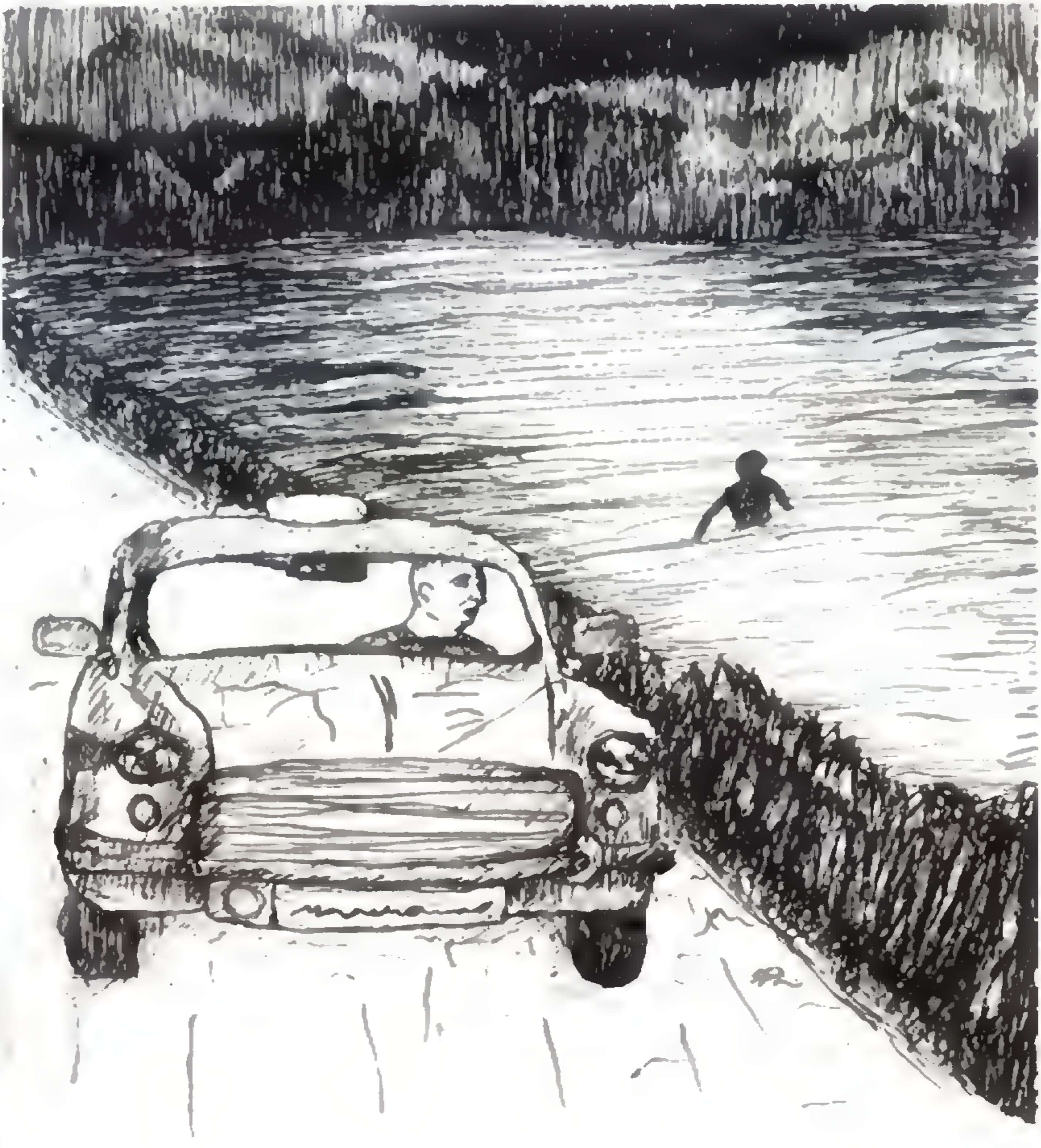

لكن سيارته كانت كغيرها تعاني متلازمة المركبة الغبية،

لتتعطل بأسوأ توقيت ومكان على الإطلاق. لقد نفد الوقود! لا وقت لتلك الأسئلة الساذجة عن كيفية حدوث هذا وأن خزان السيارة كان مدجج عن آخره بوقود يكفيها للحركة لأيام. فالأهم الآن هو تلك الشجرة العجيبة النابتة بالطريق من العدم!

(غريب) لا يذكر أنه مر عليها في طريق الذهاب، بل إن الطريق استفزه بهدوئه ونقائه دون شائبة! ربما لم يلمحها لضعف الإضاءة أو شيء من هذا القبيل. لقد ابتعد عن بقعة انتحار الزبون أو أياً يكن ملته، مسافة لا بأس بها، كفيلة بإكسابه بعض الطمأنينة للتفكير.

ترجل (غريب) من السيارة، مفتشًا عن حاوية الوقود الاحتياطية لمثل تلك المواقف وهو يفكر في هذا الكائن. المثير للغيظ أن الرجل كان له وجه حين ركب السيارة بأول مرة، وإلا كيف وافق (غريب) على نقله في الأصل؟ لكنه لا يذكر أي شيء عن ملامح الرجل إن كان عجوزًا أو شابًا!

بل إن الزبون تحدث مع (غريب) أكثر من مرة وهو يرشده للاتجاهات، وكذلك لا يتذكر أي شيء عن صوته إن كان غليظًا أم رقيقًا! كأن الزبون مسح تلك المعلومات من ذاكرة (غريب) كما مُسحت ملامح وجهه.

- تفضل هذا.

أخرجته تلك الكلمة عن شروده، ليستدير (غريب) بحركة انفعالية وهو يتخيل الأسوأ، لكنه سرعان ما ارتاح باله حين أبصر المعلم (مؤمن) يمد له جالون كامل من الوقود.

لم يتمالك (غريب) فرحته، فخطف الجالون من أنامل المعلم شاكرًا إياه، وهو يسكبه بفتحة الوقود الخلفية بالسيارة.

طالما كان المعلم (مؤمن) رجلًا معطاءًا بحق، رغم أن (غريب) لم يعمل لدى المعلم فترة كبيرة، لكن ما كان يجنيه من إيصاله مرة أو اثنتين بالشهر لخارج العزبة، تساوي أجر ما كان يظفر به طوال الشهر. لكن لما انقطع مصدر الرزق هذا صحيح؟ نعم الآن تذكر.. إنه بسبب وفاة المعلم (مؤمن) من الأساس.. مهلًا لحظة، المعلم (مؤمن) قد مات.

ابتلع (غريب) ريقه حين استنتج سبب خروج الرجل من العدم هكذا دون مقدمات.. الآن لديه عذره بالفعل. بل لمح عن دون قصد السائل المنساب من الجوال الذي لم يكن وقودًا بالطبع، بل سائلًا لزجًا يحمل لونًا أحمر قانيًا، أعتقد أنه لا يحتاج لتعريف أكثر من هذا. وقبل أن يتخذ (غريب) أي ردة فعل سواء بالمواجهة أو الهرب أو حتى قراءة ما تيسر له من القرآن. شعر بحركة بطرف البحيرة.. لقد عاد ذو الحلة الداكنة.

الآن هما اثنان ضد (غريب) الوحيد الأعزل، بجانب أنه فطن لأمر (التفاح الفاسد) التي قالها الزبون تلك، فهو لم يسمع عن هذا المكان طوال حياته ولا زال يشك أن هنالك ورقة حكومية تحمل هذا الاسم اللعين، لكنه يعلم (عزبة شجرة التفاح) التي كان يقطن بها المعلم (مؤمن).

فأطلق العنان لساقيه وهو يصيح طالبًا النجدة من أي شخص أو أي شيء، تاركًا سيارته بالقرب من شجرة التفاح.. حتى التقى بك يا (جابر) وأنت تعلم باقي القصة.

شعرت حينها بالكثير من المشاعر المختلطة، لكنها ليست سوى مرادفات للرعب والتوتر المهيمنين على الموقف، رغم هذا ادعيت الحكمة وأنت تسأله عن ورقة المال التي تركها له ذو الحلة.

فراح (غريب) يفتش كافة جيوبه باحثًا كما لو أنه فقد ذاكرته، لكنه لم يجدها بالفعل، بل عثر مطرحها على ورقة قدمها سريعًا لك يا (جابر) كما لو أنها لوثة من شيطان يبعدها عنه.

التقطتها يا (جابر) لتجدها ورقة بيضاء تحمل نفس حجم الأوراق المالية، خط عليها بالأحمر، الذي لا يحتاج لتعريف من جديد. (للنجل بقية). فأسرعت في إخراج قداحتك من

جيب جلبابك لحرقها عن الوجود.

فانتفض (غريب) كما لو أن الروح ضربت به حديثًا عازمًا أن يجد سيارته التي تعتبر مصدر رزقه الوحيد بهذه الدنيا، فأصررت يا (جابر) أن تذهب معه لتصل لنهاية هذا الموقف.

وحين وصل كلاكما لموضع السيارة، هوى (غريب) على ركبتيه باكيًا دون وضع اعتبار لسنه أو منظره أمامك يا (جابر). وقد كان هذا حقه، بعد أن رأى مصدر كسب قوته، ملتصقة بشجرة التفاح كما لو أنها صدمتها في عنف، بل ومتفحمة تمامًا عن بكرة أبيها، لدرجة ذوبان الإطارات المطاطية، كما حرقت الوريقة بالوحدة الصحية يا (جابر).

كان (غريب) في حاجة لمن يعلمه أن الخطر لم يزل عنه بعد، وأن كيان العزبة ذي الحلة الداكنة لن يكل أو يمل حتى يظفر بأحشاء (غريب) بين مخالبه. وعليه أن يعلم إن ظهر له (مؤمن) من جديد، فعليه الفرار بحياته هو وكل أسرته.

لكنك يا (جابر) لم تبال به، فكنت تخوض حروبك الخاصة حينها، حين أبصرت بأم عينك (مؤمن) جالسًا خلف عجلة قيادة السيارة المتفحمة وهو ينظر في تحدٍ!! ولكن هل كان ينظر ل(غريب) أم لك يا (جابر)؟

***

التفاحة السابعة عشر

عزبة شجرة التفاح

عام ٢٠٢٢

الساعات الأولى من اليوم الثالث

انتهت الجلسة في المقهى على تأكيد العمدة (جابر) أن تظل كافة تلك الحكايات وبالأخص مغامراته المشبوهة، سرية بينهما وإلا سينفلت لسانه عما يحمله ضد كل منهما.. وبمجرد أن نهض (جابر) عاقدًا العزم على النوم كالحمل الوديع في فراشه بعد أن أرهقه سرد تلك الحكاية كما لو أنه مذياع متحرك، أتاهم أحد الصبية بخبر عثوره على (وجدي المجذوب) مقتولًا في خرابته.

لا أعلم كيف سيتصرفون إن كانوا سيدفنونه، أم سيهاتفون أسرته أولًا لتحضير مقابر العائلة له -إن أمتلك واحدة-، أم حتى سيتركونه يتعفن بالخرابة ويضحي وجبة للكلاب الضالة أو الضباع الشاردة.. المهم أن الهامات انسحبت من المكان وبالمثل فعلتُ قاصدًا ثاني مكان بحكاية (وجدي) وذروة أحداث حكاية (جابر). وهو طريق عزبة شجرة التفاح المزعوم، وربما سأعاود سرقة ذكريات (جابر) لاستخلاص الحكاية الأصلية دون إضافاته فيما بعد.

حين بلغت مطلع العزبة، لمحت شخصًا ما؟! هذا الأمر ليس غريبًا، لكن على حسب إقامتي القصيرة بهذه البلدة التي بلغت اليومين حتى الآن، استنتجت أن هنالك نوعًا من حظر التجوال الليلي بالأخص قرب الطريق في هذه الساعة المتأخرة. فوجود شخص وحيد أعزل قرابة الفجر، يترجل صوب الطريق، فهذا أمر مثير للاهتمام.

ظللت أتتبع هذا الشخص الذي كانت حركته بطيئة نوعًا ما، بل ويبلغه التوتر حتى أخمص قدميه بدليل أنه دائم الالتفات حول نفسه. لا يميز ملابسه أي شيء سوى ذلك الشال المغطى به لملامح وجهه. لا أعلم إن كان بسبب الخشية من أن يتم الإمساك به لمخالفته قانون العزبة الأهم، أم لأنه ارتكب جناية ما وهو بطريقه الآن للفرار منها، أم للطريق رهبته القابضة للقلوب!

تمكنك من رؤية وجه هذا الشخص أثناء إحدى التفاتاته والتي كانت لامرأة! امرأة عجوز بالكاد تتحرك لدورة مياه منزلها دون عون من ابنها أو حفيدها فما بالك وهي تقطع هذا الطريق الطويل المفزع دون حتى عكاز تستند عليه أو ليمدها ببعض القوى. لقد التقيت بتلك المرأة من قبل! إنها راكبة الميكروباص التي من المفترض أنها أتت لإعداد حفل سبوع حفيدتها، والذي سيقام بالغد!

كان بمقدوري أن أسبق العجوز. لكنني راغب في معرفة ما الذي سيحدث لزائر متطفل على حرمة الطريق بأم عيني، وأي الطرق التي سيتبعها كيان العزبة للعبث معها. والأهم من كل هذا هو السبب وراء تركها لسبوع حفيدتها وترجلها وحيدة بين الأهوال؟

حتى بلغنا الشجرة أخيرًا، والتي اتضح أنها كانت وجهتها من الأساس، بسبب توقفها أمامها وهي تنظر لما تعلق عليها بعيون دامعة. كانت ورقة مثبتة بسكين مطبخ صغيرة على ساق الشجرة.

التقطت العجوز الورقة دون أن تحرر السكين، فراحت تمرر عينيها على الورق سريعًا رغم أنه يظهر من موضعي أن الورقة غارقة بالجمل الطويلة، أراهن أنها لا تبصر شيئًا من فحوى الورقة لعتمة المكان. لكن يبدو أنها عثرت على ضالتها بعون أضواء العزب القريبة، بل وجدت أكثر مما تصورت، بسبب ما انسال من عينيها من شلالات دمعية، مصحوبة بانتحاب جاهر بمدى عمق الشرخ بروحها الذي تولد حديثًا من تلك الورقة.

وبعنف قلب منكسر، ألقت الورقة أرضًا وهي تدوسها بقدمها حتى دفنتها بين الرمال كمدًا، متمنية لو تستطيع وأد حياتها التعسة بذات الطريقة.. في الواقع هي تقدر على هذا

وبعد أن فطنت أنه ما من عائق للأمر وشرعت في تنفيذه.

أزالت الشال عن رأسها والذي كما لو أنها تعمدت إحضاره ليكون له وظيفة ثانوية بجانب إخفاء وجهها عن الأنظار، وهو أن يصبح سلاح قتلها. عقدت طرف الشال حول رقبتها بشكل حلقة، ثم ألقت بالطرف الآخر للأعلى ليلتف حول أحد أغصان الشجرة ويتدلى أمامها من الجهة الأخرى.. إنها تصنع مشنقتها الخاصة.

أمسكت بأطراف الشال المتدلي ولازالت دموعها تزين جبهتها، وبدون مقدمات أو مماطلات للتراجع، جذبت الشال للأسفل بكافة ما أوتيت من قوة، لكنها لم تساعدها إلا لرفع جسدها لسنتيميتر أو اثنين عن سطح الأرض، لو قفزت بنفسها لكانت قطعت مسافة أكثر من هذا بالهواء.. حاولت من جديد لكن النتيجة كسابقتها.

المشانق تحتاج لبعض النشاط والخبرة التي لا أظن أن تلك العجوز تتمتع بأي منهما. ولكن في إحدى محاولتها لرفع جسدها وهي تصرخ اعتراضًا على فشلها، مطالبة القدر أن يستجيب لطلبها في إنهاء حياتها، راح الشال يرتفع من تلقاء نفسه كما لو أن هنالك يد خفية تحمله بيسر الريشة!

هنا راحت العجوز تصرخ مطالبة النجدة، تنتفض آملةً في التحرر، تعبث بيدها في الشال الضاغط على عنقها متمنية

الخلاص.. لكن يبدو أن أمنيتها الأولى منعت تحقيق أي شيء آخر.

أن تتمنى الموت شيء، وأن يلبي النداء شيئًا آخر.. فقد رغبت العجوز في إنهاء حياتها بيدها، وها هو الطريق ينفذ أمنيتها لكن بقوانينه الخاصة، سارقًا حقها الشخصي في الانتحار بنفسها.

تقدمت صوبها في هدوء، لتنظر لي هي الأخرى بيأس. ربما أملت العجوز أن أكون شخصًا بالغًا أستطيع أن أنجدها من هذا الموقف الصعب، أو حتى امرأة شابة قادرة على الولولة بدوي يفوق عويل الذئاب كفيل بجمع أهل العزبة أجمعين لنجدتها. لكن رجاءها قد خاب حين فطنت أني مجرد قط أسود صغير!

تجاهلتها نابشًا بالأرض بموضع الورقة التي اهترأت من ركلاتها، لكنها كانت صالحة للقراءة، سيحتاج الأمر لتخمين بعض الكلمات أو الحروف لكنها لم تتلف لهذه الدرجة على أي حال.

نفضت الرمال عن الورقة، جلست على قدميّ الخلفيتين، مستعينًا بنظر القط خاصتي لإبصار الكلمات رغم العتمة. توقفت العجوز عن الصراخ والحركة كذلك، معلنة أنها أصبحت جثة نافقة لا حياة أو روح بها. في حين أن الشال

المسؤول عن الجريمة، قد ربط كمشنقة محترفة بغصن الشجرة من تلقاء نفسه.

ربما الغصن لا يتحمل وزنها ويكاد أن يهشم، وكذلك الشال بالكاد يتحمل وزنها وقارب على التمزق بدوره. لكن كل شيء ظل ثابتًا بموضعه في عناد لسلب روحها عنوة.

حركت ذيلي في لا مبالاة ورحت أقرأ سر انتحار العجوز، التي كانت مفعمة بالحياة منذ يومين فحسب، يكمن السر في تلك الورقة التي كتبت بالدم بدلا من الحبر!

***

كتبت يا (كريم) إنه وجب عليك إنهاء خطابك هذا سريعًا

قبل فوات الأوان، علمت أنك ستكون جثة هامدة خلال دقائق، أو يختفي جثمانك دون أن يستدل عليه أحد، وبجميع السيناريوهات المحتملة لن يعرف أحدٌ الحقيقة، وعليك الآن توثيقها قدر الإمكان.. تعرف كذلك أن هذا الخطاب قد يتفحم عن بكرة أبيه دون أي أثر، لكنك تمني نفسك أن يسقط بيد والديك أو أي بشري بوجه عام.

في البدء كان تمردك الفج على معتقدات أهل العزبة بشأن الطريق، رجحت الأمر أنه محض أسطورة محلية كغيرها من خرافات النداهة التي لا تخلو قرية ريفية من سيرتها، لكن الأمر تطور من حكاية ترددها الألسن، إلى واقع له قوانينه المحرمة كحظر التجوال الليلي وعدم السماح للغرباء بمغادرة العزبة إلا مع شروق الصباح وغيرها من السخافات. بل إنك لن تتعجب إذا شرع الأهالي في تقديم القرابين الحيوانية وربما البشرية للطريق ليتقوا شره، بل أحيانًا أخرى كان يتعمد الأهالي عدم ذكر سيرة الطريق وضحاياه على شفاهم ويكتفون بالتلميح له من بعيد.

وكلما حاولت مناقشتهم يا (كريم) بأن ما يفعلونه هذا منافي للمنطق أو التعقل، يتجاهلونك باعتبارك شابًا ساذجًا لم تبلغ العشرين من العمر إلا حديثًا، وأن خبراتك في هذه الحياة لا تساوي ذرة مما رآه الكبار في هذه الدنيا الشاقة.

ومهما جاهدت يا (كريم) لإثبات أن كافة تلك الحوادث ما هي إلا صدف، قللوا من شأنك، متهمين إياك أن تعليمك الجامعي بالقاهرة –أو مصر كما يطلقوا عليها-قد بدد روحك وأتلف تفكيرك لتستهزئ بأعراف ذويك.

ظننت أن أهل العزبة ذاتهم هم السبب في هذا البلاء، هم آمنوا بوجود كيان شيطاني ما، لهذا تولد هذا الأخير من العدم فقط بخيالهم المريض، وراح عقل كل منهم يسلط مخاوفه على صاحبه. لهذا انطلقت يا (كريم) للتخييم على الطريق ليلة كاملة لتثبت للجميع أن عدم إيمانك بخوفهم هو من أنجاك.

لم تنطلق بهذه الرحلة وحدك بالطبع، فقد احتجت لشهود لتثبت صدق حكايتك وعدم اختلاقها، ومن أفضل الأشخاص لهذه المهمة كـ(طارق) صديقك العزيز وشقيقته التوأم (سهيلة)؟ أنت لم تخترهما لأنكم تدرسون سويًا بكلية الزراعة بالقاهرة فحسب، بل لأنهما من خارج عزبة شجرة التفاح أساسًا ولا يعلمون شيئًا عن أمر كيان الطريق المزعوم، أو ربما سمعوا كلمة أو كلمتين تلوث سمعته –بحكم أن لهما أقارب من داخل عزبة شجرة التفاح-لكنهما لم يهتما بالأمر.

بالطبع أنت لم تخبرهما أنكم ذاهبون لنفس مضجع وحش خرافي يتربص لزائري الطريق مع غروب الشمس، حتى

لو أنك لا تصدق حرفًا من هذه الأساطير، فأنت يا (كريم) لا تضمن ردة فعلهما التي قد تودي بالرفض أو مقاطعتك للأبد، ولا تريد تكوين أي انطباع لديهما عن الطريق، وجعل الأمر مجرد مبيت ميداني لاستعادة ذكريات التخييم في رحلة لإحدى المدن الساحلية التي تتميز برحلات السفاري الصحراوية التي قضوْها سويًا العام الماضي التابعة لنشاط الجامعة الطلابي.

وكانت الليلة هي يومكم المنشود، نصبتم الخيام وأشعلتم نار المخيم على بعد من الشجرة حتى لا تتساقط عليكم أوراقها الميتة أو تزعجكم العصافير في صباح اليوم التالي، وكم كنت ساذجا يا (كريم) في أن هنالك نهارٌ آخر ستبصرونه وأنتم أحياء.

كان المخيم بالقرب من جهة الطريق المؤدية للعزب الأخرى لهذا لم أشهده أنا أثناء تتبعي للعجوز، المهم يا (كريم) أنكم قضيتم الليلة بكل بساطة من الثرثرة وشوي قطع اللحم التي أحضرتموها معكم نصف مطهية. كانت جلسة خلابة من جميع النواحي حتى انتشرت بينكم عدوى التثاؤب، وانسحب ثلاثتكم لخيمته الخاصة مندثرًا تحت غطائه.

لو علم أي منكم أن تلك ستكون غفوتكم الأخيرة، لن يغلق عينيه ولو لثانية. هنالك من سيستغل لحظاته الأخيرة في

الصلاة طالبًا من خالقه الغفران، وهنالك من سيجرب أي شيء محرم خاف منه طوال حياته بمبدأ أن ما في الحياة وقتًا للحرمان، وهنالك من سيقضي هذه الأوقات في أحضان أسرته الغالية بعدما قدر أهمية هذه الثواني، بخلاف من سيطالب الجميع بأن يسامحوه على شروره المقصودة أو غير المقصودة حتى لا يأتون بسيرته إلا بالحسنى.. كان (طارق وسهيلة) سيفعلان أي من هذه الأمور، أو سيقدمان على غيرها حسب ما تهديهما إليه عقليتهما بالنهاية، لكنك يا (كريم) سلبت منهما هذا الحق.

بعد بضع ساعات، شعرت بيد تنفضك يا (كريم) كما لو أن هنالك زلزالًا ضرب كيانك، فتحت عينيك في خوف لتجد أنه (طارق) قد اقتحم خيمتك. كما أنه لم يكتف بيقظتك فحسب بل راح يجذبك من تلابيب ملابسك كما لو أنه يبغي الشجار، فنهضت معه في عجالة غير إرادية، لدرجة أنك نسيت عويناتك فراح كل شيء يبدو مذبذبًا غير محدد الملامح.

توقعت يا (كريم) أن صديقك سيلكمك بأي ثانية لكنه عوضًا عن هذا أخبرك أن شقيقته مفقودة؟ فنظرت بشكل لا إرادي صوب خيمتها لتجدها مفتوحة دون أثر لها بها. كدت تتقدم صوب خيمة (سهيلة) لتتفقد إن كان بها شيءٌ مفقود

أو دلالة ترشدكما لموضعها. لكن يبدو أن (طارق) قد فعل هذا بالفعل، حين بدأ في إصدار أوامره لك دون الانتظار لأخذ مشورتك.

دس في يدك يا (كريم) هاتفك المحمول، يبدو أنه حاول الاتصال ب(سهيلة) من هاتفك بعد أن باءت جميع المحاولات من هاتفه بالفشل. ثم أمرك بالافتراق، سيتوجه كل منكما لجهة متعاكسة من الطريق حتى تجداها، ومن يعثر عليها أولًا، يصرخ بالثاني ليأتيه. خطة ذكية لا بأس بها على الإطلاق، لكنها من جديد لم تكن خطتكما، بل وسيلة الطريق للعبث بعقليكما وإجباركما على فعل ما يريد.

ظل (طارق) يدفعك يا (كريم) لأحد الاتجاهين، دون أن يمهلك ثوانٍ لجلب عويناتك أو حتى ارتداء مداس ما، لكنها لهفة الأخ الجنونية على شقيقته، وما بالك إن كانا توأمين، يتشاركان كل شيء منذ لحظة ولادتهما حتى الآن، ولا بد أنه يشعر الآن بخوفها وتراوده خواطر عن قلة حيلتها.

بعد سيرك مناديًا باسم (سهيلة) بالأرجاء ويقابلك صوت (طارق) بذات النداء من الجهة المقابلة، ومازلت تحاول مهاتفة الفتاة على هاتفها المحمول الذي يتضح أنه مفقودًا معها. لمحت بهذه اللحظة يا (كريم) ظلًا لشخص قريب من الشجرة المتربعة وسط الطريق، أنت بالطبع لم تعلم من

صاحب تلك الهالة، فمازالت المسافة بعيدة كما أن عينيك المفتقدة لعويناتها لا تساعدانك على اتخاذ أي قرار. فعزمت على الاقتراب، وبهذه اللحظة تحديدًا أتاك الرد من على الجانب الثاني للهاتف!

كان الشخص يقف بجوار الشجرة ساكنا دون حراك كما لو أنه ينتظرك، أما العجيب فهو ما صدر من الجانب الآخر للهاتف. كانت محض ضوضاء إستاتيكية توحي أن حامل الهاتف يقف بمكان تضعف فيه شبكة الإرسال. لازلت يا (كريم) تقترب من الشجرة ليتضح أن صاحب الكيان لم يحرك ساكنًا بعد، فمن هذا إذا إن لم يكن (سهيلة) التي من المفترض أنها تضع الهاتف على أذنها الآن؟

- ما.. الذي.. تفعله.. أيها.. الوضيع.. ابتعد عني..

نسبة لسكون المكان من حولك، استطاعت أذناك تمييز هذه الكلمات المنفردة من الهاتف، والتي أتت ضعيفة منخفضة وسط كل هذا التشويش، إضافة أنك تعلم لمن هي، إنه صوت المعلم (مؤمن) دون شك بالأمر! ربما كانت هنالك ألفاظ أخرى سبقت هذه الكلمات أو تلتها، لكنك لم تميزها بسبب تسارع دقات قلبك الذي صار أكثر صخبا من كل شيء، حين رأيت يا (كريم) أن الشخص الرابع بجانب الشجرة طويل.. طويل أكثر من اللازم بطريقة تثير القشعريرة.

رغم هذا لم تتوقف ساقاك عن الحركة أو التفكير بالتراجع، بعدما رجحت الأمر أن عينيك تخدعانك بسبب يقظتك المفاجئة الكفيلة بشل الموجودات من حولك، تتلوى كالثعابين. وحين بلغت الشجرة لم تبصر شيئًا على الإطلاق يا (كريم)! كما لو أنه سراب مخادع.

التفتت حول الشجرة مفتشًا عن أي شيء كآثار أقدام، أغراض مفقودة، أو حتى علب مشروبات غازية فارغة. أي شيء قد يساعدك للاستدلال على مكان (سهيلة)، لكنك لم تعثر إلا على العدم الذي هدأ من دقات قلبك بعض الشيء لكنه لم يريحك بشكل أبدي، فلازالت (سهيلة) مفقودة.

نسيت يا (كريم) الهاتف على أذنك بعد أن ظننت أن ضوضائه الإستاتيكية تلك، هي جزء من موسيقى تصويرية المشهد، لكن مع ارتفاع الصوت حتى آذى طبلة أذنك، عاودت تذكره. حاولت إخفاض الصوت بعض الشيء عن طريق الضغط على زر تقليل الصوت السفلي على جانب الهاتف، لكنه لم يستجب لأمرك، فأزلته عن أذنك لترى أي خطب أصابه. وهنا كانت الدهشة؟

ناهيك أن مؤشر الشبكة يوكد أن هذا المكان معدوم عنه الإرسال، فقد كان تعداد الوقت الذي يفترض أن يحسب الدقائق والثواني لهذه المكالمة، مجمدًا عند الصفر كما لو أن

الزمن لا يمر به!

حاولت لمس الشاشة بأصبعك يا (كريم) كما لو أن الهاتف مجمد على تلك الصورة عن دون قصد. تعلم أن خطوتك تلك لن تعود عليك بأي فائدة، لكنه أول ما بلغ عقلك بهذه الثانية. وبمجرد أن لمست سطح الهاتف، تردد دوي الطلقة النارية بالأرجاء.

انتفض كيانك بأكمله يا (كريم)، ففقدت السيطرة على أصابعك التي حررت وثاق الهاتف المحمول من يدك ليعانق الأرض. لم تلاحظ إن كان الهاتف ارتطم بالأرض الأسفلتية أم هوى بيسر على الرمال. المهم أنك رحت تؤمن ظهرك ملاصقًا إياه بالشجرة حتى لا يباغتك أحد من الخلف، كما تعلمت من تدريب إحدى رياضات القتال أثناء صباك، ماسحًا الموجودات أمامك بعينيك الهشة.

كان صوت العيار الناري صاخبًا للغاية كما لو أنه تم إطلاقه على بعد إنش أو اثنين من أذنك، ورغم هذا لم تحدد مصدره كما لو أنه صدر من كل مكان بذات الأوان. فظللت تضغط على أذنيك بكفيك محاولًا منع المزيد من الصخب من مس طبلتي أذنك، اللتين ظلتا تؤلمانك حد تمني ثقبها لو ينتهي هذا العذاب.

لم تمر دقيقتان حتى أتاك (طارق) لاهثًا يسألك عما حدث،

يبدو أنك صرخت يا (كريم) من أثر المفاجأة الأخيرة دون أن تتذكر، لكنها كانت عالية أكثر من اللازم لجذب (طارق) إلى موضعك من الجانب الآخر من الطريق.

فحين أخبرته يا (كريم) بالطبع نفى سماع أي شيء مما تدعيه. تعلم أن عينيك ضعيفتا البصر وقد تخدعانك أحيانًا، لكن أذنيك لم تلتقط منهما العدوى بعد. أنت واثق مما سمعت.

طالبت (طارق) أن تعودا للمخيم لجلب نظاراتك، التي ستساعدك على التركيز للظفر بخطة أخرى تخرجهما من هذا المأزق. وافق هذا الأخير على مضض ليس لرغبته في عدم إهدار الوقت، بل لقلة حيلته في التصرف وحيدًا ويحتاج لعون عقلك يا (كريم).

كانت نيران المخيم متلألئة بهذه العتمة لإرشادكما، ومع اقترابكما من خيمتكما المتروكة بإهمال، سمع كلاكما صوت فقاعات غازية تصدر من قاع البحيرة لتفرقع مع بلوغها السطح، جذب أنظاركما كما فعل مع آذانكما! هل فكرت (سهيلة) في السباحة بهذه الساعة المتأخرة؟ ربما ضربها الخبال أو كانت مجنونة من قبل دون علمك يا (كريم)، فلا سبب يبرر هذا التصرف غير ذهاب العقل بالطبع.

ركض (طارق) صوب البحيرة يتفقدها، أما أنت يا (كريم)

فقررت استكمال طريقك عدوًا صوب المخيم لجلب عويناتك، حتى تكون ذا منفعة أكثر. ولم تلبث أن تلتفت ببصرك صوب المخيم، لتجد الكيان النحيل منتصبًا أمامك على بعد سنتيمتر واحد من جسدك!

لم ترَ وجهه بالطبع يا (كريم)، فبسبب طوله بالكاد تقابل عيناك خصره. فهويت أرضًا من أثر المفاجئة مجفلًا كرد فعل طبيعي، ولكن قبيل أن تغلق عينيك، لاحظت أنه يرتدي حلة سوداء!

شعرت بجسدك وهو يلامس الأرض من أثر السقطة، لكن ظهرك احتك بحائل منعك من التمدد، لتسقط بوضعية الجلوس. ما هذا الذي أرتطم به ظهرك وأنت تقف في منتصف الطريق الفارغ؟ بالطبع هذا ليس صديقك (طارق) وإلا كنتما عانقتما الأرض سويًا من أثر وزنك عليه.

فتحت عينك يا (كريم) ناظرًا خلفك لتجد أنه جزع رأسي أسود خشبي غير منتظم! تولدت الفكرة في رأسك لكنك لم تقتنع بها، فنظرت لأعلى أملًا أن يخيب ظنك، لكنك وجدت الفروع بما يتعلق بها من أوراق خضراء وثمار تفاح تتناثر بين أغصانها. إنها شجرة التفاح! كيف عدت إليها؟ ربما أنت مصاب بضعف البصر ولكن ليس نقص الشعور كذلك، فأنت واثق من سيرك لمسافة ليست بالهينة مع (طارق) من

الشجرة صوب المخيم.

تلك الاستفسارات في حاجة لجواب سريع، لكنها جميعا تحشرجت بمقدمة عقلك حين أبصرت هذا الهول. إنها (سهيلة) بنضارتها وقسماتها الخلابة، تتدلى من الشجرة مشنوقة بحبل لا تعلم من أين أتت به من الأساس.

إنها ليست زميلة عادية، بل هي صديقتك المقربة التي تكن لها مشاعر خاصة، انتظرت التخرج فحسب لتفاتح أخيها بالأمر. وأنت على يقين تام أن محبوبتك ليس لديها أي ميول انتحارية من أي نوع، بل لا تمتلك الخبرة لصنع عقدة مشنقة احترافية كتلك، فهي لا تجيد إحكام رباط حذائها حتى. هنالك خدعة بالأمر!

كادت دمعتك تتحرر من مقلتيك يا (كريم) حسرة على كتمانك لمشاعرك، وعلى جرّها لنهايتها معك دون أن يكون لها ناقة أو جمل بالأمر. لكن صيحات (طارق) عليك بأنه وجد (سهيلة) استوقفتك.

ما الذي يقوله هذا المخرّف؟ ف(سهيلة) مشنوقة أمام عينيك. ولكن هذا المكان الموبوء ليس به ضامن لأي شيء حقيقي، ربما تلك الجثة المتدلية ما هي إلا سراب أو دمية بلاستيكية أو شيء آخر يخدعك الطريق به يا (كريم)، عليك اللحاق بصديقك قبل أن يصيب أي منكما مكروهًا في

تفرقكما، فربما قد عثر هو على (سهيلة) الحقيقية.

فالتقطت هاتفك المحمول من على الأرض، مسترشدًا بضوئه صوب المخيم، حتى عثرت على (طارق) وهو يقف على ضفة البحيرة، وحين سألته عن مضجع (سهيلة)، أشار بسبابته صوب بقعة معينة بالماء. فحركت ضوء هاتفك أنت الآخر بحركة غير إرادية صوب ذات المكان، لتبصر الرجل النحيل ممددًا على سطح الماء بطريقة عجيبة، كما لو أنه معدوم الوزن أو أن الماء ذاته يحمله. وبمجرد أن سقطت عيناك يا (كريم) على رأس النحيل، تحركت بذات الزاوية صوبكما.

هنا انتفض (طارق) بفرح كما لو أن الحياة قد دبّت فيه، فانطلق بالماء قاصدًا جسد النحيل، وهو يزعم أن شقيقته تتحرك أي أنها لم تغرق بعد.. كل منكما يرى شيئًا ولا تعلم يا (كريم) أي منكما على صواب؟

تمنيت أن تمنع صاحبك من التقدم، أن تحذره من الخطر الذي يدنو منه، أن تلتصق بساقيه مانعًا إياه من الحركة، تمنيت وتمنيت لكنك لم تفعل أيًا من هذا يا (كريم) لأن الصدمة التي نزلت عليك حين رأيت وجه الرجل النحيل لم تكن بالهيئة هي الأخرى.

كان رأسه فارغا تماما من أي ملامح أو نتوءات! لا أنف

ولا فم ولا عينان ولا شعر حتى، مجرد بالون أجوف موضع الرأس.

لقد فات الأوان بالفعل، فبمجرد أن لمس (طارق) جسد النحيل بأنامله، انقض عليه هذا الأخير ساحبًا إياه لأعماق البحيرة دون أثر لهما!!

أفقت من حالة الشلل التي أصابتك وأنت تهرول صوب خيمتك كالمسعور، زججت بجسدك داخلها مغلقًا سحابها عليك من الداخل، التقطت عويناتك أخيرًا ثم رحت تبحث عن شيء ما بالخيمة.. لم تجده في بداية الأمر بين قطع الملابس وبكيس النوم، فرحت تبعثر محتويات الخيمة كالفهد المفترس الذي يحاول الفرار من شباك الصيادين. حتى عثرت عليه أخيرًا.

تعلم يا (كريم) أنه محض سكين مطبخ صغير بالكاد يعتبر تهديدًا لآدمي عادي، فما بالك وأنت تواجه به كيانا شيطانيا مفزعا! المعركة محسومة بالطبع، لكنه على الأقل يمدك بشعور أنك لن تموت بدون قتال، وكي لا تقضي عليك الذبحة الصدرية من فرط الخوف باعتبارك أعزلًا.

لا تعلم إن كان كيان الطريق هذا كالثعابين يكتفي بوجبة أو اثنتين باليوم، أم إنه كالأسود يسقط الفرائس ولا يظفر منها إلا بأقل القليل، ثم ينطلق في رحلة صيد جديدة.. لكن بجميع

الأحوال أنت هالك.

رأيت بالخيمة دفتر ملاحظات أحضرته معك لتدوين أي نشاط غريب على الطريق، على أمل أن تطلعه على أحد باليوم التالي وهو فارغ. وبما إنه لا وجود ليوم تالي يا (كريم) لذا قررت أن تغير وظيفة هذا الدفتر، وتخط عليه ما أصابك بسبب عنادك واعتقادك أنك دائمًا على صواب بتعليمك العالي وأن الآخرين محض حمقى لا يستحقون الحياة.

رغم أنك لو راجعت الأمر أو نظرت له بزاوية مختلفة، ستجد أنك كنت الأحمق الوحيد بهذه الليلة يا (كريم). فلو كان كيان الطريق محض كذبة اختلقها أهلها وصدقوها، فكيف يعاني الغرباء كذلك من بطشه وهم لم يسمعوا عنه حرفًا.

مع الأسف أنت لم تجد قلمًا لتنفذ نيتك تلك، رغم أنك واثقًا من إحضاره معك، ربما يرقد القلم الآن بخيمة (طارق) أو (سهيلة) لكنك بالطبع لن تخاطر باختلاس النظرات من الخيمة حتى. ما العمل إذًا يا (كريم)؟ عليك التصرف.

بلغ مسامعك من الخارج، همهمات كما لو أن هنالك عشرات الأشخاص يمرون على خيمتك أو يتجمعون حولها. فكرت أنها النجدة وأن الصباح قد أشرق بالفعل، فكدت تخرج من

خيمتك نادمًا على حمقك، راميًا بجسدك الواهن بأحضانهم. لكنك تراجعت كالعادة عن الأمر حين سمعت نبرة صوت (سهيلة وطارق) والكثير غيرهم من أهل العزبة الذين وافتهم المنية. لم تستطع تمييز ولو كلمة واحدة، ولن تريد أن تفعل. فحديث الموتى ليس بالشيء المستحب سماعه.

فلم تجد بدًا من إيجاد شيء تكتب به على الورق وبسرعة، قبل أن يقتحم الموتى خيمتك الواهنة، ولكن ما هوا، فقطع الفحم التي شويتم على نيرانها عشاءكم الأخير، بخارج الخيمة، يجب صناعة مصدر آخر للحبر بهذه الخيمة مهما كلفك الأمر من ألم.

بالطبع الأمر مؤلم، فآخر الحلول برأسك هي الكتابة بدمك!

لم تكلف مخك بالتفكير في حلول أخرى، فرحت تدب السكين براحة يدك اليسرى، ممزقًا معها ترابط ألياف كفك، سامحًا للدماء بالفرار. رغم أنه خدش بسيط لكن الجو العام أحاله شعوريًا كما لو كنت تنحر عنقك بيدك، ضاربًا جسدك بكافة أنواع التوجع.

شعرت بغصة مذاق الدماء الصدئة بحلقك، لكنك تحاملت المرارة ورحت تكتب قبل أن يباغتك الموت، مطالبًا والدتك الدعاء لك بالرحمة.

***

التفاحة الثامنة عشر

عزبة شجرة التفاح

عام ٢٠٢٢

صباح اليوم الثالث

فجأة شعرت بشيء جلدي متقشف، خشن الملمس، يركلني برفق لأبتعد عن المكان. نظرت صوب صاحب طبقة الجلد تلك، لأتبين أنه أحد أهالي العزبة بملابسه المتربة وملامح الإجهاد على قسماته.

كيف تجرأ هذا الحقير على التفكير في لمس جسدي المقدس حتى؟ بل وحين يتجرأ على فعلها، يقوم بها بأكثر الطرق المهينة عبر العصور! أين ولّت الأيام التي كان يمثل بها زفيري، ألسنة نارية تسقط على إثرها الجثث؟ لا بد أن يدفع هذا الأحمق الثمن ليكون عبرة لغيره.

كدت أطلق العنان لأظفاري لنحر عنقه كما فعلت مع (وجدي) من قبل، لكنني تراجعت حين وجدت أنه طبيب العزبة، بل ويحتشد حوله عشرات من أهالي العزبة! تعديه عليّ بالركل هكذا لن يمر مرور الكرام بالطبع، لكن الوقت ليس مناسبًا على ما يبدو، فليس هذا الوقت المناسب للكشف عن كنهي، خاصة أمام تلك الجموع العريقة.

تطلعت حولي في بلاهة لأجد أن الشمس قد أشرقت! هل قضيت الليل بأكمله أقرأ في رسالة (كريم) الانتحارية؟ إنها مرّتي الأولى التي يسرقني الوقت بهذه الطريقة الفجة. حتى إنني لا أستوعب حتى الآن كيف حضر كافة هؤلاء القوم إلى هنا دون أن أشعر بهم.. لابد أن أحد الأهالي قد رأى جثمان العجوز وهو متدلٍ من غصن الشجرة أثناء ترجله على الطريق قاصدًا عمله، فعاود يصرخ بطبيب العزبة طالبًا العون الذي أحضر في أعقابه كافة هذه العيون الفضولية.

أنزل الأهالي جثة العجوز وهم يبسملون ويحوقلون، ليسرع الطبيب لفحص نبضها، كما لو أن لونها الشاحب وعينيها الزجاجيتين وخمول جسدها، ليسوا بالأدلة الكافية على موت العجوز.

أخرج أحد الرجال هاتفه المحمول لطلب الشرطة التي تلفق القضية في أغلب الأحيان إلى غارات الحيوانات المفترسة على العزبة، لكثرة تكرار هذا الموقف.. الكل يعرف الجاني لكن ما من أحد قادر على اتهامه أو حتى القصاص منه على بطشه، لكنه إجراء روتيني على أي حال لاستخلاص إذن الدفن.

بينما أحضر رجل آخر ملاءة بيضاء ليدثر جسد المرأة بها بعد أن ظفر بالإذن من الطبيب. لتأتي فتاة تلطمه بغوغائية

دون سابق إنذار، كما لو أنه أقدم على جرم شنيع وهي تصرخ بالجميع أن يبتعدوا وتترجى العجوز أن تفيق لترافقها للديار. كانت الفتاة هزيلة الجسد، كثيفة السواد أسفل عينيها، مشعثة الشعر كما لو أنها أصيبت في حادث شنيع منذ قليل. أو بالأحرى خرجت من ولادة طبيعية مرهقة منذ أسبوع. فعمليات الولادة شحيحة الاحتياطات الطبية، تلقي بصاحبتها في دوامة من فقر الدماء لمدة ليست بالهينة.

كما أن الوضع لا يحتاج لذكاء ألمعي ليستنتج أي غريب، أن تلك الدموع التي تذرفها الفتاة، هي حرقة الابنة على فراق أمها.. إنها زوجة الإسكافي الذي من المفترض أن يقام حفل سبوع ابنتها اليوم باعتبارنا في يوم جديد.

لقد أتت هذه العجوز للعزبة بكل فرح الدنيا وهي مقبلة على الحياة، ليُسلب منها كل شيء مخلفة التعاسة على الوجوه والأوجاع بقلوب غيرها.

بعد أن عنفها زوجها لتعود لدارها مكملة بكائها هناك، حتى يتولّى الرجال أمور التغسيل والدفن تلك، لاحظ الطبيب ذات الورقة التي قضيت الليل أقرأها، فالتقطها جاهرًا بصوته بما خط بها من دماء، ليستمع الأهالي لما مر به (كريم) وقلوبهم تثب هولًا من التخيل.

مهلا لحظة.. (كريم)! أين اختفت جثته أو هو ذاتيًا لو ظل

حيًا -رغم ضعف هذا الاحتمال-؟ وماذا حل بجثة التوأمين؟ فهرعت أسبق الأهالي صوب الجهة المؤدية للعزب المجاورة، لأعثر على ضالتي بعد دقائق قليلة.. مخيم الصبية.

فتشت الخيام الثلاث قطعة قطعة وزاوية زاوية، دون العثور على أي شيء يقود إليهم، أو حتى هاتف (كريم) المحمول الذي كان يسترشد به في الظلام الحالك أو عويناته التي شكلت عائقًا حقيقيًا أمام إبصاره!

هل ما كتبه الصبي في خطابه صادق؟ أم كل هذا لم يحدث وقد اختلق (كريم) هذه الحجة اعتمادًا على سمعة الطريق المفزعة، ليلفق لها قتله ل(طارق) وهروبه مع محبوبته (سهيلة) لخارج العزبة أو شيء من هذا القبيل.. هل يعقل أن الكتابة بالدماء ما هي إلا حيلة لتضليلنا عن قصة العشاق المبتذلة تلك؟

هذا الاحتمال قائم، بل كذلك يمكنني اختراع آلاف السيناريوهات التي تنتهي باختفاء الصبية الثلاثة، لكنني لن أصدق أيًا منها. لأنني استشعرت الصدق في حروف (كريم) فتلك الرجفة التي كتب بها العبارات تؤكد أنه مر بالهول ذاته، تلك اللهفة في إنهاء الرسالة تشير إلى أنه مطارد من الموت على أقل تقدير، ذلك التلعثم في ترتيب الجمل ووصف الأحداث أوحى أنه يكتب بنصف وعي فحسب، أما النصف

الآخر لأخذ حيطته من أي هجوم غادر من كيان شيطاني ما.. والسؤال الآن هو كيف وصلت الرسالة لموضعها بالشجرة كما وجدتها مع العجوز؟

عاودت شجرة التفاح لأجد التجمع قد انفض ليعود كل شيء لمجراه الطبيعي كأن شيء لم يكن، مستعيضين ربهم على روح العجوز والثلاثة شباب الذين لا يعلمون موضع جثثهم بعد ويبدو أنهم لن يعرفوا أبدًا.

العجيب في الأمر أن الأهالي بالصباح تتعامل مع الطريق بشكل طبيعي كما لو أنه لم يتشرب الكثير من دماء الجثث منذ دقائق، أو حتى يفكروا في بناء طريق غيره أو ربما غلقه واستعواض ربطهم بالعزب المجاورة بالقوارب. كانت ميكروباصات الأجرة تقطع الطريق في الاتجاهين لنقل الزائرين أو لرحيل المهاجرين، وهنالك البعض من البشر آثروا حمل متاعهم مترجلين صوب دوامهم اليومي دون الاستعانة بأي مركبة، ربما لتوفير ثمن الأجرة أو لتنشيط دورتهم الدموية بالسير قبل بلوغ العمل.

كانت الألسنة تنقل أخبار القتلى اليومين في تعجب من دورية سقوط الجثث كما لو أنه وباء بلغ العزبة، يقضي على واحد من أهلها بنمط يومي. وآخرهم تلك العجوز وابنيها التوأم!

لهذا إذًا قتلت العجوز بذات الطريقة التي فقدت فيها (سهيلة) حياتها، وهي الشنق.. لقد فقدت هذه الأسرة الأم واثنين من أبنائها الثلاثة بليلة واحدة، ربما الابنة الثالثة أو طفلها حديث الولادة معرضين لتهديد الآن، لكنني كالعادة غير مهتم.

بلغت الشجرة التي كانت كما رأيتها بالأمس، عتيقة كما لو مر عليها آلاف السنين. رغم أن أوراقها تستر على ثمارها في استحياء إلا أن لون تفاحها الأحمر، قانٍ بشكل فج، كما لو أن تلك الثمار مطلية بالدم، ولا يبدو على ثمارها أنها مرّت بأي مراحل نضج لعدم وجود أي من درجات ألوان الأصفر أو الأخضر كأقرانها من ثمار التفاح حول العالم، ورغم هذا لم تسقط عن الأغصان تلقائيًا كما هو متعارف على التفاح حين ينضج، كما لو أن الشجرة متمسكة بثمارها حد الممات.

ولفت انتباهي كذلك عدم وجود أي أوراق صفراء على الأغصان أو ميتة على الأرض. لا أعتقد أن أحدًا يهتم بنظافة الطريق أو سلامة الشجرة على أي حال، فبودهم نسف تلك الشجرة عن بكرة أبيها بأقرب فرصة بعد ما خلفته من ضحايا.. يبدو أن الشجرة تحافظ على كل كيانها من أي سوء، ابتداءً بجذعها الصلب، انتهاءً بأوراقها.. ناهيك أني لم ألحظ أي عش للعصافير عليها كما لو أن الطيور تخشى مجرد الدنو

منها، فلا تتخذ من فروعها وأغصانها مطارًا تريح أجنحتها الضعيفة عليه قبل أن تعاود تحليقها من جديد.. والأمر لا يحتاج للكثير من الأدلة لأفطن أنه لا يتربع بتلك الشجرة أي نوع من الحشرات سواء كانت آكلة للخشب أو باحثة عن ملجأ للاستقرار به، فيبدو أن الحشرات تفضل أن تُهرس من أقدام البشر أو تموت جوعًا على الاختلاط بجحيم شجرة التفاح.

استوقفني ما لمحته بطرف عيني بجانب الشجرة. كان الكشك المتربع بجوارها كالمساعد الأمين لها. بالطبع رأيته بالأمس وأنا أتتبع العجوز لكني لم أشغل له بالًا، وبالمثل باقي الحكايات التي مرت بي، لم يذكر أحدهم أمر الكشك هذا كأنه مخفيًا، رغم ما يبدو عليه أنه رابض بهذا المكان منذ الأزل تقريبًا! لكن ما أثار انتباهي بحق، هو ما يقبع داخله.

دلفت الكشك من بابه المتهدج وأنا أمسح الموجودات بعيني، كان كأي كشك مهجور متعارف عليه بما يحوي من أتربة مغلفة لكل شيء حتى طمست ألوانها الحقيقية، ألواح خشبية خربة تصدر أزيزًا يصم الآذان بمجرد تسليط البصر عليها فما بالك إذا بالخطو فوقها مكتب مهشم عن آخره لم يعد يصلح للاستخدام، مروحة معدنية نهش الصدأ كيانها حتى حالت لمسخ نحاسي، رأس مبتورة بوسط الكشك

بإهمال، زجاج مكسور منذ عقود دون صيانـــ... مهلًا لحظة هنالك رأس مبتورة بالمكان؟

ليس لدي خبرة في محلات بقالة البشر، لكني متأكد أن هذا الشيء ليس طبيعيًا.

ظللت أحوم حول الرأس لأتفحصها، كانت لرجل بالغ في أواخر العشرينيات تقريبًا، هنالك ثقبان بمنطقة العين يحفران جمجمته بالكامل، حيث يمكنني أن أرى من خلالهما كالمنظار. بالطبع كانت الدماء بالثقبين وبموضع الرقبة المنحورة متجلط تمامًا، بما يوحي أن هذا الشخص فقد رأسه منذ فترة ليست بالهينة، والعجيب أنها ليست بالبعيدة كذلك، حيث إن الجلد المغلف لجمجمته لم يبلغ مرحلة التحلل أو حتى النحول.

يبدو أن لدى صديقنا هنا الكثير من الأسرار رحلت معه أينما قُتل. بالطبع هو لم يلقَ مصرعه هنا، فلا وجود ولو نقطة دماء واحدة بالمكان. فمهما بلغ القاتل من احترافية في مسح آثار جريمته، بالطبع سيغفل عنه شيء كبعض قطرات الدماء أو حتى بعض آثار الأقدام هنا أو هناك. لكن الأتربة المغلفة للمكان توحي أن قدمي هي أول من دبت هذا المكان منذ سنين.. إن تلك الرأس هنا بهدف إيصال رسالة ما، لكن ما هي ولمن؟ هذا ما سأعرفه الآن.

وكالعادة انتصبت خلف الرأس شاهرًا عن أنيابي ثم دسستها في جبهة فريستي كأفلام مصاصي الدماء المبتذلة، مع اختلاف أني لن أمتص دمه، بل سأستجوب ذكرياته.. أو بالأحرى، لإجراء عملية (النكرومانسر).

***

لم تكن الأحداث قد ملأت أفواه الناس حينها.. فكل ما يثرثرون عنه بجلسات السمر الليلية لإضافة نوع من الإثارة للحوارات الجافة بينهم، هو غرابة الطريق في الآونة الأخيرة الذي لا يأتيهم منها غير الشؤم.

ومع ذلك، كان لك يا (حسن) مقولة خاصة لا تشذ عنها مهما ابتلتك الحياة من مشقاتها، المتمثلة في «العمل أولًا ثم الراحة لاحقاً».

ومن بالعزبة لا يعلم بك يا (حسن العفي)؟ بالطبع لم يكن هذا باسمك الحقيقي، لكن الأهالي أطلقوه عليك لقوتك وعافيتك المفرطة عن أي إنسانٍ عادي، فاستغللت تلك القوة للعمل وكسب قوتك اليومي.

في البدء ظن بك الجميع العته أو التخلف العقلي على الغرار بمبدأ (لا أحد يظفر بكل شيء)، اعتقدوا أن القوة الفائقة التي تمتلكها وتكفل لك العمل يومًا كاملًا بلا طعام أو

نوم أو حتى قطرة مياه، سيكون بمقابلها تأخرك العقلي عن سائر الخلق.. لكنك يا (حسن) كنت على النقيض تمامًا.

لن نبالغ في شأنك ونزعم أنك قادر على وضع نظريات أكثر حداثة في علم الذرات، ولن نحقر من حقيقتك لندعي أنك بالكاد تنافس الصغار في الكتاب على سرعة القراءة.. بل كانت معتدلًا. تعلمت القراءة والكتابة والكثير من الحرف اليدوية والحساب بأنواعه.. كنت شخصًا عاديًا لا تعيبك إلا قوتك المفرطة المتناسقة مع عضلاتك الضخمة.

بإحدى الأيام، كلفك العمدة (جابر الشبراوي) بنقل بعض الأدوات الزراعية لعزبة مجاورة بالتروسيكل الخاص بك، الذي اشتريته بعد أن علمت مدى أهميته لعملك كـ(فواعلي).

فبالتأكيد العمدة يحتاج لهذا النوع من الشبان في شتى المصالح الثقيلة.. فأين يمكنك التعثر بأحدهم قادر على مسابقة القطارات أو اقتلاع أشجار النخيل من جذورها، وفوق هذا كله خدوم مع الجميع وطيب القلب مثلك يا (حسن).

كان حينها الوقت متأخرًا على المخاطرة باجتياز الطريق بهذا السواد الكاحل، فهذا الفعل أضحى في عقول الكثيرين قريبًا للموت المحتم.. لكنك غيرت مبدئك حينها لـ "العمل أولًا ثم الخوف لاحقًا» على أن تطالب العمدة بتأجيل العمل للغد.

فاعتليت يا (عفي) دراجتك النارية بعد أن ملأت الصندوق الملتصق بها ببضائع العمدة.. وانطلقت في طريقك متمتمًا في قرارة نفسك أن الساعة التاسعة مساءًا ولا تزال بالعزب المجاورة حياتها النابضة، أي أن مارد سكون الليل لم يولد بعد.

أثناء قيادتك الهادئة على الطريق في محاولة منك للإسراع قدر الإمكان بدراجتك للخروج من هذا الطريق بأقل وقت وخسائر.. لمحت بطرف عينك شيئًا يقذف من المجهول ليمر بجانب وجهك مباشرة.

لو كان قائد الدراجة شخصا آخر غيرك يا (حسن العفي) لكان التوتر قد ضرب كيانه ليجعله ينحرف عن الطريق أو يفقد السيطرة على مركبته، لكنك ظللت ثابتًا كما أنت.. الدهشة تعتريك بعض الشيء لكن لا بأس، يمكنك تجاوز الأمر.

تكرر الأمر قبل تغلبك على دهشتك، لتلحظ أمرًا عجيبًا هذه المرة، لقد هبط هذا الشيء من الأعلى لا من الأمام أو إحدى الجوانب كما خطر ببالك!

كيف تسقط الأشياء من السماء على أي حال؟ أهذا عصفور يعاني بعض مشاكل القولون كما صور لك خيالك البسيط؟

كدت تكمل يا (حسن) أسئلتك معدومة الإجابة، لكنك قطعتها حين نظرت للأعلى كرد فعل طبيعي عقب استنتاجك السابق، لتلمح شيئًا دائريًا يسقط من الأفق القاتم السواد بشكل رأسي.. حتى انتهى مطافه بالاستقرار في صندوق التروسيكل الخلفي، مصحوبًا بضجته الخفيفة كإعلان منه عن انضمامه للرحلة.

فمددت يمناك يا (حسن) للخلف لالتقاط هذا الشيء، في حين أن يسراك وعينيك لازالت متعقلة بمقبض الدراجة والطريق المعتم أمامك.

فاستطعت أن تدري كنه هذا الشيء على أضواء مصابيح الدراجة، التي تمنحك نوعًا من الأنس الكاذب.. كانت تفاحة حمراء ناضجة!

كدت أن تسأل نفسك السؤال الأكثر غباءً بالتاريخ -رغم منطقيته بهذا الموقف- وهو منذ متى بدأت السماء بأمطار التفاح؟ لكنك لم تملك حتى الوقت الكافي للتفكير به، لإيجاد الإجابة عنه. حين أبصرت لون التفاحة الأحمر وهو يفقد نضرته ويختفي بريقه للتحول للون البني.. ثم أضحت التفاحة تنكمش بين أناملك وتخرج منها عصارة لزجة كالإسفنجة المضغوطة، حتى قررت أخيرًا أن تفلتها من قبضتك بعدما أبصرت بعض الديدان الصغيرة وهي تنبثق

من القشرة الخارجية للتفاحة ملتهمة كل ما يقابلها بطريقها بعبث.

هل للظلام هواجسه الخاصة القادرة على اختلاق الخوف من قلب العتمة؟

أم بالفعل السماء أمطرت عليك تفاحة، شرعت تفسد أمام عينيك حتى نهشتها الديدان، كما لو أنها مرت عليها سنة كاملة بين أصابعك في أقل من خمس ثوانٍ؟

لم تجد إجابة من جديد، خاصة حين انتبهت لشجرة التفاح وهي تقترب في شموخ مهيب.. لكن مهلًا لحظة، ماذا أتى بتلكما الشجرتين في خلفية الشجرة الأساسية؟ قد تكون يا (حسن) أميًا لكنك على الأقل تدرك بأن الأشجار لا تنبت بهذه الدرجة من النمو بين يوم وليلة.

ناهيك أنك من أهل العزبة التي تقبع تلك الشجرة في ممرها. فأنت لست أجنبيًا عليها ليختلط عليك الأمر، فأنت حافظ لطريق العزبة عن ظهر قلب، نسبة لقيادة دراجتك عليها ما يعادل الأربع مرات يوميًا بحكم عملك.

لكن تلك لم تكن الفاجعات الوحيدة لليلة، فهي كالعادة تمهيدات بسيطة للهول المنتظر.

لم تفق يا (حسن) من أمر الثلاثة أشجار حتى تنبهت

لهؤلاء الرجال الثلاث الواقفين أسفلها.. كانت ملابس ثلاثتهم ملطخة بالأتربة الممزوجة ببعض المياه لتحولها لما يشبه الطمي، لا يرتدون مداسًا يحمي أقدامهم من قسوة الأرض الرملية المحيطة بالطريق الأسفلتي، ساندا كل منهم بجبهته على شجرة كما لو أنه يغط بالنوم واقفًا كالأحصنة. يحكون بأظفارهم ساق الشجرة الخشبي كالقطط وهي تشتهي الوجبات الساخنة بأيدي الزبائن الشرهين من خلف الحوائل الزجاجية بالمطاعم، حليقو الشعر بطريقة عبثية، تتنوع بين الأماكن برؤوسهم ذات الخصلات الطويلة وأخرى قصيرة كما لو أنهم ظلوا ينتفونه بأيديهم الخاصة حتى بات على هذا المشهد الشنيع.

كانوا يولونك ظهورهم، عدا أحدهم من استطاعت إبصار جانب وجهه، لتتمكن من تحديد ملامحه والتعرف على كنهه.

بالرغم من وجنتيه اللتين التصقتا بفكه دلالة على فقدانه للوزن، وهذا الترهل الأسود المحيط بعينيه، وتلك الالتواءات العجيبة بشفته التي تطمس ملامحه، لكنه سيظل (كمال) بلا أدنى شك؟

قد تتناسى معالم خطيبتك السابقة، قد تختلط عليك ملامح أحدهم معتقدًا أنه صديقك، قد لا تلحظ نسيبك الذي يسير بجوارك بالشارع.. لكنك ستتعرف على أخيك يا (عفي)

مهما طرق بوجهه من تغيرات.

أوقفت دراجتك يا (عفي) بلا تفكير، عاقدًا العزم على احتواء أخيك الصغير المفقود منذ فترة بين أحضانك.

رحت تتذكر الأيام المريرة التي قضيتها منذ أشهر في البحث عنه أو حتى جثته، فجثة صبي ذي خمسة عشر عامًا ليست بالأمر الهين الذي نمر عليه كل يوم أو يصعب ملاحظته.. ولكن رغم هذا لم يعثروا على أي شيء يقودهم إليه.

لقد تراهن (كمال) مع الصبية الولوج للطريق والخروج منه سالمًا وإلا اتهموه بالجبن أو شيء من هذا الهراء، لينتهي به المطاف مفقودًا مشردًا بالطرقات عن أسرته.. ولكن كل هذا لا يهم، ها قد عثرت عليه الآن يا (عفي).

لكنك سرعان ما توقفت عن العدو ناحيته بمنتصف المسافة بين دراجتك والصبي حين أبصرت الرجلين الآخرين.. اللذين لم يكنا سوى (كمال) بدورهما!

حينما رأيت أن لأخيك ثلاثة نسخ تلتفت ناحيتك ببطء مميت، أيقنت أن الأمر قد خرج عن حدود المنطق.. متى كان للمنطق حضورٌ منذ بداية الرحلة؟ أنت ذاتك لا تتذكر، فالإحباط بعد لهفة إيجاد الأخ الضائع، لم تجعل لعقلك

المقدرة على التفكير من الأساس.

ظللت فاغرا فاهك في صدمة جهنمية حين التفت ال(كوامل) الثلاثة بكامل أجسادهم، و هم يلبسون ذات الملابس التي كان يرتديها (كمال) حين فقدوه.. والمثير للفزع أن قميص (كمال) –ونسختيه- كان ممزقًا إثر مخالب لم يشهد بشر مثلها من قبل، ناحرة معها في جلد صدره وبطنه، حتى يمكنك أن تبصر بعضًا من ضلوع قفصه الصدري، وتلك الأمعاء شبه المتدلية مصحوبة بكل تلك العصارات والدماء اللزجة.

حان وقت الفرار يا (حسن) من هذا المكان، ألا توافقني الرأي؟ عاودت دراجتك وثبًا في قفزتين تقريبًا، لتنجو من هذا العبث الإبليسي الشنيع.. حاولت أن تدير مفتاح الدراجة بموضعه للعمل، لكنها أبت الطاعة، مكتفية بإصدار تلك الزمجرة من محركها.

ظللت تعيد المحاولة مرارًا وتكرارًا، لاعنًا في سرك العمدة وتسب شخصك بأكبر قدر من الألفاظ الشنيعة، على لعابك السائل وراء المال في غباء، وعلى مبدئك اللعين هذا.

يتقدم الصبية الثلاثة ناحيتك في بطء يزيد من توترك، فتسرع من محاولتك الفاشلة وجسدك ينتفض فزعًا، ثم...

هل ما يراه الآن هلوسة بفعل الحشيش؟! لكن رئتاك لم تلوثهما أدخن السجائر المحشية أو الطبيعية من قبل.. أهو الإجهاد؟! لكنك معتاد على العمل لوقت متأخر، ناهيك عن جسدك القوي الذي يمدك بما يكفيك من الطاقة للسير المتواصل لثلاثة أيام دون ذرة من التعب.. أهي المشاكل الأسرية التي تمنيه عودة أخيه؟! كيف هذا وحياته مع إخوته ووالدته أكثر من مستقرة.

اللعنة على تلك الدراجة التي قررت أن تترك العالم أجمع، وعزمت على تجريب التحول لقطعة من الصنم هنا والآن.. لا ينقصك إلا انقطاع ضوء دراجتك ويتحول المشهد لأعتى مناظر الافتراس توحشًا بالتاريخ.. ها قد انكسر مفتاح الدراجة برحمها إثر محاولاتك العنيفة لحثها على الحركة، مجبِرًا إياك على وضع حد لتذمرك.

لن تبكيَ، لن ترتجف، لن تصاب بالشلل المصاحب لتلك المواقف، عليك التحرك بعملية الآن.. والتصرف الحسن الوحيد المتمثل أمام عقلك هو المواجهة.

هرعت تلتف ملتقطًا العتلة المعدنية التي تحملها معك بصندوق دراجتك كسلاح لحالات الطوارئ كاللصوص أو الشجار.. لم تكن مواجهة جثة أخيك الصغير وأشباهه تندرج في قائمة حالات الخطر تلك، ولكنه الخيار الأوحد المتبقي

أمامك.

لم يلبث أن تستدير حتى شعرت بشيئين ينغرسان بعينيك. أفقداك بعدها أي شعور آخر، وانزلق سلاحك من بين أناملك كالصابون!

كانا أصبعين بعيدين كل البعد عن أصابع البشر، نحيلين حيث ينطبع الجلد الرقيق على العظام بدرجة توحي أنه قد يتقشر كاشفًا عن أصابع طويلة تمثل ثلاثة أضعاف طول الأصبع البشري العادي للرجل البالغ.

أردت يا (حسن) أن تنزع تلك الأصابع عن عينيك، لكن مذاق تلك السوائل المختلطة بالدماء التي تنثال من عينيك المفقوعة مستقرة بحلقك، منعتك من اتخاذ أي موقف. رغبت بالصراخ لكن ذلك الحرق الذي يضرب زوايا مخك نتيجة تهشيم شبكيتك، لم يعُد عليك إلا بالشلل!

من الجيد أنك لم تبصر صاحب تلك الأصابع وإلا قضت عليك السكتة القلبية فورًا، فهذا الشيء العجيب المتمثل أمامك الآن قادرًا على إجبار الرجال الأقوياء أمثالك يصرخون باكين طالبين للنجدة.. حيث كان متشكلاً على هيئة رجل نحيل طويل، يفوق الثلاثة أمتار، مرتديًا حلة داكنة، ممسوح الوجه بلا أي ملامح. إنه ذات الكائن الذي أبصره (وجدي المجذوب) يقف هو وأقرانه خلف أهالي

العزبة.

حاولت يا (حسن) استعادة عمليتك من جديد، فرحت تحرك أناملك أملاً أن تدب الحياة بكل خلايا ذراعك لتقوى على سحب تلك الأصابع من جمجمتك، متناسيًا قواعد تلك الليلة الماثلة في (لا وقت للدهشة).

بدأ الكائن في رفع أصابعه لأعلى ساحبًا معه جسدك الثقيل يا (حسن) بعضلاتك المفتولة، فأخذ جسدك بالارتفاع تدريجيًا منفصلًا تمامًا عن مقعد الدراجة، حتى أضحيت كالذبيحة التي تعلق على مقدمات الجزارات، مع فارق أنك لازلت حيًا يا (حسن).

شعرت حينها بتيارات من الألم المبرّح يعتصر جسدك لأول مرة بحياتك، كانت الحروق التي تعتري رأسك أقسى من أن تصعق أسفل الماء أو ينفلت بك مصعد كهربائي من الطابق العاشر.. حتى بدأ الأدرينالين أخيرًا بتذكر وظيفته التي غاب عن القيام بها لفترة طالت، فتشنج جسدك وتصلبت عضلاتك وأنت تحاول ضرب تلك اليد النحيلة بقبضتك أو اقتلاعها من عينك، ظللت تتلوى كما لو أنك سمكة تحاول تخليص فكها من خطاف صنارة لعين ابتلعت طعمه.

فازداد الطين بلّة حين وصلت جثة شقيقك أو شبحه المشوه أو أيًا يكن كنهه، هو ونسختاه ليبدأ ثلاثتهم في

جذب جسدك يا (حسن) من ساقيك لأسفل.

ما الذي يفعله هؤلاء المسوخ؟ أيحاولون إنقاذك من براثن هذا الكائن؟ بالطبع لا، فما يفعلونه لا يزيد عن غرس الأصبعين برأسك أكثر.

فحاولت يا (حسن) أن تزيد من انتفاضات جسدك، لتبعدهم عن ساقك أو تركلهم بكاحلك برؤوسهم البشعة، فتشبث بك الثلاثة جاذبين إياك للأسفل بثقل وزنهم الخاص بعد أن وجدوا منك المقاومة. عاودت الإكثار من الانتفاض وتحرك أطرافك الأربعة بعشوائية قدر ما ساندك الفراغ على هذا.

يئست من إجبار ثلاثتهم على أن يعتقوك، بعد أن استحالوا لما يشبه مرساة السفن. فتمسكت بالأصبعين محاولًا رفع جسدك لأعلى، متخيلًا إياها كلعبة (العقلة) بصالة رفع الأثقال.

لكن مهما بلغت من قوة يا (حسن)، يحمد أهل العزبة الله يوميًا أنك لم تستغلها كقاطع طرق أو بلطجي مدمنًا على المخدرات يسفك الدماء بلا تأنيب ضمير. ستظل واحدًا ضد هذا الجحيم المتجسد بالكائن الطويل ونسخ جثة شقيقه الشيطانية الثلاثة. ناهيك عن الجاذبية التي كانت لهم خير حليف.. بكل محاولاتك المكافحة تلك للتشبث بالحياة، فقد كانت النتيجة محسومة منذ بداية الليلة

أخذ الأصبعان في ثقب كل ما يعترض طريقهما وأحالته لمنفذ لبلوغهما الصعداء، فقد هشما خلاياك العصبية، مدمرين أوصال مخك، مخترقين جمجمتك، ليبرز الأصبعان من أعلى رأسك صانعان قرنين إبليسيين يتباهيان بما صنعوه من خراب، بكل ما يعتريهما من لطخات دماء طازجة أو بقايا تلافيف مخك.

وقد قدمت لهم يا (حسن) الموسيقى التصويرية اللازمة لهذا المشهد العاتي بصرختك المتوجعة أثناء رحلة الأصبعين العابثة بدهاليز رأسك، حتى استكان جسدك بعد أن خرج الأصبعين بروحك المعذبة، فارتخت جثتك فاقدة المقاومة.

لم تتحمل أوصال عنقك كل هذه الأحمال على عاتقها، فآثرت الاستسلام مشاركة جثتك يا (حسن) بقرارها، حيث بدأت أوصال العنق بالتمزق لترمي بباقي الحمل على فقرات العنق العظمية التي خرت صريعة بدورها دون مقاومة تذكر حتى. فظلت رأسك يا (حسن) عالقة بين براثن الكائن، في حين أن جسدك يهوي معانقًا للأرض

كنت أتابع كل هذا متشكلًا بجسدي بالذكريات، كانت رأسك كالخاتم بأصابع الكائن، الذي راح يتقهقر للمجهول.. ربما كل هذا حدث وربما لا، فبعدما يتلف العقل يبدأ بخلق الذكريات الكاذبة كنوع من الهلوسة أو سكرات الموت.

ثم راحت عتلة (حسن) تتوهج ببقع دماء جافة ظهرت عليها من العدم! لا تمت لدماء (حسن العفي) النازفة من رقبته بشيء، بل هي تعود لضحاياه السابقين الذين يتهللوا بما حدث لغريمهم في شماتة.. مهما حاول غسلها أو إخفاء آثار الدماء عنها، سيبقى بها عبق الماضي الذي ظل يطارده حتى تمكن منه بنهاية المطاف.

لم يعد لوجودي بهذا الاستجواب فائدة على أي حال، فآثرت الانتقال لأرض الواقع ولكن العجيب أن آخر ما رأيته هو الكيان العملاق ذو الحلة الداكنة وهو يتطلع بوجهه الممسوح صوب جهة ما! إنه ينظر لي أنا!

***

فتحت عيني لأجدني بذات الكشك الذي كنت به قبل الاستجواب. دون أن يتحرك شيء عن موضعه قيد أنملة.. كل ما مر به (حسن) هذا قد يبلغ الساعة أو الاثنتين، لكني لم أستغرق أكثر من دقيقة في التجسس على ذكرياته.. وتلك فائدة (النكرومانسر) فالتوقيت ليس متساويًا بالعالم الحقيقي ومخازن ذكريات الموتى.

لكن مهلا لحظة؟ أين الرأس التي كنت أستجوبها؟

من جديد لا علامة على أي آثار أقدام لأحد قد يقتحم

الكشك في غفلتي. وبالتأكيد إن وجدني أحدهم من العامة، أعض رأسًا آدمية مشوهة لن يأخذ الرأس لدفنها وتركي في سلام على سبيل المثال.

في البدء يراني الكيان ذو الحلة في ذكريات (حسن) كما لو علم أنني أتجسس عليه من المستقبل، والآن تختفي الرأس كأنها لم توجد؟ هذا الشيء يعبث معي وعليّ توخي الحذر، إنها دعوة للتحدي بالنسبة لي، وأنا قبلت التحدي.. لكني على الأقل علمت كنه الرأس التي كان يحملها (مؤمن) في ذكريات (وجدي المجذوب).

***

التفاحة التاسعة عشر

عزبة شجرة التفاح

عام ٢٠٢٢

مساء اليوم الثالث

فتحت عيني على بعض الضوضاء، انتظرت ثوانٍ حتى استقرت الصورة أمام عيني من الاهتزاز للقرنية المرافق لليقظة المفاجأة، لأبصر شخصًا عاديًا يتجول بالمحل بسلام.

هل غفوت دون قصد؟ يبدو أن جسد القط هذا غير مهيأ لليقظة أربعة أيام متواصلة دون قطرة ماء أو لقمة زاد واحدة. لقد أثقلت جسدي بما لا يمكن تحمله وكانت تلك النتيجة. لقد تركت جسدي عرضة لخطر محتم سواء بنومي على الطريق بكافة شياطينه تلك أو لأي عدو قديم يتربص لي منتظرًا اللحظة المناسبة للثأر مني. من الجيد أني كنت حذرًا في إخفاء أي أثر لي قبل بلوغي العزبة، لكن مرور الأمر بسلام تلك المرة لا يعني أنها ستمر بذات اليسر إذا تكررت.. عليّ توخي الحذر أكثر من هذا.

نهضت على أقدامي الأربعة وأنا أتثاءب، ممددًا أطرافي ومشنجًا ذيلي كأي قط وديع. ودون مقدمات كتمت تثاؤبي، بل وشلّت كافة أطرافي عن الحركة، حين لاحظت المكان من

حولي. آخر ما أتذكره هو تربعي على أحد الأرفف الخشبية المتآكلة بالكشك القريب من الشجرة بوسط طريق العزبة، منتظرًا غروب الشمس الحامية وبزوغ الليل برهبته التي تقشعر لها الأبدان. وكان الكشك على حالته، سواء الأتربة المغطية لأرضيته بجانب القمامة، أو الأرفف المتهالكة بفعل الإهمال ولا يتراص فوقها غير أعشاش العنكبوت.

أما الآن فالكشك نظيف، لا يوجد على جدرانه ذرة تراب واحدة، والواجهة الزجاجية سليمة دون أن يمسها خدش بسيط حتى، وحتى المصابيح بالكشك، كانت براقة توازي أشعة الشمس ذاتها. مختلف البضائع مستقرة على الأرفف لتعطيك إيحاء أن المكان بقالة عادية لا أكثر ولا أقل! وهنالك كذلك زبون يتبضع من المكان أمام عيني!

هل نقلني أحدهم من الكشك لمكان آخر كما خطف رأس (حسن العفي) من بين أنيابي وأنا أستجوبها دون أن أشعر؟ أم إنني مازلت نائمًا وهذا ليس سوى حلم من نسج خيالي رغم أنني لم أحلم ولو بومضة واحدة منذ خلقي على هذه الأرض؟

شعرت بنوع آخر من الحركة خلفي، فأدرت عيني ببطيء وأنا متوقع الأسوأ. كان رجلًا عاديًا يرتدي حلة وفوقها عباءة مطرزة بحرير أصفر لامع، يعطيك الإيحاء أنها نسجت من

الذهب الخالص. يفتح أدراج مكتبه واحدًا تلو الآخر مفتشًا بمحتوياتها عن شيء ما، ليفطن أنه ليس هنا ثم ينتقل للدرج الذي يليه.

أما المكتب ذاته فكان ينبع بالحيوية بما فوقه من أوراق وأقلام كما لو أنه كان يراجع بعض تلك العقود منذ ثوانٍ، ومطفأة سجائر تستقر عليها أعقاب محترقة عن آخرها، ولفافة تبغ تستقر في توازن على حرف المطفأة بما يؤكد أنه لم ينتهِ من استنشاق دخانها بعد، وأنه سيعود إليها بعد أن يجد ضالته.. لم يعد مهشمًا كما رأيته آخر مرة، بل العجيب أنني كنت نائمًا فوقه كذلك!

وضع الزبون –أو هكذا سأسميه- علبة تبغ على المكتب، يبدو أنه كان متعطشًا للنيكوتين لدرجة أنه لم ينتظر أن يدفع ثمنها، بل بادر بإخراج إحدى لفافاتها من العلبة في البداية، مرورًا بدسها بين شفتيه متحسسًا ورقها الجاف، انتهاءً بإشعالها بأعواد الثقاب قديمة الطراز ثم نفث بعضًا من دخانها.

أخرج الزبون من جيبه بعض الأوراق النقدية دون أن يسأل صاحب البقالة عن ثمنها، في دلالة أنه يعرف المبلغ المطلوب لهذه العلبة عن ظهر قلب، لكنه كان ينتظر بعض الجنيهات الفكة كباقي عن المبلغ الذي دفعه. لكن مالك المحل لم يبدِ

أي ردة فعل كما لو أن الزبون ليس موجودًا من الأساس، بل راح يفتش بجيوب ملابسه عن مراده المزعوم ثم عاد ينبش أدراج المكتب مرة أخرى رغم أنه عبث بها بما يقارب الأربع مرات حتى الآن، حتى كاد المكتب ذاته يصرخ بأن ضالته ليست هنا لكن الرجل لا ييأس. كما لو أنه تسجيل مرئي يعيد نفسه في وتيرة واحدة دون تجديد.

حاول الزبون جذب انتباه المالك سواء بالتنحنح، أو المناداة عليه جهرًا، لكن المالك ظل على حالته من التجاهل. قرر الزبون أن يعاقب المالك على تلك المعاملة الجافة بأخذ ما تبقى من المال رغمًا عنه بأي صورة. فدس يده في إحدى علب العلكة بعزو اتساعها وقبض على كل ما اعترض طريقه، ثم وضعها بجيبه دون أن يعد كم حبة علكة التقط، لكنه واثق أن ثمنها يفوق أضعاف الفكة التي ينتظرها.

ترجل صوب الباب مغادرًا، فرأيت أنه من الأفضل تعقب هذا الزبون الحيوي عوضًا عن مالك المحل الممل هذا، فوثبت من فوق المكتب لأتتبعه.

كانت هنالك عربة نصف نقل تحمل بعضًا من الأبقار تخور في هدوء. لم أستطع تحديد عددها بسبب الظلام، لكنها مستقرة أمام البقالة على أي حال. كان باب العربة مفتوحًا على مصرعه، دون سائق أو أي آدمي يقبع بها، فالأمر لا

يحتاج للكثير من الفطنة لأستنتج أن هذا الزبون هو سائق تلك العربة.

تقدم الزبون صوب العربة ببساطة، لكني تجمدت في موضعي متعجبًا مما تبصره عيناي! أين اختفت العزبة بحق السماء؟ من المفترض حين تخرج من الكشك ستجد على يمينك عزبة شجرة التفاح بضوئها المحبب وعلى اليسار باقي العزب أو القرى. لكني الآن لا أبصر أيًا من هذا أو ذلك.. فقط الظلام ما يغلف طرفي الطريق كما لو أن هنالك ثقبٌ أسود ابتلع الاثنين في فجور!

تطلعت للزبون لأجده هو الآخر يحملق للأرض في بلاهة! ما به هذا الأحمق؟ ألا يلاحظ أننا واقعان في مصيبة تفوق تفاهات اتساخ حذائه أو ثقب إحدى إطارات السيارة؟

فنظرت معه صوب الأرض بحركة تلقائية لأعرف سبب حملقته تلك، وقد كان معه كل الحق في فعلته. لقد اختفى الممر الأسفلتي المتوسط للطريق! ولم يبقَ سوى كتلة هلامية من الرمال يحدها ماء البحيرة من الجانبين. بالطبع هذا ينفي أي محاولة من الزبون للفرار بسيارته، سيكون مصيرها الغرس بين الرمال دون التقدم ولو مليمترات قلائل.

يبدو أن الزبون قرر الالتفات للبقالة مستفسرًا عن هذا العبث، وبعينه العزم على استخلاص الكلمات من فم مالك

البقالة ولو بالقوة إن أبى التعاون وظل على حالته من التجاهل تلك.. لكنه لم يلبث أن يستدير حتى تجمد في موضعه من جديد، فاغرا فاه كما لو أنه رأى شبحًا!

فأسرعت بتقليده أنا الآخر لأعلم أن الزبون لم يرَ شبحًا، بل لم يرَ شيئًا على الإطلاق! لا، لم تختفِ البقالة من موضعها، على الرغم أن لو هذا ما حدث لكان أخف وطأة على عقل الزبون الجاهل، لقد كانت البقالة متربعة بمكانها كما هي لكنها عادت لهيئتها القديمة! عبارة عن كشك خشبي بالٍ، أقل نسمة هواء قادرة على إحالته لحطام.

أعتقد أن بهذه الأثناء ظلت الأسئلة الوجودية تتطاير بعقل الزبون، على غرار (ماذا حل بالبقالة وهو لم يبتعد عنها أكثر من ثلاث خطوات؟ أين رحل مالك البقالة المتجهم؟ كيف غرقت البقالة في هذا الكم من القمامة والأتربة الموحية بأن هذا المكان لم تطرقه قدم منذ سنوات؟)

تركته متخشبًا بتلك الطريقة الساذجة، ليبلل سرواله أو يتوقف قلبه عن النبض فأنا غير مهتم على أي حال، كما أن حالة الدهشة تلك باتت مملة أكثر من اللازم. ما يهيمن على تفكيري الآن هو أن الطريق بدأ في ألاعيبه، ونحن عرضة للهجوم بأي ثانية. فظللت أتلفت حولي كأي قط أصابه السُعّار، متوقعًا أي هجمة مباغتة. حتى لاحظت اختفاء

الشجرة!

في البدء تبدل حال الكشك، ثم اختفت العزبة بطريقها وكذلك الأرض الأسفلتية، والآن الشجرة! هل سيختفي الماء من البحيرة أو القمر من السماء بالحركة القادمة أم ماذا؟ كيان الطريق يستعرض قوته لا أكثر. لقد أثار إعجابي هذا المغرور، لكنه لازال يعبث مع الشخص الخاطئ.

ثم ظهرت الشجرة من العدم على الجهة المقابلة للكشك! رغم أنني مررت بناظريّ على تلك البقعة عشرات المرات، ولم يملأها سوى الفراغ بكل مرة. لا أعرف الحكمة من اختيار تلك البقعة عن غيرها أو لمَ تغير موضع الشجرة من الأساس، لكنه بالتأكيد لا يبشر بخير.

ومن قلب الظلام ظهر ثلاثة! المكان بشكل عام غارق في ظلام سرمدي، فلولا مصابيح السيارة التي تركها الزبون موقدة لراح يمد يده للأمام متحسسًا الموجودات كالمكفوفين. لكني غيره، فعيون القطط تحمل قرنية خاصة تبصر بالظلام. فكيف إذًا ظهرت تلك الأجسام الثلاثة من غير أي مقدمات، ودون أن أشعر بهم؟ إلا إذا كانت تلك الظلمة أحلك من أن تخترقها عيني.

كانوا ثلاثة أشخاص بذات الوصف التقليدي من ارتدائهم الحلل الداكنة ورؤوسهم الممحوة من أي تعابير آدمية أو

حتى شيطانية. مع اختلاف أن أحد هؤلاء الأشخاص ظهر على جسده المعالم الأنثوية المعهودة! هذا الشيء لم أراه من قبل سواء في ذكريات (وجدي) أو حتى (حسن العفي).

راح ثلاثتهم يخطون صوب الشجرة بشكل متتابع، لقد اقتحم الأول جسده ساق الشجرة اقتحاما لتبتلعه ويختفي داخلها كما لو أنه يلتحم بها أو هي بمثابة بوابة تقذف به لبعد أخر.

لم أندهش مما رأيته ولم أرمِ له بالًا، فما أثار اهتمامي هي تلك الأنثى؟ إنها سابقة لم أشهدها من قبل تنفي كافة التوقعات التي بنيتها على كنه هذا الكيان. هل يمكن أن تكون تلك روح (سهيلة) وهذان هما (كريم وطارق)؟ أم أن الكيان الذي أتعامل معه غير محدد الجنس ويمكنه التشكل في أي صورة تخطر على باله، أم أنه يتلاعب على مخاوف الزبون كما فعل مع العمدة (جابر الشبراوي)، مع أني لا أرجح هذه الفكرة فالزبون الآن يعبث بهاتفه المحمول محاولًا الاتصال بشخص ما وهو لازال يدخن سيجارته، لكن تعوقه معضلة شبكة الإرسال إياها، ولا يرمي أي انتباه لما يحدث على ضفة الطريق.

كادت الثالثة تقتحم الشجرة مثل رفيقيها، لكن إحدى أبقار الزبون قررت الخوار كأنها تتأكد أن حنجرتها لازالت تعمل

بأكمل وجه، ولكن في أسوأ توقيت بحياتها. فاستدارت الثالثة صوبنا كما لو أنها لم تلحظ وجودنا من البداية وها قد فعلت الان، ثم تقدمت صوبنا!

لاحظ الزبون جسدها وهو يدنو منا، فلمحت على ثغره شبح ابتسامة بأن النجدة قد بلغته أخيرًا، لكن سرعان ما وُئدت تلك البسمة قبل أن تولد، حين اقتربت أكثر من بؤرة الضوء ليظهر وجهها الممسوح للعيان، وفطن أن تلك ليست النجدة، بل هي ما يأمل أن يتم نجدته منها.

ثم نظر إليّ أنا كما لو أنه ينتظر مني فعل شيءٍ ما! ما الذي يتوقعه مني هذا المختل؟ هل يريدني أن أنقض عليها بمخالبي ككلاب الحماية؟ أم أتعارك معها موفرًا له فرصة للنجاة؟ أنا لست حيوانك الأليف أيها الأخرق، كما أني لست منبهًا ينذرك بالخطر قبل اقترابه.

هل أصارعها الآن؟ بالطبع أنا أقوى من جيش كامل من فصيلتها، لكني لازلت تنقصني المعلومات لتحديد ماهيتها، أنا قوي لكني لست متعجرفًا -أو هكذا أصبحت في الآونة الأخيرة- لن أخوض صراعًا مع خصم أجهل كنهه وغير عالم بألاعيبه. قد تكون نقطة ضعفه واضحة أمام عيني طوال الوقت وأنا جاهل بها، وأي هجوم سأبادر به ما هو إلا إهدار لطاقتي ليس أكثر.. لهذا سأؤجل تلك المعركة لجولة أخرى،

لكنني لن أستطيع فعل هذا وحيدًا، فأنا في حاجة لعون الزبون.

لا أصدق أنني سأستعين بمساعدة بشري أو أنني سأنقذ حياته البائسة معي، ولكن الموقف يجبرني على هذا.. وعليّ الشروع في هذا الآن.

أخذت وضعية الانقضاض، ثم كشّرت عن أنيابي التي برقت بعون ضوء القمر الشاهد على ما امتصته تلك الأنياب من ذكريات واستجوابات، وأطلقت العنان لأظفاري بالاستقامة تأهبًا لتمزيق الشرايين وبتر الأعضاء كما فعلت مرارًا من قبل، تشنج ذيلي وأنا أقبض على الأرض بأصابعي الأربعة متصلبًا. انتصب شعر جسدي بالكامل، رحت أصدر زمجرة غير إرادية وعيناي تتحولان للأحمر الشيطاني، بدأ جسدي يتضخم حتى بلغ ضعف حجمه الطبيعي كما لو أنني قاربت على التحول لنمر مفترس.. حتى ظهر الطريق الأسفلتي من العدم، وانقشع الظلام عن ضوء العزبة البسيط.

كانت الأبقار تخور في خوف خشية من تلك المخلوقة، فظل الزبون مركزًا نظرة عليهم ولم يلحظ ما قمت به.. عاد جسدي لطبيعته ورحت ألهث على ما بذله بدني من مجهود عقلي وروحي، يفوق كينونة جسدي الضعيفة.

ليس لدي وقت لأخذ أنفاسي، لقد أبطلت جزءًا من شعوذة

كيان الطريق ولا أضمن متى سيرد الصاع، ولن أنتظر لأعرف بالطبع. فوثبت صوب العربة، لكن الزبون ظل متجمدًا في موضعه كالتمثال يراقب ما حدث بذهول! ليس لدي وقت لقلوب البشر الضعيفة على استيعاب الخطر واتخاذ ردود الأفعال، فصحت عليه.

كدت أحدثه بلسان البشر، لكنني تداركت غفلتي قبل فوات الأوان، فآخر ما ينقص هذا الزبون قبل أن يهوي جثة هامدة هي فاجعة أخرى متشكلة في قط ناطق. فأصدرت مواءً عاليًا بعض الشيء، لم ينتبه لي بالبداية ثم رحت أخرج من أحشائي كافة أصوات القطط المعروفة، وراحت الأبقار تخور في نغمة واحدة كما لو أنها تشاركني النداء.

حتى انتبه لتربعي بالسيارة أخيرًا ولاحظ بعين خاطفة بروز الأرض الأسفلتية من جديد، اعتقد أنه كان يهلوس وأن كل شيء مستقر بمكانه دون تغيير، فراح يفرك عينيه على أمل أن تختفي تلك المخلوقة ذات الحلة وتعاود الشجرة أدراجها بجوار الكشك، رغم مشاركتي إياه ذات الأمنية لكنها لن تتحقق. فوجد أن ما باليد حيلة غير الفرار بعربته.

وخلال ثانيتين، مخترقًا كافة قواعد فيزياء البشر، كان الزبون مستقرًا أمام عجلة القيادة محاولًا إدارة مفتاح السيارة ليحثها على العمل. في الظروف العادية لكانت

السيارة ستصدر بعض الحشرجات مؤكدة على امتناعها التام عن الحركة ولو كانت نهاية العالم في أعقابها، لكني حرصت على فك شعوذة كيان الطريق عن العربة كذلك، وراح الزبون يقودها صوب العزبة بأسرع ما لديه وبعزم ضغطت ساقه على دواسة الوقود.

نظرت من نافذة العربة الخلفية صوب المخلوقة وهي تفشل في اللحاق بنا. فلتسعدي بفراري تلك الجولة أيتها الملعونة، لكن نشوة فرحك تلك لن تطول ولن تجدي من الوقت رفاهية التفاخر بما حققتِه اليوم، لأنني سأعود رادًا لكرامتي.

استطعت إبصار الجزء السفي من رأسها وهو يستطيل لأسفل في علامة على فتح فمها -إن كان لها فمٌ من الأساس- وأطلقت العنان لصرختها اعتراضا على فرار وليمتها منها.

كانت الصرخة أقوى من المتوقع لدرجة أنها هشمت أي شيء زجاجي بالسيارة، سواء النوافذ أو المرايا أو حتى مصابيحها، ولو كان الزبون يرتدي عوينات لشاركتهم ذات المصير.. إنها تستهدف إطارات السيارة!

راحت تتحول عيناي للأحمر من جديد، لأخوض معها معركة ذهنية حتى نخرج من حيز سطوتها. هي تحاول ثقب إطارات السيارة لنصبح ضحية سهلة الافتراس، وأنا أحرق

أي شعوذة روحية تحاول مس المركبة. لو نظرنا للأمر بعين غير آدمية كخاصتي لأبصرنا هالة حمراء تحيط بالسيارة وأسهم سوداء تحاول اختراقها في عناد، كل هذا وسط موسيقى تصويرية من لهاث الزبون في محاولته لغلق أذنه عن تلك الصرخة، وخوار الأبقار الخائفة من ذلك الصراع.. إنها تأبى الاستسلام وبالمثل أنا.

هنالك شيء ما يقوي تمسك كيان الطريق بنا، لكن ما هو؟ نظرت حولي لعلّي أستشف أي شيء، حتى وقعت عيناي عليها.. إنها علبة السجائر التي ابتاعها الزبون من الكشك ولم تتبخر مثله! يحيطها هالة سوداء كئيبة على نقيض أقرانها من الجمادات المعدومة الهالات بالسيارة.

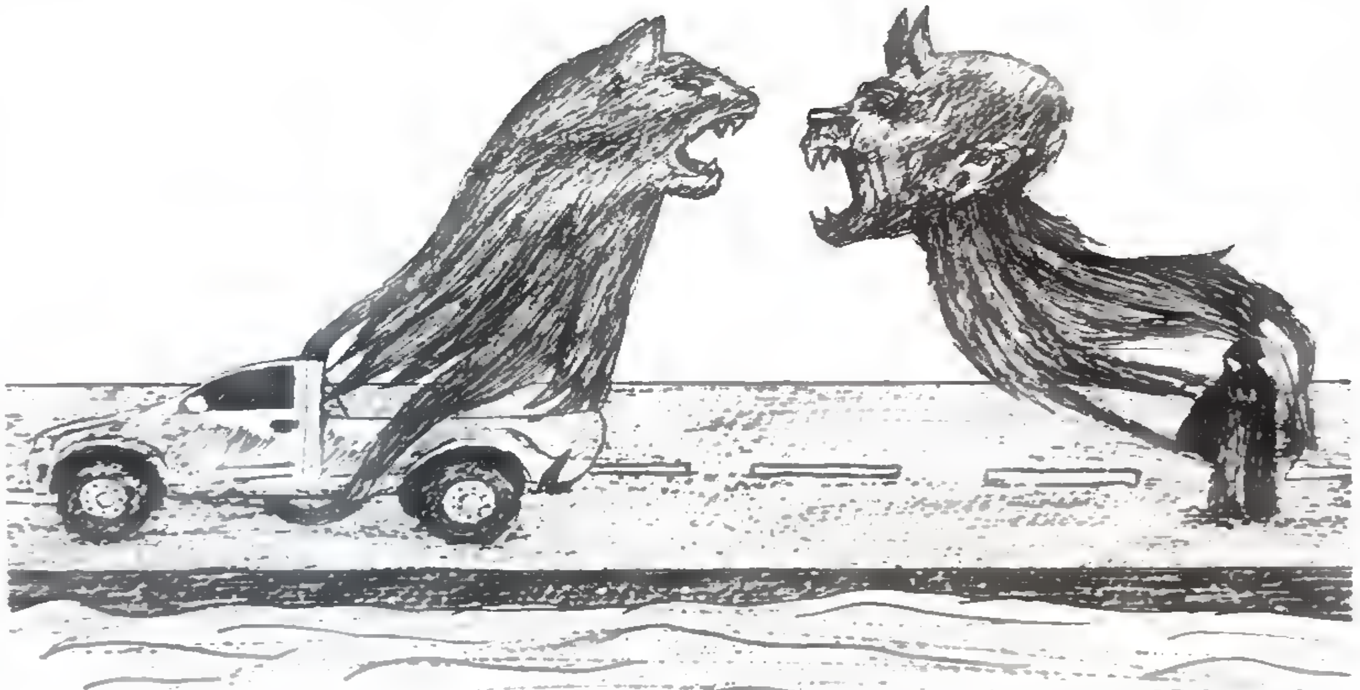

كانت العلبة مهروسة كما لو أن هنالك دبابة فرمتها أسفل عجلاتها، يبدو أن أعصاب الزبون قد تشنجت حين أبصر تلك المخلوقة وراح يعصر العلبة بين أنامله عن دون قصد، لكن هذا غير مهم الآن، علي التخلص منها.

لقد ألقى بها الزبون على الكرسي المجاور له في إهمال حين دلف للسيارة، فكان همه الأول والأخير هو الفرار بسيارته من هنا، فاستغللت فرصة انصراف ذهنه عنها، فهُرعت ملتقطًا إياها بفمي وقذفتها من النافذة بكل ما أوتيت رقبتي من قوة.. ليصمت بعدها كل شيء.

توقفت الأبقار عن الخوار وهووا أجمعون فاقدي الوعي أو جثث نافقة أيهما أقرب، المهم أن سقوطهم رج السيارة بأكملها حتى كدت أن أطير بهواء السيارة نسبة لوزني الخفيف. ثم خمدت صرخة المخلوقة ذات الحلة كما انتهى صراعنا العقلي.

عاودت النظر من النافذة الخلفية صوب الطريق -بعد أن عادت عيني لطبيعتها- لأجد أنه لا أثر لتلك المخلوقة كما أن الشجرة عادت لموضعها الأساسي بجوار الكشك في وداعة كاذبة.

هل انتهى الأمر، أم لازال هنالك المزيد من الحيل؟

***

أمسك العمدة (جابر الشبراوي) بعض حقائب السفر الكبيرة وراح يرمي بها في ثورة جامحة بكل إهمال، هنالك حقائب تلوثت بتراب الأرض وبعض البقع الطينية، وهنالك من كانت غير محكمة الإغلاق لتجهر بما كان برحمها من ملابس غير منظمة توحي بأن من دسها بتلك الحقائق كان في عجلة من أمره، وهنالك حقائب لحقتها أصوات تهشم أو تحطم على أقل تقدير بما يؤكد أن كان بها أشياء قابلة للكسر لم تعد صالحة للاستخدام.

وبالجهة المقابلة له كانت هنالك سيدة في منتصف الأربعينيات تقريبًا، متشحة بالسواد، تصرخ تارة، وتسبه تارة أخرى، وتتوسل إليه بالتعقل تارة ثالثة.

لقد استحوذ الموقف على انتباهي أكثر من اللازم، لدرجة أني تركت الزبون لأطالع هذا المشهد ثم سأعاوده فيما بعد.

كان الرجال ينقسمون لثلاثة مواقف. من يحاول السيطرة على انفعال العمدة بالقبض على يده قبل أن يهوي بكفه على وجه المرأة أو ينزل بلكماته على من يقف في صفها، وقد يترتب على هذا ما لا يحمد عقباه. آخرون يحاولون إرجاعه عن قراره بالهدوء وتحكيم العرف والمنطق بالمشاجرة، ولكن لا حياة لمن ينادي، فإن لم يتحقق مراد العمدة ستراق الدماء

تلك الليلة. وآخر نمط هم من يضربون كفًا على كف في استنكار داعين أن يتم هداية النفوس.

فدنوت من المشهد لأعلم أكثر عن سبب هذا الشجار. يجاور المرأة ثلاث فتيات بعضهم يتشبث بالحقائب في خوف، والبعض الآخر يحاول لملمة ما هوى منها على الأرض والدموع تذرف على وجناتهم.

فصاح (جابر) في حنق:

- لن تشرق الشمس على قاتلة ابني في بيتي أو حتى عزبتي.. ليس لكِ مكانٌ بيننا يا (ورد)، سواء أنت أو بناتك.

صرخت (ورد) وهي تلوح بيديها بأفعال:

- تعقل يا (جابر)، نحن أسرة واحدة، كيف تجرؤ على اتهامي بقتل ولدك؟

حاول (جابر) التقدم صوبها لصفعها أو للقبض على عنقها، لكن خفره منعوه مقيدين حركته، فانفجر قائلًا:

- (كريم) ولدي لم يفارق (سمر) ابنتك من قبل في أي من الأمور المخبولة تلك، فلما إذا لم يأخذها معه حين ذهب للتخييم على الطريق؟ رغم أن لديهما نفس الفكر بأن الطريق محض ممر عادي وما يحوم حولة لا يتعدى حيز المصادفات.

راحت (ورد) تحتضن فتاة ما يبدو أنها ابنتها (سمر) التي ذكرها (جابر)، وشرعت تردد في سخط معادل لغضبه:

- ما الذي تقصده أيها المجنون؟ هل تتهم ابنتي بقتل ابن عمها وشقيقها بالرضاعة عن عمد؟

عافر (جابر) من جديد ليدنو من (سمر) والشرر يتطاير من عينيه:

- ليس هي فحسب، بل إن الأمر من تدبير كليكما. ظلت ابنتك تزرع فكرة تحدي الطريق تلك برأسه، حتى آمن بها ولم يبقَ سوى التنفيذ، هنا انسحبت ابنتك، تاركة (كريم) يواجه مصيره الأسود وحيدًا، والله وحده أعلم بموضع جثته الآن، أم هو حيٌ بمكان ما يتمنى الموت ولا يناله.. كل هذا بالطبع تحت توجيهات الرأس المدبر (ورد الشبراوي).

انتفضت (ورد) من هذا الاتهام الدنيء، وتحولت قسمات وجهها بين ثانية وضحاها من التوسل للهجوم. لقد تحملت الكثير من الإهانات بداية من الصياح بوجهها من قبل (جابر) راميًا كل شيء عن وقارها ومكانتها بين الأهالي عرض الحائط. تحملت أن يقتحم جابر غرفتها وغرف بناتها ليقوم بتعبئة ملابسهم بالحقائب غير مبالٍ بحرمة المنزل ودون أي حياء من العبث بأغراضهم الشخصية. تحملت طرده أبيها من دوار العمودية بتلك الطريقة المهينة كما لو أنه كان يتعطف

عليهم بإوائهم في ظله، ليس أنهم بالأصل أصحاب حق بالدوار- يعادل (جابر) ذاته وربما يزيد عليه.

لكنها لن تتحمل أبدًا أن يمس أحد ابنتها الكبرى بهذا الاتهام البشع، أيًا كان مقامه أو سلطته، ستدافع عن فلذة كبدها مهما كانت العواقب، ولو ترتب على الأمر المبيت بالشارع أو عبور الطريق ذاته سيرًا على الأقدام.. ليحترق العالم أجمع دون أي يمس أحد شرف ابنتها.

كادت أن ترد بكل ما يكبته صدرها من حرقة، لكن (جابر) قاطعها وهو ينتفض مبعدًا كافة الأيادي التي تحاول تهدئته. توقف هذا الأخير يأخذ أنفاسه بصعوبة كرد فعل على الانفعال الذي بذله مقارنة بسنه العجوز.

حاول (جابر) أن يهندم ملابسه كرد ولو جزء بسيط من كرامته، بعد أن شهدت العزبة بأكملها على بعض ملامح الوحش الكاسر المتخفي وراء ستار العمودية.. هنالك من اختلق له العذر بأنه لم يفقد شيئًا هينًا، لقد ضاع من الرجل خليفته المستقبلي بين ليلة وضحاها، وهنالك من اتهمه بالجحود حيث مهما كانت خسارته، فعليه كظم غيظه وعدم رمي أسرته بتلك الطريقة الفجة بالشارع.

فقال (جابر) بصوت أرهقه الصراخ:

- لولا الملامة لألقيت بكِ في الطريق لتذوقي من ذات الكأس الذي أذقتِ منه ولدي.. لكني سأراعي أنكِ أرملة أخي رحمه الله للمرة الأخيرة، وأترككم تقيمون بالعزبة لتلك الليلة فحسب.. ولكن إن أشرقت الشمس ولازلتِ يا (ورد) بالعزبة أو أي من أبنائك، فسآخذ ثأر (كريم) بيدي العاريتين.. سأبعث إليكِ فيما بعد نصيبك من ميراث أخي، أما اليوم فلن تبيتي معي بدوار العمودية ولو انقلبت السماء على الأرض.

انسحب (جابر) من المشهد عائدًا لدواره على ما أظن، ولسانه لا يتوقف عن سب (ورد) بأقذر الألفاظ، متمنيًا لو طردها في اللحظة التالية من تكفين أخيه وإرقاده في مدفنه. بينما (ورد) ظلت تحسبن على ظلمه وابتلائه وهي تحتضن أبنائها.

لقد استمعت لحكاية (جابر) مع الطريق ثم قرأت جواب انتحار ابنه (كريم) مع ذات الطريق دون أن أعلم. إنها بحق سخرية القدر اللاذعة.

سأعود ل(ورد) وبناتها ولكن فيما بعد، فأنا لم أنتهِ بعد من الزبون. بين يدي ولأول مرة أحد الناجين من بطش الطريق بصفة حصرية، سليمًا وبكافة قواه العقلية على نقيض (وجدي) –حتى الآن على الأقل- وعليّ أن أمكث معه أطول فترة ممكنة حتى أتعرف أكثر على قدرات كيان الطريق

ومدى تأثيرها.

تتبعت رائحة الأبقار التي حفظتها عن ظهر قلب بسبب مكوثي المطول بالعربة، حتى بلغت حظيرة ما! يقوم أحدهم بالكشف على الأبقار والتأكد من صحتها، ويقف بجواره الزبون وهو يكتم أنفه بمنديل ورقي ملطخ بالدماء.

لقد كانت المعركة الذهنية، أقوى من أن يتحملها جسده الضعيف، فشرعت الدماء تتساقط من أنفه كالشلالات، كالأبقار التي فقدت الوعي. وحتى أنا لم أسلم من هذه المواجهة، فقد أصاب عيني اليسرى بعض التنميل لكنه لم يدُم لأكثر من دقيقة.

كان الحوار بين الرجلين عاديًا، بخصوص الأبقار التي راحت ضحايا للمعركة وماتت بالفعل، بأن الرجل -الذي اتضح أنه جزار العزبة- لن يستطيع دفع المبلغ المتفق عليه بأكمله، فهو غير واثق من طريقة موتها، فمن الممكن أنها تعرضت للتسمم الذي قد يسبب أمراضًا متنوعة للزبائن.. فيما يبدو أن الزبون -الذي اتضح أن اسمه (فوزي)- لم يخبر الجزار عن سبب مقتل تلك الأبقار وإلا رفض استلامها جميعًا من الأساس متقيًا شر كيان الطريق.

فرحت يا (فوزي) تسأل في توتر إن كان الجزار يعلم شيئًا عن الكشك المتربع في منتصف الطريق، ليجيبك الرجل

ببساطة كما لو أن الأمرَ بديهيّ:

إنه محل المعلم (مؤمن الشبراوي) رحمه الله.. هو مغلق منذ أن قُتل به.

ناهيك عن صدمة أن الكشك كان مغلقًا على الرغم من أن (فوزي) دخله وابتاع منه السجائر، فأنا على دراية بهذا الأمر من البداية. فها هو اسم (مؤمن) يُذكر من جديد، مع معرفة معلومة عن قتله بالكشك هذه المرة، وأنه من عائلة (الشبراوي) هو الآخر! أي أنه يقرب بطريقة ما ل(جابر) و(ورد) التي رأيتها منذ دقائق.

ثم أكمل الجزار متطوعًا:

على الرغم من أن زوجة المعلم (مؤمن) أتمت أعماله من بعده في إدارة المحلات والأعمال التجارية، لكنها لم تفتح هذا المحل مرة أخرى، ولها الحق في هذا بسبب دماء زوجها الملوثة أرضه، هذا بخلاف بطش الطريق ذاته كما تعلم.. والعجيب كذلك أنها لم تفكر في هدمه، بل اكتفت بنقل البضائع منه وتركه هكذا كقطعة خشب بالية فوق رمال الطريق.

ثم قال الجزار كما لو أنه تذكر شيئًا وهو ينظر لساعة يده:

على ذكر الطريق، كيف نجوت منه في هذه الساعة

المتأخرة من الليل؟ لا بد أنه اكتفى بملاعبتك فحسب دون أن يمسّك بسوء.. يمكنك اعتبار نفسك محظوظًا لأنك نجوت من براثنه.

هنا ابتسمتُ بسخرية رغمًا عني على كلمات هذا الرجل، فأنت محظوظ يا (فوزي) أكثر مما تتوقع، لأنك تلقيت المساعدة في التصدي لهجمة الطريق التي كانت ستحيلك لجثة مشوية في أهون الحالات، على خلاف كل من عاصر رهبته وحيدًا دون شريك. ولم تحظَ بأي عون يا (فوزي)، فإنقاذي لحياتك البائسة يعتبر أكثر شيء غير منطقي أقوم به طوال حياتي، بل حدث سيسجل في التاريخ من فرط ندرته

ظللت يا (فوزي) تتلعثم بالكلمات خائفًا من أن يدرك الجزار ما مررت به، فيعيدك لبيتك خائب الرجاء بالأبقار دون بيعها.. قد يتوقف على الأمر خسارة عملك أو شيء من هذا القبيل.

وفر الجزار عليك ذلك الإحراج قائلًا:

لا تتعجل، فأمامنا كل الوقت بالبيت لتقصّ عليّ ما رأيته.

ظننت يا (فوزي) أنها إحدى تلك العزومات الكلامية التي لا يقصد تنفيذها بالفعل بأرض الواقع، فرحت تشكره بأدب على أخلاقه الودودة لكن الرجل فاجأك بأن تلك ليست مجاملة، بل

هو إلزام.. انصياعا لعرف عزبتهم الحديث.

لم تسمع من قبل يا (فوزي) عن تقليد يخترعه الناس بين يوم وليلة، لكن الجزار أجابه بأن ظروف الطريق هي من أجبرتهم على اختلاق الكثير من القوانين، على غرار:

١- منعًا باتًا على أهل العزبة مغادرتها بعد الغروب أو قبل الشروق.

٢- أي زائر يحضر للعزبة عليه المغادرة قبل الغروب، وإن لم يفعل يظل في استضافة أحد بيوت العزبة حتى شروق شمس اليوم التالي.

٣- عدم مس شجرة التفاح أو الكشك المتربعان بوسط الطريق بأي سوء.. أو إحضار أي أثر كثمرة تفاح أو إحدى أثاث الكشك، أو حتى ورقة صغيرة من شجرة التفاح لداخل العزبة، اتقاءً لشرهم.

أنت يا (فوزي) بالتأكيد لن تخاطر بالعودة للطريق بعد ما مررت به اليوم، لكنك في ذات الوقت لا تتحمل المكوث في بقعة الجحيم تلك أكثر من هذا. بالطبع سألت عن أي وسيلة أخرى للخروج ليجيبك الجزار أنهم جزيرة يحيطها الماء من كل حدب وصوب، ولا وصال بينهم والعالم الخارجي سوى الطريق إياه.

هنالك اقتراح القوارب يا (فوزي) لكنك لن تترك سيارتك هنا وتعاود لأخذها باليوم التالي أو حتى تبعث أحدًا لاستلامها، فأنت ستغادر عزبة شجرة التفاح للأبد دون رجعة، بجانب ما الذي يضمن أن بهذه الطريقة لن يطولك بطش كيان الطريق؟

ما كان عليهم إرسالك بهذا الوقت المتأخر من الليل.. أنا أتعامل مع رب عملك منذ فترة لا بأس بها، وهو يعلم كل شيء عن الطريق وسمعته التي تسبقه، يبدو أنك حديث العهد بالعمل أو اعتبروك عالم للأمر منذ البداية، فغفلوا عن تنبيهك.. أخبرني بالأصح، هل أنت متزوج؟ لدي لك....

قال الجزار الكثير من الكلمات لكنك يا (فوزي) كنت غائبًا بوعيك في ملكوتك الخاص تفكر في شيء ما، ربما هو ذاته السؤال الذي يتردد بعقلي. هل من الممكن أن يكون الرجل الذي ظل يعبث بأدراج البقالة هو ذاته المعلم (مؤمن)؟ لقد رأيته من قبل أثناء ممارستي ل طقوس (النيكرومانسر) على (وجدي المجذوب) ولم يحمل ذات الملامح، لكن عقل (وجدي) مختل وليس مقياسًا، فربما تلاعب رأسه بالوجوه وربما الأحداث ذاتها مفتعلة وليست حقيقية.

مددت قبضتك يا (فوزي) في جيب بنطالك مخرجًا شيء ما! نعم الآن تذكرت، إنها قطع العلكة التي أخذتها عنوة رغمًا

عن مالك البقالة المنشغل عنك.

لم تتحمل النظر لها لأكثر من ثانيتين ثم ألقيت بهم بعيدًا بعزم قوتك ورحت تتبع الجزار لداره ملتزمًا صمتًا جنائزيًا، فدنوت منها أنا لأتفحصها على الأرض. لم أجد أكياس بلاستيكية أو ورقية تحيط بقطع علكة مستطيلة الشكل، بل عثرت على أسنان آدمية تلطخها الدماء.

لم تكن كذلك أي أسنان عادية، بل كانت جميعها دروسًا تحمل ذات التجويف وعين النتوء الداخلي، ناهيك عن أنها متماثلة في الارتفاع والعرض، ليعطيني انطباعا أن تلك ليست أسنانًا مختلفة لشخص واحد أو أُناس عدة، بل هو نفس السن لكن تم استنساخه بطريقة ما.. بطريقة شيطانية ما!

***

التفاحة العشرون

عزبة شجرة التفاح

عام ٢٠٢٢

فجر اليوم الرابع

بمجرد أن أشرقت شمس صباح اليوم تالي، خرجت يا (فوزي) من دار الجزار البسيط بعد أن كان الأرق رفيقك لتلك الليلة الطويلة. لقد أكرمك هو وزوجته وابنته البدينة وأحسنوا ضيافتك رغم تصرفات الفتاة العجيبة في التودد إليك بطريقة تثير الاشمئزاز، لكن هاجس الليلة الماضية لم ينحل من على قلبك بعد. ربما جال بخاطرك أن أحد زملائك بالعمل قرر التخلص منك لسبب تجهله بإرسالك إلى تلك العزبة بلا تحذير من هول طريقها. هل يطمع أحدهم في ترقية عوضًا عنك؟ هل لزوجتك عشيق قررا التخلص منك ليمارسا الخيانة على أريحية أكثر؟ هل سترث من عم ثري ظهر لك من العدم وقررت ابنته أن تخفيك من الصورة حتى لا تتقاسم معها قرشًا واحدًا؟ الرعب لا يكمن في الموت، بل في العلم بأن هنالك من يخطط لقتلك.

ولكن لتذهب كافة مشاعرك تلك للجحيم فأنا لا أبالي بأمرك من الأساس يا (فوزي). بالطبع أنا لم أمكث طوال الليل على

نافذة غرفتك لحمايتك من أي هجوم غدار، لقد احتجت لعونك من قبل للخروج من الطريق وقد تم الأمر. أما غير هذا فأنت كغيرك من العامة، لن أتردد لحظة في أحالتك لجثة نافقة إن اشتهيت.

ما أردته هو معرفة مدى قوة كيان الطريق، إن كان سيتبعك لداخل العزبة أم أن إطار قوته مقتصر على أماكن معينة. وبالفعل مر اليوم بسلام دون غارات لاسترداد حقه.

انطلقت يا (فوزي) صوب سيارتك دون حتى أن تشكر الجزار على استضافته، رحلت في هدوء وعجلة. فتشبثت أنا بالعربة الخلفية حيث كانت جثث الأبقار الميتة، وانطلقت السيارة صوب الطريق من جديد لكن بالجهة المعاكسة هذه المرة.

تقبض على عجلة القيادة بيمناك، أما يسراك فهي تجفف أنفك من الدماء التي لازالت تسيل منه حتى الآن! عرض عليك الجزار أن يحضر لك طبيب العزبة لمعاينة حالتك، لكنك رفضت يا (فوزي) كما لو أنه ترسخ بعقلك فكرة أن تلك العزبة ملعونة بكل ما فيها، ليس طريقها فحسب بل أهلها ذاتهم هم شياطين متنكرة مهما أظهروا من ود واحترام. فآثرت أن تقلل اختلاطك بهم بقدر المستطاع، فحتى العشاء الذي قدمه لك الجزار ليلة الأمس، لم تمس الأطباق بأناملك

ولا حتى زجاجات المياه. هذا بالطبع بعد أن سردت لهم قصة خيالية تفسر بها تحطيم كافة أنواع زجاج السيارة.. تحاملت على نفسك الجوع والظمأ والألم تلك الليلة، ومن قبلهم الخوف بالطبع، على أمل أن تفر بحياتك اليوم التالي ويعود كل شيء لوضعه المسالم.

كانت العربة تقطع الطريق بكل يسر دون أثر لهالة المخلوقة السوداء التي كنت أحاربها ليلة أمس، فرأيت أنه ما من سبب لاستكمال الرحلة معه، لقد تركه كيان الطريق يرحل في سلام، ربما سيحاول استدراجه للعزبة كما فعل مع السائق (غريب) من قبل، أو ينسى أمره.

توقفت يا (فوزي) بعربتك أمام الكشك كما لو أنك تلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة! ربما تمنيت إشعال هذا الكشك بالبنزين أو صدمه بسيارتك. المهم أنني استغللت وقوفك هذا للنزول من العربة، وبمجرد أن مست أقدامي الأربعة الأرض، لمحت شيئًا داخل الكشك.. لقد كانت تفاحة حمراء مستقرة على أحد أرفف الكشك حيث كنت نائمًا بالمرة الأولى قبل أن أستيقظ لأجد أن مكاني قد تغير!

إنها رسالة تحذيرية دون شك، لكن السؤال هنا، أهي موجهة لي أم لك يا (فوزي)؟ ضغطت على دواسة الوقود بجنون لترحل عن هذا الكابوس، لكنك أبدًا لن تنجو يا

(فوزي). لقد دخنت إحدى سجائر الكشك، هذا يعني أن جزءًا من كيان الطريق لازال عالقًا بك، ومهما ابتعدت عن العزبة سيجدك بنهاية المطاف، فربما ذلك النزيف هو إحدى الديباجات السابقة لقتلك.

لقد اختفت التفاحة بالطبع، لكنني لا أهتم.. ما يهمني الآن هو معرفة موضع دفن (مؤمن) هذا، فأنا واثق أن لديه أصل الحكاية التي ستكشف لي أصل كيان الطريق

فاستدرت عائدًا للعزبة، وقد عقدت عزمي على أن تكون تلك ليلتي الأخيرة بها.

***

الكل يعلم عن أصل (مؤمن) إلا أنا.. فأنا واثق لو استجوبت ذكريات أي من أهالي العزبة، سأعثر على ضالتي في محض ثوانٍ، لكن ليس لدي متسع من الوقت لقتل أي منهم، كما أن التفتيش بالذكريات يحتاج للوقت فهو ليس بذلك اليسر، عملية الاستجواب لا تأخذ أكثر من دقيقة لكنها في ذات الأوان تستغرق الكثير حتى أجد مرادي. لقد قضيت في تلك العزبة العديد من الأيام وتلك سابقة لم أفعلها منذ سنوات، فأقصى وقت قضيته بمنطقة ما لم يتعدَ الخمس ساعات. وكلما مكثت بالعزبة أكثر كلما وهن إخفاء أثري، وأصبح موضعي مكشوفًا لأعدائي.. لهذا عليّ الإسراع في معرفة

الحقيقة دون إهدار دقيقة واحدة.

توجهت صوب قرافة العزبة على أمل أن يكون مدفونًا بمقابر عائلة (الشبراوي) تلك، وجثمانه ليس مفقودًا كـ(كريم) ابن (جابر الشبراوي)، أو مبتور الرأس كـ (حسن العفي). لكنني استبشرت أنني أسير صوب الاتجاه الصحيح حين رأيت تزايد في أعداد الهامات، مثلما تجمعت حول (جابر) عندما سرد كيفية نجاته بأعجوبة من الطريق.

في البدء ظلوا يتحركون بعشوائية كما هو المعهود عنهم، يبصرهم كلب مشرد فيزمجر في توجس مدعيا القوة، يراهم قط آخر مثلي فيثب في الهواء أمتارًا ليفر بحياته، يراهم طائرًا فيخر صريعًا من فرط الخوف.. تارة يظهرون لبعض الحيوانات وتارة أخرى يمرون أمام أعينهم أو يخترقوا أجسامهم مرور الكرام.. حتى أبصرت احتشادا منهم بأحد الأضرحة، فدلفت إليه دون الاطلاع على الشواهد، لأني حين وجدت السيدة (ورد) وبناتها، تيقنت أنني بالمكان الصحيح.

لقد رأيت بالأمس الكثير من سيدات العزبة يعرضن عليها أن تقيم معهم الليلة في بيوتهن المتواضعة حتى الصباح حين يصبح الطريق آمنًا، وهنالك من عرضن أن يستضيفها للأبد دون أن تفارقهن، كناية عن الحب والتقدير الذي يكنه الأهالي للسيدة (ورد). اعتقدت أنها ستستجيب لإحدى تلك

الدعوات، لكن يبدو أن كرامتها أبت أن تُهان أكثر من هذا وعزمت على الحفاظ على ما تبقى منها حتى لو ستقضي سواد الليل بين كنف المقابر المقبضة.

وكما يظهر من افتراش الملاءات للأرض، ومخلفات الطعام المتراكمة بإحدى زوايا الضريح، أنهم بالفعل استوطنوا تلك البقعة، عسى أن يضحى الأموات أحن عليهم من الأحياء.

لعل (ورد) قضت ساعات الليل تستنجد زوجها الراحل، مشهِدةً إياه على البلاء والكسرة التي حلت بهم من بعده. وظلت (سمر) تبكي حتى جفت مقلتاها من الدموع، كوسيلتها الوحيدة على الاحتجاج على هذا العار الذي سيلازمها لآخر العمر، بأنها قاتلة، أزهقت روح ابن عمها بدم بارد، فلو كان اتهمها بشرفها أهون بالنسبة لها من نعتها بالقاتلة عديمة الرحمة. أما إخوتها، فأعتقد أن ما استحوذ عليهم هو الخوف من تحول حياتهم بتلك الطريقة الفجة بين يوم وليلة، فبالأمس فحسب كانوا من أسرة العمدة، يلقون الأمر ولا يُرد إلا بالطاعة، أما اليوم هم مشردّون، يخشون مواجهة الناس، يدعون أن يكون المستقبل المجهول أقل وطأة عليهم.

الآن أنا في حاجة للنزول لتلك المقبرة، فكيف إذا أفعل هذا وكل هؤلاء القوم حولي؟ هل أقتلهم جميعًا؟ هذا

سيلفت الكثير من الأنظار صوبي، ولا أستبعد أن يهبط عليّ جيشٌ من أعدائي بعد أن فضحت اختفائي. هل أنبش القبر وأقتحمه غير مبالٍ بهم؟ ليعلموا أنني لست بقطٍ عاديّ وينهالون على رأسي بأي غرض يصلح للاستخدام كسلاح، معتقدين أنهم بهذه الطريقة يقتلون عفريتًا ما أو مخلوقا شيطانيا يجهلونه. ما العمل إذا يا ترى؟

ظللت أعبث بالأرجاء متظاهرًا أنني قط وديع، ضل طريقه عن أسرته لينتهي به المطاف خائفًا مشردًا بين القبور. مما سمح لي بالتعمق بقسمات الموجودين.

كانت ل(ورد) ثلاث فتيات. كبيرتهم (سمر) بالطبع، التي لم أرَ بأي من يديها أثرًا لدبلة زفاف، يبدو أن قطار الزواج قد فاتها كما يقول أهل تلك المناطق. الثانية (فرح) طالبة جامعية بكلية ما لم أهتم بكنهها، على ما أعتقد أنها قريبة من عمر (كريم) ابن عمها الذي قضى عليه الطريق، يبدو في عينيها حزنٌ صريح ينعكس على ملابسها المتشحة بالسواد على خلاف أختيها، يبدو أنها في حداد على أحدهم دون الرغبة في نزع الأسود قط، ناهيك أنني أتذكر هذه الفتاة فقد قابلتها من قبل، ليس حين كانت تتشاجر أمها مع (جابر) بل هي الطالبة الإقليمية التي قابلتها بالميكروباص الذي أوصلني للعزبة، والتي كانت يطاردها (وجدي المجذوب) في

مشهد هزلي. والأخيرة كانت (نور)، لست بارعًا في تقييم أعمال البشر، لكنني أظن أنه ينقصها عام أو اثنين حتى تتم دراستها المدرسية وتلتحق بالجامعة كشقيقتها (فرح)، لا أعلم لما كانت تنظر إليّ من الحين للآخر كأنها تراقب آخر تحركاتي، لكني تعودت تلك النظرات، لعلها تخاف القطط وتخشى اقترابي منها، حتى لا تفر راكضة من المكان، أو تحبها بشكل مفرط وستهب بعد دقائق، مربِتةً على ظهري أو لتجفف دموعها في فرائي.

منهم من ألقى إلى ببواقي الطعام، تحسرًا على ذات المصير الذي أضحى يشاركون به قط شوارع. ومنهم من قدم لي رشفات مياه متمنين أن يعطف عليهم الغد كما يفعلوا معي الآن.. لم أنتوِ أن أستجيب لعروضهم بالطعام والشراب، فأنا لا أضمن ألا يدس أعدائي شيئًا بأي منها، قد يضعف من قواي أو يشلني عن الحركة أو أي تأثير خبيث آخر.. لكن القط بداخلي أبى أن يستجيب لحرصي.

لقد مرت عدة أيام دون أي مصدر للغذاء يدلف لجوفي، لدرجة أن النعاس قد تملك مني بكشك الطريق. كما أن عليّ مجاراتهم في التصرف كقط عادي، حتى لا أثير شكهم. والقطط الطبيعية تلتهم أي شيء يُقدم إليها، حتى لو كان أحشاء قطٍ آخر.

وبدون مقدمات، اقتحمت الضريح امرأة متجهمة الوجه، غير مهندمة الشعر، ذات عينين حمراوين من فرط البكاء أو السهر أو كليهما، يحتشد السواد أسفل عينيها بخلاف جفنيها السفليين المنتفخين كالوسائد. مهلًا لحظة لقد رأيت تلك المرأة من قبل.. إنها زوجة الإسكافي؟

كل إنش بهيئتها المبعثرة ينم عن أن تلك المرأة فقدت عقلها، أو هي غاضبة حد تمزيق الأحشاء واقتلاع الرؤوس بأظافرها لو لزم الأمر لتبريد نار ثورتها. وبكلتا الحالتين هي تمثل خطرًا على أي شخص، حتى نفسها.

ظلت تمسح المكان بنظراتها المخيفة، باحثة عن شيء أو شخص ما. حتى وجدت ضالتها أخيرًا والتي كانت (سمر). انقضت عليها كأن حياتها تعتمد على الأمر، تصفعها بغل كما لو أنها لا تريد شيئا آخر بهذه الحياة، تركلها وهي تعلم أن بفعلتها تلك لن يُشفي غليلها لكنها لن تتوقف على أي حال، تبصق عليها ساعية لإيذائها بأي شكل حتى لو نفسيًا بعدما تحطمت روحها للأبد.

سارعت الأختان والأم لنجدة (سمر)، حيث تجهمت هذه الأخيرة، تتلقى الضربات دون محاولة للهروب أو ردها. هل كان هذا كناية عن شعورها بذنب ما ورأت أن تلك عدالة السماء التي تستحقها؟ أم أنها الصدمة التي شلتها عن

الحركة؟ فمهما بلغ خيالها من خصوبة، لن تتصور أن يأتي أحدهم للثأر منها على جريمتها النكراء.

حاولت الأختان أن يكبلوا جسد زوجة الإسكافي وبالأخص يديها قدر المستطاع، خشية أن تخرج سلاحًا ناريا أو أبيض من إحدى كنفات خلجاتها. فظلت المرأة تنتفض وهي تصرخ:

- اللعنة على قاهرة الموت تلك وكل نسلها، لقد قتلت هذه الفاجرة شقيقاي وأمي بليلة واحدة وأنتم تتسترون عليها؟

(قاهرة الموت) من جديد! ما بال أهل تلك العزبة بهذا الاسم، لقد نعتني به (وجدي) بالبداية لكنني اكتشفت أنها مجرد كلمة عشوائية لفظ بها لسانه دون أن يقصدني بشخصي. وها هي تنطق بشكل عابر للمرة الثانية، لا بد أن وراء تلك الكلمة سرٌ ما!

فقالت إحدى الأختين وهما يحاولان التقهقر لإخراج زوجة الإسكافي من ضريح المقبرة:

- أجننتِ يا (إخلاص)؟ من قتل أسرتك هو الطريق كما فعل مع غيرهم، ما دخل أختنا إذًا بالأمر؟

- كما قال العمدة، أنت من حرضتي ابنه على تحدي الطريق وجر شقيقاي معه، لو لم تفعل هذا، لكنت الآن أحتفل بمولودي الأول مع جدته وخاله وخالته.. لقد سلبث مني تلك

الوضيعة كل شيء بيوم واحد.

هنا صاحت السيدة (ورد) منفجرة بعدما لاحظت عجز ابنتها عن الرد:

- تأدبي يا (إخلاص)، نحن هنا بحرمة الأموات.. وما تفعلينه ليس إهانة لنا فحسب، بل إهانة لكل عائلة الشبراوي أمواتها قبل أحيائها.

لقد صدقت (إخلاص) ادعاءات (جابر)، ولكن من يلومها؟ فحتى الآن لم تبادر أي من النساء الثلاثة برد الضرب أو السب ل(إخلاص) بل اكتفوا بتقييد حركتها حتى لا تؤذيهم أكثر من هذا، فهم يعلمون أنها بوضع لا تُحسد عليه، وإن كانت أي منهنّ بنفس موضعها لفعلت مثلها وربما أكثر. حتى (إخلاص) ذاتها تعلم أن (سمر) بريئة، لكنها تحتاج لأي شماعة تعلق عليها الذنب، أي كبش فداء تلقي عليه اللوم لتفرغ حزنها حتى لا تموت به.

ظهرت بعض النسوة من الخلف لتتولى تقييد (إخلاص) عوضًا عن الأختين، وبصحبتهم بعض الرجال من بينهم إسكافي العزبة الذي رأيته أثناء حادث شنق العجوز، يبدو أن هؤلاء عائلته هو.

أخذ الرجل يسب (إخلاص) ويعنفها بأقذر الألفاظ بسبب

تعديها على أسيادهم الذين دومًا ما حيوا من خيرهم ومن عائلة (الشبراوي) أجمع، وحين اتهمها بالجنون، راحت تجادله مغمغمةً:

- إنهم محض قتلة لا أمان لهم، في البدء قتلوا المعلم (مؤمن) والآن (كريم) ابن العمدة، والله اعلم كم قتيل سقط من عائلتهم غير هذين، أو كان لهم يدٌ في موته.

لقد كظم الإسكافي غيظه بما فيه الكفاية، فرفع كفه حتى ينهال على وجه (إخلاص) مخرسًا إياها، لكن السيدة (ورد) أمسكت بكفه مانعة إياه باللحظة الأخيرة، فقال في أدب وهو يوجه نظرات مستنكرة صوب زوجته:

- دعيني يا ست (ورد) أؤدب تلك الرعناء.. لقد تملك منها الجنون وأصبحت تخرف كـ(وجدي) رحمه الله.

فقالت (ورد) في ثبات:

- إياك وأن تضرب زوجتك، إنها مرهقة فحسب ولا يتحكم عقلها بما يخرجه لسانها من اتهامات.. خذها لبيتك وارحلوا، لأنه يجب علينا أن نغادر نحن أيضًا.

فقال الإسكافي في لهفة بعدما أخذت النسوة (إخلاص) التي لازالت تنتفض محاولة الإفلات لاستكمال ما بدأته على جسد (سمر):

- إلى أين ستذهبين يا ست (ورد).. إن لم تقيمي بدوار العمدة، فالعزبة بأكملها بيتك قبل أن تكون بيوتنا.

تسندت (ورد) على إحدى بناتها، بينما راحت الأخرى تسند (سمر) التي تحملت فوق طاقتها ولم تعد ساقاها قادرتان على حملها.. ربتت ورد على كتف الإسكافي مغمغمةً:

- لا يوجد بيت يهين سكانه يا بني، وقد تمت إهدار كرامتنا كثيرًا، ليس من قبل (جابر) وزوجتك فحسب، بل الزمن ذاته أحنى ظهورنا.. أنت مازلت نقيًا، لا تجعل الزمن يفسد (إخلاص) كما فعل مع العمدة.

راحوا جميعًا يغادرون الضريح، مغلقين إياه بالقفل الثقيل، وبالأفق يتعالى دوي صراخ (إخلاص) وهي تنعت الجميع بالقتلة. حقًا أتساءل عن رد فعلها إن علمت أنني شهدت على شنق والدتها دون أن أحرك ساكنًا رغم استنجادها بي؟ إن توقع ردة فعل البشر بتلك المواقف لن يوازي أبدًا ردة الفعل ذاتها، فهم دائمًا ما يفاجئونني.. الأمر مثير ويستحق التجربة عن جدارة، لكن بعد أن أكشف سرك أولًا يا (مؤمن).

***

لم يكن اقتحام القبر بالهين على الإطلاق، لقد شعرت ذاتي بالإرهاق فما بالك بالقطط أو البشر الطبيعيون! في

البدء رحت أحفر بالأسمنت والجير الرابط بين البلاطات المستطيلة بأظفاري التي تهشمت من فرط حكها بتلك المادة الصلبة البغيضة، حتى تلخلخت البلاطة في موضعها كمكعب الثلج بالكوب، الخطوة التالية كانت الأبسط وهي رفع البلاطة ذاتها من موضعها دون أي معرقلات تتشبث بها. في الظروف العادية تحتاج تلك البلاطة لرجلين وربما ثلاثة لرفعها عن موضعها، ولكن للمرة الكم يجب عليّ ذكر أنني لست قطًا عاديا؟ تبقت طبقة رقيقة من التراب الجاف، رحت أنبش بها حتى ظهر تجويف فارغ مبشر ببلوغي أرض التربة المعتمة.

حرصت أن أصنع تجويفًا ضيقًا يكفي لمرور جسدي المرن منه، مع إعادة البلاطة العملاقة في إثري لموضعها، فآخر ما أتمناه الآن هو أن أتعرض للإزعاج من أي نوع، كأن يتجمع أهل العزبة بأكملها لمعرفة من هذا الزنديق الذي تجرأ على تدنيس المقابر، فالموتى بالذات في معتقدات البشر، لها محرماتها المقدسة التي ينسون كل خلافاتهم بالحياة ليتفقوا على إكرام موتاهم.

ربما لو كنت بشريًا لزعمت أن المقابر مقبضة للقلوب ومجمدة للدماء بالعروق وكافة هذا الهراء، لكني أجدها مكاناً طبيعيًا لا يختلف عن سائر بقاع الأرض في شيء. كان

المكان مقسمًا لغرفتين وبهو صغير يفصل بينهما، حسبما سمعت عن أعراف البشر فالغرفة التي على اليمين بها جثث الرجال والتي على اليسار هي غرف النساء.

خطوت صوب اليمين وأنا أفكر في الطريقة التي سأتعرف بها على جثمان (مؤمن)، لا أعتقد أن هنالك شاهد للتعريف بأصل كل جثة عن غيرها، كما أن حادث وفاته مر عليه الكثير من الوقت مما يؤكد أن جثته استحالت لمحض عظام متآكلة يغطيها طبقة رقيقة من قماش الكفن المتحلل.. بالتأكيد الجميع يعلم عبارة (لقد ابتلع القط لسانه) هذا ما حدث لي بالضبط حين انتبهت لما يقبع داخل الغرفة اليمنى، راميًا بكافة أفكاري عرض التربة.

كانت جثث بالطبع، لا يمكنني نكران هذا أو ادعاء أنهم كانوا أحياءً، ما المشكلة إذا؟ المشكلة أنها مرتي الأولى التي أرى بها جثث واقفة على قدميها! كانت الأكفان ناصعة البياض كما لو أنه لم يمر عليها بهذه التربة يومٌ أو يومان على الأكثر، وبالمثل كانت الجثث، رغم أنها محجوبة خلف الأكفان ولا يظهر منها شيءٌ، إلا أن أجسادها الممتلئة التي لم يمسها التحلل الذي ينزل من وزنها، يومًا كانت جاهرة للعيان.

لم تكن الجثث مستندة حتى على حوائط المدفن، بل كانت منتصبة في فراغ الغرفة بشكل عشوائي، كما لو أنها

دمى ماريونت معلقة من السقف بخيط رفيع، أو أنها تماثيل متمسكة بتوازنها.

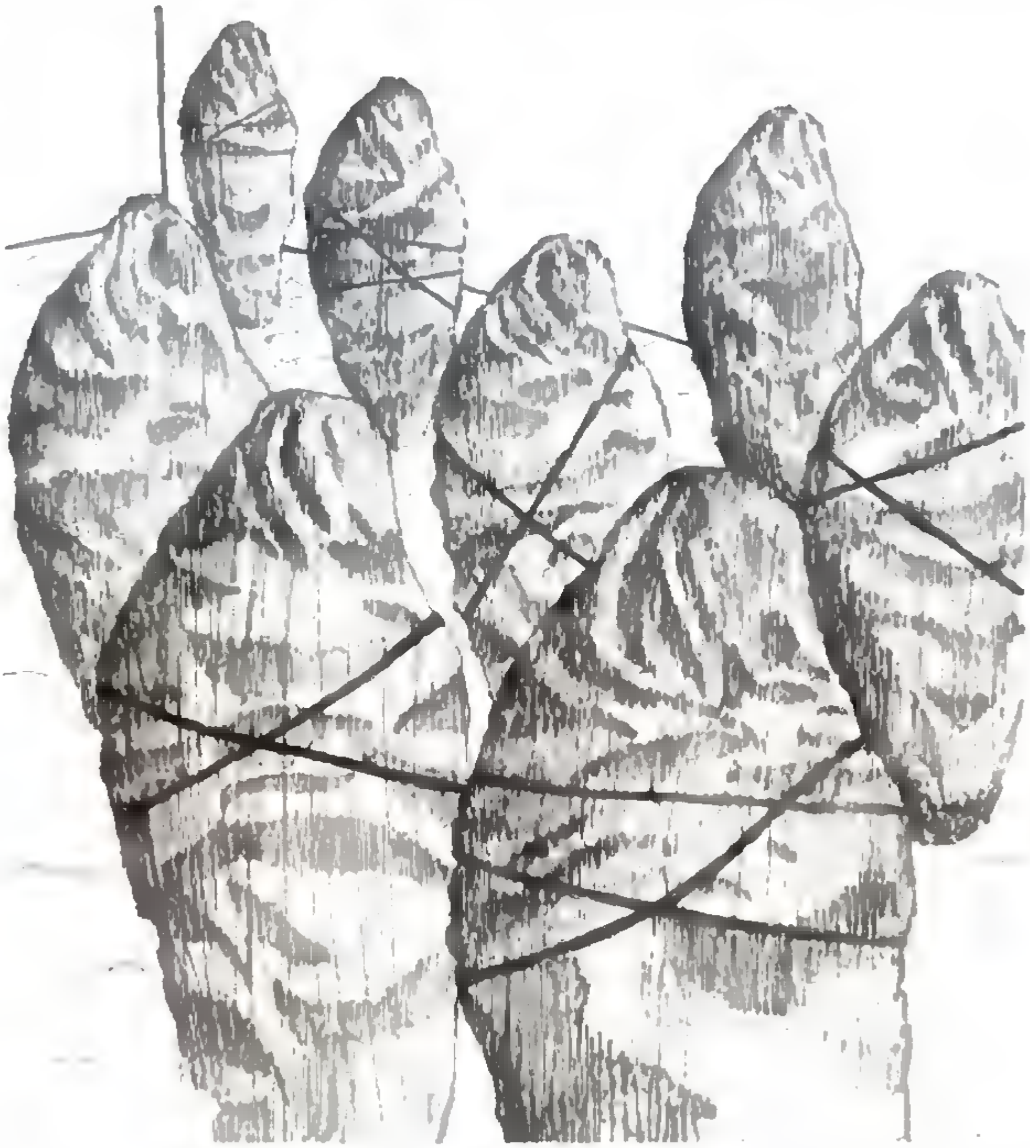

بالطبع لم أخشَ دلوف الغرفة، لكني فضلت تفقد الثانية أولًا، فهرعت صوبها سريعًا لتتأكد كافة ظنوني بعدما رأيت فحواها.

هذه المرة كانت الجثث ملتحمة جدران التربة ذاتها، وهذا ليس تعبيرًا مجازيًا، كما لو إن أحدهم أستخدم الجثث في

مليء سمك الجدران بدلًا من الطوب، ثم حاولت تلك الجثث التحرر من قيدها لكن يبدو إن الأوان قد فات بالفعل. فكانت هنالك ساق بارزة من الجدار كما لو إنها تحاول الفرار منه تارة، وذراع يدفع الجدار للداخل لينفذ بجسده الحبيس منه تارة أخرى، والكثير من الوجوه الأنثوية المستنجدة البارزة من كافة الحوائط.. إن هذا الوضع أبشع آلاف المرات من عذاب القبر ذاته إن لم يكن هو بالفعل

إن كيان الطريق أو (مؤمن) أو ربما كليهما يتلاعب بي، سيدفع هؤلاء الحمقى ثمن هذا كثيرًا، لكني جئت لهذا المكان لهدف واحد، وأنا لن أتراجع حتى أتمه

ثم أبصرت تلك الجثة!

لما تلك الجثة مميزة عن مختلف الأجساد التي رأيتها في الغرفتين؟ ليس لأنها راقدة على جانبها في وداعة على خلاف باقي الأوضاع الشيطانية التي أبصرتها منذ لحظات، وليس لإنها مستلقية على أرض البهو الفاصل بين الغرفتين، ليس أي من الغرفتين. بل لأنها نبتت من العدم

لن أرمي الأمر على سواد التربة المعتم، فأنا أبصر بالظلام أفضل من وجود النور ذاته، وقد مررت على هذا البهو عدة مرات دون أثر لحشرة صغيرة حتى، فما بالك إذا بجثة جسد بالغ كتلك

كالغرفة الأولى كان الكفن نضرًا والجثة ممتلئة الجسد بنحو غير طبيعي، ولكن هل هنالك شيء طبيعي واحد صادفني منذ بلوغ تلك المقبرة؟

إنه (مؤمن) أنا واثق من هذا، فكما وجدت رأس (حسن العفي) من العدم، كذلك صادفني جسد (مؤمن) كما لو إنه يتوسلني لمعرفة ذكرياته، أو لأفطن الحقيقة أخيرًا. سأقوم بما تتمناه يا (مؤمن) فتلك هي اللحظة المنتظرة

فتحت فمي لتسطيل أنيابي ويتشنج ذيلي، ثم هويت بفمي قابضًا على رأس الجثة ممزقًا الكفن. هذا المشهد بات مملًا، لندلف للنيكرومانسر مباشرة، فلدي موعد مع كيان الطريق لحسم نزاعنا الأخير.

التفاحة الواحدة والعشرون

عام ٢٠٢١

ترجلت يا (مؤمن) من سيارتك الفارهة، أمام الكشك أياه، فرغم إنك تقريبًا تمتلك نصف محلات وأراضي ومشاريع العزبة إلا إنك تفضل هذا الكشك بالأخص دونًا عن غيره، بموضعه الغريب الذي أصررت عليه أن يكون متوسطًا للطريق الوحيد الرابط بين العزبة والعالم أجمع.

دلفت المحل يا (مؤمن) لتجد الموظفان به، يعملان على قدم وساق، فأحدهم ينظف الأرض ويقوم بتلميع الأرفف الزجاجية منها والخشبية، والأخر يجرد البضائع المباعة والمتبقية ليحدد ربح اليوم والبضائع التي سيطلبها من شركات الشحن.

تعلم يا (مؤمن) يقينًا إن هذه مجرد إدعائات كاذبة للعمل، وربما هي المرة الأولى التي ينهض فيها كليهما من على مقاعدهم حين لمحا سيارتك من بعيد. هما كذلك يعلمان إن مسلسلهما هذا أسخف من اللازم، فالأتربة أكوامًا فوق البضائع بما يؤكد إن ما من منظف مسها من يومين على الأقل ليس من بداية اليوم فحسب.. لكنهما يفعلان هذا لأرضائك فحسب يا (مؤمن) ومن ناحيتك أنت لا تهتم

جلست على الكرسي القابع خلف مكتب الكشك. رغم إنه كرسي خشبي عادي، لا يختلف عن غيره في شيء، بل إنك بجلستك عليه يا (مؤمن) مددته ببعض من هيبتك، محيلًا إياه لعرش ملك متوج. أنت من تهب العظمة للأغراض يا (مؤمن) ولا تستمدها من غيرك.

سألت عن أحوال حركة البيع وأحوال عائلتهما شخصيًا، ليجيبا أن كل شيء وردي وخلاب في ظل كرمك يا (مؤمن). كلًا منكم يعلم إن بعض كلمات النفاق لن تضر تمهيدًا للحظة التي ينتظرها العاملان.

دسست يا (مؤمن) بيد كلًا منهما ورقة بمائتيي جنيه، مطالبًا منهما أن يأخذا باقي اليوم أجازة. لم تمر أكثر من دقيقة وكان الموظفين مغادران للعزبة مترجلان وبجيبهما إكراميتك السخية.

لم يسألا عن السبب أو يماطلا، فهذا المشهد يتكرر بحذافيره مرة كل ثلاثة أسابيع أو ربما كل شهر، كما لو إنها حالة ديجافو مملة. حذراك فحسب من الجلوس بالمحل لوقت متأخر بسبب هجمات الضباع المتكررة في الأشهر الأخيرة، ثم ذهبا في طريقهما.

في المرات الأولى كانوا يسألونك يا (مؤمن) عن سبب فعلتك تلك، لترد ببساطة إنك تريد أن تستعيد أيام الصبى

حين كنت تعمل مع والدك رحمه الله في المحلات.

على الرغم إنك لم تقتحم أي من محلاتك أو مشاريعك الأخرى إلا لفض الشجارات وحل المعضلات، ولم يخطر على بالك ولو مرة أن تقضي به بقية اليوم، باستثناء كشك الطريق.

كذلك يعلم الجميع إنك لم تفعل أي من هذا في القدم لتعاود تكراره الآن، فقد كنت الطفل المدلل بالعائلة، اهتم والدك بتعليمك يا (مؤمن) أكثر من أخوتك وأكثر من اهتمامه بصحته ذاتها.

بالكاد يتذكر أهل العزبة إنك أقمت بها أكثر من شهر واحد سنويا، حيث كنت أغلب السنين يا (مؤمن) تدرس أما بالمدارس ذات النظام الأمريكي في التعليم أو حتى الجامعات الخاصة باهظة الثمن، ولم تعد إليها إلا وأنت حاصل على شهادة الماجستير بالتجارة وإدارة الأعمال نسبة لشغفك في هذا التخصص رغم مجموعك العالي وأموال والدك الطائلة التي تكفل لك دراسة الطب أو الهندسة أو كليهما إن رغبت. كان يفصلك عن اكمال الدكتوراة خطوات قلائل لكنك آثرت العودة لمسقط رأسك، واستغلال علمك الواسع في توسيع تجارة والدك، معوضًا إياه الأموال التي أنفقها على تعليمك بكميات مضاعفة.

لم يتخيل العمال إنك تعمدت أن يكون هذا الكشك محل نزواتك، لا كسبًا للرزق، فبخلاف أنواع المأكولات والمشروبات المعروضة بالكشك، يتوفر بهذا المكان كل مسهلات الحياة، من موقد للغاز، وتلفاز ومرتبة مريحة رغم التصاقها بالأرض، ودورة مياه.. وهذا كان المطلوب، أن تصنع لنفسك شقة صغيرة بتمويه محكم.

فموضع الكشك المطل على طريق الميكروباصات المسرعة صباحًا، والفراغ القاتل ليلًا، يجعل منه مشروعًا خاسرًا عن جدارة، بل إن تكلفة الكهرباء والماء التي تأتيك يا (مؤمن) شهريًا أكثر مما يحققه الكشك بذات الشهر، فما بالك بمرتب الموظفان العاملان به. لكنك لا ترمي بالا للأمر، لقد صمم هذا المكان لأداء وظيفة واحدة وهو يتمها على أكمل وجه، وأي شيء غير هذا فهي ثانويات يمكن تجاهلها.

أخرجت مسدسك المرخص من جيبك، ووضعته بأحد أدراج المكتب بإهمال لتستريح بجلستك دون أن هذا النتوء المعدني المؤلم للظهر. بالطبع أنت يا (مؤمن) لم تتعرض لمحاولة اغتيال أو حتى رسائل تهديد من قبل، لكن نسبة إلى مكانتك كشخصية ذو منصب، فهو لأجل الحذر لا أكثر، حتى لا تأتي اللحظة التي تقول بها ليتني أستعددت جيدًا ولا يفيدك الندم.

ألتقطت هاتفك المحمول، متصلا بالأستاذ (وجدي)، لم تنتظر يا (مؤمن) أكثر من خمس ثوان ليأتيك الرد على الجانب الأخر:

- يا نهار أبيض، الباشا الكبير ذاته يحدثني على هاتفي المتواضع، إن اليوم مناسبة خاصة....

قاطعته يا (مؤمن) في نفاذ صبر:

- انتهينا يا (وجدي)، هل يجب أن تسمعني هذ الموال في كل مرة أهاتفك بها؟ هل تحاول تطفيشي أم ماذا؟

- وهل أتجرأ على الأمر؟ إنه فحسب كناية عن فرحتي المستعرة التي توقد بقلبي حين تهاتفني، فالعمدة بذاته لا يحادث أي مرءٍ بتلك البساطة ومن حقي أن أشعر ببعض الفخر متناسبًا مع هذا الشرف.

بصفتك العمدة يا (مؤمن) تتعامل مع تلك النوعية من الكلمات المعسولة بشكل دائم، لكنها ليست مراوغة على الإطلاق، فأهل العزبة يكنون لك حبًا واحترامًا صادقان لكرمك ويدك السخية مع الجميع، فقد اشتهر عنك دائمًا أعمال عقلك المتعلم في رد المظالم وفك الضيقات والوقوف بجوار أهل العزبة أجمعين حتى الوصول لحلول كافة أنواع المشاكل. لقد حظيت من الجماهيرية ما يكفيك لحجز كرسي

بمجلس الشعب دون حتى فرزًا للأصوات. ورغم إنك دائمًا ما ترتدي تلك الحلة الداكنة وما يعلوها من عباءة ذهبية اللون، التي لا تتناسب مع ملابس العزبة من الجلابيب أو القمصان العادين، ولم تترك انطباعًا سلبيًا بالتكبر أو ادعاء الثراء على أحد من قبل رغم إن هذا حقك، بل تتصرف كإنك واحد من العامة دون كلفة أو حواجز طبقية.. لكن ما يفعله (وجدي) هذا قد بالغ حد النفاق بمراحل، ولكن لما يا ترى؟

قلت يا (مؤمن) محاولًا إنهاء الحديث بأي وسيلة:

- المهم يا (وجدي)، هل أتممت المطلوب منك؟

ابتلع (وجدي) ريقه في توتر لأول مرة منذ بداية المكالمة، فناهيك أنه معلم العزبة الأول كما كان يطلق على نفسه -قبل أن يفقد عقله حينها-، هو كذلك كاذب العزبة الأول.

فأجاب في تلعثم نوعًا ما:

- أليس هنالك فرصة لتأجيل الأمر؟ أنت تعلم إنه في غاية الصعوبة...

قاطعته يا (مؤمن) وأنت تضرب على مكتب الكشك بكفك في قوة:

- لا مزيد من الأعذار، سأبعث لك (حسن العفي)، أما أن

يأتيني بمرادي، أو أنت تعرف ما سيعود عليك من عواقب.

أغلقت يا (مؤمن) الهاتف في وجهه دون حتى أن تنتظر الإجابة. عاودت الاتصال بغفيرك المخلص (حسن العفي) وأنت تخرج من جيبك لفافة ضخمة محشوة بالحشيش، ألقيت على (حسن) أمرك في عجلة ثم عاودت إغلاق الخط ورجعت لسيجارتك الغير شرعية، لتندمج معها كافة جوارحك سابحًا في ملكوت خاص، متمنيًا أن تهنأ بالليلة المثالية.

***

لقد بدأ الأمر بدعوة من أحد الأصدقاء أن يقضي معهم ليلة حمراء من تلك التي يقضيها شقيق العمدة (جابر الشبراوي) أو بالأحرى المعلم (جابر الشبرواي)، فبعض العادات لا تنقطع مهما اختلفت المناصب.

ظل (وجدي) متحفظًا على اسمه وسمعته دون أن يلطخها بنظرة غير بريئة من إحدى فتيات العزبة المتقصعات، أو بدخول دخان الحشيش رئتيه النظيفتين. لكن من قال إنه بتلك الشاكلة بلغ المثالية؟ فمهما حافظ على روحه طاهرة، سيلوثها القدر، قد لا يتلوث اليوم أو حتى الغد، لكن ساقه ستغوص بالوحل يومًا ما، وحينها سيفسد من رأسه حتى أخمص قدميه.

في أحدى الأيام أتاه هذا القدر على شاكلة جزار العزبة ملوحًا بسواطيره بالهواء، عازمًا على نحر عنق ابن (وجدي) الأكبر أو (وجدي) ذاته أو كليهما إن طالتهما يداه. وبعد كثير من الركض من هذا الثور الهائج، فهموا أخيرًا ما كان يخور به فمه. فالجزار يتهم ابن (وجدي) بالتعدي على إبنة الجزار ومحاولته لنهب شرفها!

ناهيك إن ابن (وجدي) الأكبر لم يتم ربيعه الثالث عشر بعد، فلا يعلم معنى مصطلح (نهب الشرف) هذا اساسا، أما إبنة الجزار تبلغ من العمر عقودًا كثيرة نظرًا لان الفارق الوحيد بينها وبين البهائم التي يتلذذ والدها بذحها هو عدم امتلاكها لذيل وهذا أمر مشكوك فيه من الأساس، بالتالي يجعل التعرف على عمرها أو حتى فصليتها أمرًا عسيرًا على العلماء.

كان الجزار على أهبة الاستعداد لغسل عاره -الذي لم يمس ولا يقدر كائن حي على مسه- إلا إذا بلغوا حلًا وسط.

كان الحل متمثلًا في يد (وجدي) ذاته، فهو بالمصادفة تم تعيينه للمراقبة على اختبارات الثانوية العامة بمدرسة ما، وبمعجزة كونية أخرى إبنة الجزار لازالت محتجزة بسجن الثانوية التي تعيدها للمرة العاشرة تقريبًا بعد أعوام من الرسوب الأزلي. وذات المصادفة جمعت إبنة الجزار معه

بذات المدرسة!.. لا يطمع الجزار أن تتخرج إبنته حاملة للقب الأولى على مدرستها أو بمجموع عال لكليات القمة، كل ما يتمناه أن تظفر بالشهادة دون أي رسوبات أخرى، وهنا يأتي دور (وجدي).

لا يهتم بالوسيلة، إن كان سيسرب لها الأسئلة أو الأجابات أو يحل الأسئلة عوضًا عنها بخط يده إن لزم الأمر، المهم هو أن تتخرج إبنته وإلا تخرج روح ابن (وجدي) من الحياة برمتها.

يعلم (وجدي) إن أمر معاكسة ابنه لإبنه الجزار تلك ما هي إلا أدعائات كاذبة، ولو لم يتم تعينه للمراقبة على الأمتحانات هذا العام لما صادف تلك المسرحية الهابطة على الأطلاق.. ولكن ما بيده حيله ليدافع عن صغيره، فاللجوء لك يا (مؤمن) بصفتك العمدة لن ينجيه من الجزار الذي يعمل في المذبح الذي تملكه أنت من الأساس، وكذلك لو أعتذر عن المراقبة، ستودي لنفس النتيجة وذات تهديد الجزار.. سلم امره لخالقه متحججًا بإن الغاية تبرر الوسيلة، وسرب الأجابات للفتاة.

بالرغم إن الفتاة بيبتها الحلول النموذجية لكل الأسئلة، لكنها رسبت من جديد! الحق يقال إن الفتاة حفظت الأجابات عن ظهر قلب، لدرجة إنها راحت ترص الأجابات أسفل بعضها

البعض دون أن تقرأ الأسئلة أو حتى اسم المادة! فأنتهى الحال بإجابة أسئلة اللغة العربية بالإنجليزية والتاريخ بالألمانية والكثير من المهازل التي جذبت أنظار الوزارة بورقتها وفتح تحقيق بالأمر، أنتهى بفصل (وجدي) وابنه الجزار من المدارس إلى الأبد!

وهكذا بين يوم وليلة فقد (وجدي) مكانته ووظيفته دون رجعة.. لقد رأى الجزار إن البطش قد طال كلًا من ابنته و(وجدي) فقرر أن يترك هذا الأخير في حاله دون أن يتعرض له من جديد، بعدما رأى أنه قد أصابه ما يكفيه بالفعل ولا يحتاج للمزيد من التوبيخ.. ثم تغير هدف الجزار من البحث عن حيلة لنجاح أبنته بالدراسة، إلى التفتيش عن تعس الحظ الذي سيتزوج ابنته المصون صاحبه العقل الجهنمي الذي قضى على مستقبل (وجدي) المهني.

فوافق (وجدي) أخيرًا على مشاركة أصدقائه بالعزبة أحدى سهراتهم، بعد أن وعدوه بإن هذا اليوم سينسيه حياته بأكملها، فقد خسر كل شيء بالفعل ولا مانع من خسارة المزيد

راح يدخن الحشيش كقطار بخاري دون أن يسعل، يتجرع الخمر كإسفنجة ظمئة دون أن يتمرر مذاقها، يعاشر العاهرات بعنف كأبطال المصارعة دون أن تخمد شهوته، يضحك من

قلبه كما لو إنه ولد من جديد.. كان يفعل كل هذه الأشياء باحترافية رغم إنها مرته الأولى، دون ملل أو أرهاق.. مما أثار إعجاب (أم الكنوز) صاحبة البيت.

بالطبع هذا ليس اسمها، يقال إنها لبنانية تطلقت من زوجها بعدما كشف خيانتها وإن ابنتها (جوهرة) تلك هي ابنة الزنا فسافرت لمصر لبدء مشروعها في الدعارة، ويقال أيضًا إنها كانت تملك أحد أكبر بيوت المتعة باسطنبول لكن المافيا التركية أفسدوا لها عملها وقتلوا زوجها وأحدى ابنتيها بعدما رفضت التعاون معهم، ففرت بما تبقى لها من مال مع ابنتها الثانية لمصر، وهنالك الكثير من الحكايات حول تلك المرأة تتلخص في ثرائها وعدم مصريتها هي وإبنتها، أضافة إلى جمالهما الأخاذ.

أعجبت (أم الكنوز) بنشاط (وجدي) النابع من يأسه، فتحملت هي تكاليف ليلته الجامحة تلك مع عرض بالعمل لديها.

تعرفون بقية القصة حين رفض بمبدأ إنه لن يحقر من ذاته لهذه الدرجة، فتركته (أم الكنوز) يرحل وعلى ثغرها نظرة ذات معنى إنه سيعود يومًا ما.

فراح يتردد على كل بقاع الأرض بحثًا عن وظيفة دون جدوى سواء داخل حيز التعليم أو خارجه، فما من مركز

للدروس الخصوصية أو مطبعة للكتب الدراسية الخارجية أو حتى قناة تعليمية هابطة رضت بتوظيفه، فبمجرد أن يعلموا إنه تم شطبه من نقابه المعلمين، يدركون إن وراء هذا الرجل مصيبة ما هم في غنى عنها، دون الاستماع لجانبه من القصة.. كذلك هو لا يمتلك أي حرفة أو مهارة تأهله لعمل أي وظيفة غير التدريس، لقد خلق هذا الرجل ليضحى معلمًا، لكنه لم يعمل حسابًا إن التعليم ذاته قد يتخلى عن خدماته يومًا ما.

لم يبحث عن عمل بالعزبة طبعًا، فلازال أمر رفده سرًا لا يعلمه إلا أشخاص معدودين على أصابع اليد الواحدة، وأي وظيفة بالعزبة حتى لو كانت العمودية ذاتها تعتبر إهانة لمسيرته كمعلم فاضل.. تكاثرت الديون على عائقه بجانب طلبات الصغار التي ظل يأجلها بطريقة مثيرة للشك وهو من كان فيما سبق لا يتأخر عليهم في شيء، حتى بدى الأمر كأنه يتحاشاهم.

لم يمر أسبوعان ووجد ساقه تقوده رغمًا عنه لشقة (أم الكنوز) طالبًا السماح على عجرفته وقبوله بالعرض إن كان لازال قائمًا، كان بمقدور المرأة أن تتشرط وتذل فيه كما تبتغي كنوع من تعليم (وجدي) إنها هي صاحبة القرار وإنها ليست على هوى أحد يوافق على كلامها أو يعترض عليه

وقتما يشاء، لكنها ألتمست الانكسار في عينيه وحاجته الذليلة ليس لهذا العمل فحسب، بل لأي عمل مهما بلغت وضاعته.. فوافقت دون عناد ليتحول من الأستاذ (وجدي) للقواد (وجدي).

أنخرطت في عالم لا يعلم عنه شيئًا إلا من الأفلام العربية القديمة والتي لم تصور ولو عشر الواقع المرير الذي عاصره بهذه النوعية من البيوت. رأي مختلف السياسين والمشاهير ومدعين التدين، يترددون على بيوت (أم الكنوز).. أجل بيوت، فتلك المرأة تدير شبكة كاملة وليس محض بيت صغير في بلدة ريفية عفنة. عاصر أتفه أنواع الشجارات بين السكارى، وأغرب أنماط الميول، وأوضع أصناف البشر، التي لم يظن يومًا إنها موجودة بأرض الواقع، بل قابل فنانين لم يتخيل يومًا أن يراهم في أي مكان بالعالم، وحين يشاء القدر تقابلهم في أنجس بقاع الأرض.

كان عليه أن يقوي من شكيمته في عمله إن كان يريد الحفاظ على وظيفته في إدارة البيت بجانب (جوهرة)، فهو لا يتعامل إلا مع العاهرات أو السكارى أو العاهرات السكارى، مهما بلغ ما يحملونه من سلطه أو مال أو حتى شهادات علمية، فبداخل بيوت (أم الكنوز) هم لا يتعدون تلك التصنيفات الثلاثة، حيث تهدم الطبقية ويتساوى الجميع في

الفجور.

إن سمح لأحدهم بالتطاول عليه ولو مرة واحدة، سيخسر هيبته أمام (أم الكنوز) وباقي العاملين للأبد. لهذا تعلم لسانه البذائة من تلقاء نفسه، كما تبرمج كفه على الصفع أولا ثم التناقش لاحقًا. لم يستطع تحجيم تلك الشخصية الجديدة في العمل فحسب، بل طغت على روحه بأي وقت وبأي مكان.

فكسب الكثير من كره الناس لأسلوبه الفظ ومعاملته الخشنة، معتقدين إنه غرورًا منه على مكانته العلمية التي لا يوازيه بها أحد غير العمدة، غير عالمين إنه تعويضًا عن الأحتقار الذي يشعر به من نفسه لعمله بذلك المستنقع النجس.

حتى أتيت يا (مؤمن الشبراوي) لزيارة شقة (أم الكنوز)!

أعتقد (وجدي) إنه طوق النجاة الذي طالما أنتظره للخروج من حظيرة الخنازير تلك، في البدء كان يخشى من أن ينفضح سره، لدرجة أنه أشترط على (أم الكنوز) بأبعد بيت لها عن عزبة شجرة التفاح داخل محافظة كفر الشيخ، حتى لا يصادف أحدًا من أهلها ولو بمحض الصدفة.. ولكن بعد أن زادوا العالمين بخباياه واحدًا، قرر استغلال الأمر.

فهرع (وجدي) صوبك يا (مؤمن) يتوسلك بأن تأخذه للعمل لديك بأي وظيفة تقدر علمه وشهادته الأكاديمية، أو حتى تتوسط لتصفية قلب وزارة التربية والتعليم من ناحيته للعودة لمدرسته التي أشتاق لها أكثر مما قد يشتاق لزوجته يومًا.. لقد طمع (وجدي) في معجزة ملاك صالح، لكنه لم يعلم إنه سقط بين براثنك يا (مؤمن) بعد فوات الأوان.

لم تكن ملاكًا يا (مؤمن)، وكذلك لم تكن شيطانًا. بل كنت إنسانًا عاديًا، ترد المظالم لكن بعد ضمان إنها لا تأتي على مصلحتك الخاصة، تفك الضيقات التي توقن إنها ستعود عليك بالخير في نهاية المطاف. لا أحد ينكر نزواتك أو حتى تعاطيك لبعض الحبوب المخدرة، لكن على الجانب الآخر لا أحد يحجر على أخلاقك وخدماتك العديدة، فكلما كثرت محاسنك، تجاوز الناس مساوئك حتى لو كانت لا تغتفر.. وهذا ما عرفه (وجدي) متأخرًا.

وعدته يا (مؤمن) وعودًا مبهمة على غرار (إن شاء الله، قدم المشيئة أنت فحسب، الأمر صعب لكني سأحاول من أجلك)، علم (وجدي) إنك تماطل لشيء ما، لا يعلم ما هو وليس في يده سوى الانتظار.

حتى اعترفت يا (مؤمن) بناوياك أخيرًا:

- الخلاصة يا (وجدي) بيت (أم الكنوز) هذا هو اسم على

مسمى، يأتيه يوميًا أشخاص ذوي نفوذ وأموال تمثل كنوز العالم أجمع، وهذا ما أريده منك.. وظيفتي كعمدة للعزبة ورجل أعمال ومرشح لأنتخابات مجلس الشعب، تحملني الكثير من المسؤولية، وكذلك تعرضني في طريقي للكثير من الأعداء والخصوم الذين لا ينوون بي إلا شرًا، معرقلين مصالح أهالي العزبة.. يظنون إن بسبب دراستي بالقاهرة فأنا دخيل عليهم وليس لي الحق في أي شيء بهذه البلد حتى لو بيع الصحف.. حاولت إثبات العكس بمجهودي الخاص وكفاحي بالعمل، لكن من دون الواسطة التي معهم، سيتم تقدير مجهوداتي تلك بسلة المهملات. ناهيك إني كلما أخمدت كره أحدهم، ينبت الحقد لدى غيره ويبدأ هو الآخر محاربتي، عائدين لنقطة الصفر لكن مع اختلاف الحيل.. يجب أن أقاتلهم بذات السلاح، ولكن كيف؟ فالواسطة تكتسب ولا تشترى.

كانت مطالبك يا (مؤمن) بسيطة. بعض الصور الفوتوغرافية لمنافسيك وهم يتخلون عن هيبتهم أمام إحدى عاهرات (وجدي). وبتلك الطريقة تضمن التراخيص التي تكتسب بها علية القوم بعد أن تزيح أعدائك عن طريقك.. مبررًا كل هذا بإن السياسة كالحروب، وبالحروب كل شيء مباح مهما بلغت من وضاعة.

حاول (وجدي) أن يمارس ذات اللعبة معك، ولكن حيلته كانت معدومة! فأنت يا (مؤمن) تبتذ (وجدي) بكذبته الكبرى المتعلقة بفصله من التعليم التي يداري بها إهانته، ولكن ماذا يمسك عليك (وجدي) لمساومتك بذات الطريقة؟ فأغلب زيارتك لبيت (أم الكنوز) كانت لتبادل أطراف الحوار مع المرأة، لا أكثر ولا أقل، لم تمس إحدى فتيات البيت أو حتى تحملق بأجسادهم بنظرات طمع.. لم يعلم (وجدي) يومًا فيما تتحدثان، ربما كنت تعرض عليها يا (مؤمن) ذات طلبك من (وجدي) لكنها كانت تقابلك دائمًا بالرفض، أو ربما بينكما عمل من نوع خاص تتناقشان به كمشاركتها في إراد أحد البيوت، أو بينكما صلة قرابة ما.

الخلاصة إن (وجدي) بين شقي الرحى من جديد، في البدأ كان عليه التخلي عن مبادئه كمعلم ويخاطر بوظيفته لأجل الجزار وابنته، والآن عليه المخاطرة بوظيفته الجديدة التي أخسرته روحه لأجلك يا (مؤمن). لم يعد لديه ما يخاف على فقدانه سوى استقرار أسرته البسيطة، والتي لن تنعم بهذا الوضع أطول فترة ممكنة إلا بالمال الذي عرضته يا (مؤمن) في مقابل خدمتك.. هكذا فكر وهكذا أتخذ قراره بالموافقة، ليس لأجل سواد عيونك يا (مؤمن) بل لأجل المال.

والخدمة جرت في أذيالها خدمة أخرى، فتحولت الصورة

الفوتغرافية، لتسجيل مكالمة هاتفية، ثم إلى تسجيل فيديو، والتي أنتهت بعض الأحيان بفضيحة مصحوبة بشرطة الأداب أو الإعلام.. وبالمقابل أغدقت عليه يا (مؤمن) بأموال طائلة كفيلة بشراء أفخم أنواع السيارات لكنه ظل محتفظًا بسيارة والده كشيء ولو بسيط يذكره بكينونته القديمة عوضًا عن هذا المسخ الحالي.

لكنك يا (مؤمن) تماديت في مطالبك بتصوير الكثيرين من أعدائك أو حتى أصدقائك بمبدأ إنك لا تتضمن الظروف والأيام التي قد تدفعك لاستخدام تلك التسجيلات يومًا ما، فمن هو صديقك اليوم، قد ينقلب عليك بالغد.. كاد (وجدي) أن يكْشف أمره عدة مرات، لكنه كان محظوظًا في بعض الأحيان، وأحيانًا أخرى يستخدم قوة شخصيته الجديدة لأبعاد الشكوك عنه غصبًا وزجها بغيره.. وكانت القشة التي قسمت ظهر البعير حين طالبت يا (مؤمن) ب(جوهرة)، ليس صورًا لها أو حتى تسجيل فيديو، بل أردت (جوهرة) ذاتها بشحمها ولحمها.

كانت هذه الأخيرة جوهرة بكل ما تحمله المعنى من وهج، بقوامها الممشوق وعودها المنحوت كالمرجان، تقوم الدنيا منصاعة لأمرها، بوجهها البض، وأنوثتها الفجة كالياقوت، تزيح أجمل الجميلات لتتربع هي مكانها، التفاتة واحدة منها

بشعرها المنسدل كخيط الذهب يسيل لعاب أقوى الرجال شكيمة، بسمة واحدة من شفتيها المرمرية لتظهر أسنانها اللؤلؤية فتخر لأجلها أغلظ القلوب، نظرة واحدة من بريق عينيها الماسي تحل على إثرها مشاكل العالم أجمع.. حين تجتمع كل تلك الصفات النفيسة في امرأة واحدة، سترغمك إجبارًا يا (مؤمن) على التفكير بها رغم حبك لزوجتك وإخلاصك لأسرتك.

لكن كيف سيفعلها (وجدي)؟ ف(جوهرة) تعتبر من المحرمات أسفل إمبراطورية (أم الكنوز) فلا رجل يمسها ولا هي مست رجلًا أكثر من حيذ التصافح اليدوي، كانت تعاملها أمها بالفعل إنها جوهرة نادرة، لا يستحقها خراف الراعي أو حتى الراعي نفسه، ربما تدخر إبنتها لمن يستحقها من وجهه نظرها أو لتدفن جوهرتها بالوحل بيديها الذي سيكون أرحم من تلوث العالم.

حاول (وجدي) أن يعتذر بأدب منك يا (مؤمن)، معلنًا انسحابه عن تلك المهمة، مؤكدًا إنها فوق سلطته، لكنك لم تقتنع. طلبت منه أن يسلمك (جوهرة) حتى لو رغمًا عنها

وهكذا تطورت العلاقة بينكما للنفاق تارة أو تغيير الموضوع تارة أخرى بأنه سيلتقط لك بعض المقاطع لعدوك اللدود الذي أتي لزيارة بيت (أم الكنوز) بالأمس، أو للماطلة

بأنه سيحاول معها يومًا ما تارة ثالثة.

بالطبع (وجدي) لم ولن يفكر في عرض الأمر على (جوهرة) حتى، فلو علمت أمها بالأمر بجانب تسريبه صورًا مخلة عن الزبائن، ستلقي به بالشارع بصحبة فضيحة تجعل منه منبوذًا مدى الحياة، أو ربما تلفق له قضية لتضمن إنه سيلقى العقاب المناسب مدى حياته.

فرحت أنت الآخر يا (مؤمن) تلمح بتهديد صريح منك بكشف كل الأوراق بينك وبين (وجدي)، بعضها تخص سياسيين قابعين الآن خلف القضبان، يتلهفون شوقًا لأي معلومة توصلهم للمسؤول عن تلك الحبسة المهينة ليذيقوه من العذاب أطنانًا ومن الجحيم ألوانًا، خاصة لو كان قوادًا لا يسوى شيئًا بهذا العالم مثل (وجدي).

ومن جديد (وجدي) محاصر بين خيارين كلاهما ينتهي بتهلكة لا محالة، رغم إنه ليس له ناقة أو جمل بالأمر برمته. كما لو كتب على حياته تلك الحيرة بشكل أبدي. يبدو إنه وصل لنقطة النهاية في كذبته تلك وعليه تحمل العواقب قليلًا دون مزيد من المراوغة.

والليلة هي المرة التي نفذ فيها صبرك يا (مؤمن) دون تحمل أي أعذار أضافية، والتي سيتوقف عليها سمعة (وجدي) وربما حياته!

***

أفقت يا (مؤمن) من بحار ذكرياتك تلك صوت تروسيكل (حسن) وهو يستقر أمام الكشك، لقد تكدس المكان عن أخره بأدخنة الحشيش التي أعمت عينك، فبالكاد تلمح المرافق ل(حسن) على التروسيكل رغم واجهته الزجاجية، لكن هنالك مرافق على أي حال وهذا هو المطلوب. أخرجت شريط أقراص من جيبك لتبتلع من حبايتين في سرعة، عسى أن تمدك بالقوى المرجوة قبل دخول صاحبة الصون والعفاف.

فتح باب الكشك، فنهضت يا (مؤمن) مصطنعًا أكبر ابتسامة قد يراها المرء يومًا، وأنت تمد ذراعيك على اتساعهما مرحبًا. انقشع جزءًا بسيطًا من أدخنة الحشيش التي حالت الكشك لفرن موقود، ليظهر (حسن العفي) بجسده الضخم، انتظرت يا (مؤمن) أن يتنحى جانبًا مفسحًا الطريق لأنفس (جوهرة) بالعالم، لكنه لم يفعل؟ بل ظل واقفًا واضعًا ذراعيه خلف جسده كإحدى وضعيات الجيش، دون أي ردة فعل أخرى! فنظرت يا (مؤمن) صوب التروسيكل الساكن بجوار سيارتك على قارعة الطريق لتجد إن المرافق لازال هناك دون حراك.

هل تشعر (جوهرة) بالاحراج وتحتاج إلى دعوة خاصة

منك يا (مؤمن)؟ أم إن (وجدي) أحضرها إلى هنا بحيلة ما لم يطلعك عليها، تنفيذًا لأمرك بأن يأتيه بها بالقوة أو الحيلة إن لزم الأمر؟ فعقدت العزم أن تتصل ب(وجدي) لتستفهم منه على الأمر، رحت تدس يدك في جيوبك بحثًا عن هاتفك المحمول. لكنك لم تعثر عليه!

أين اختفى بحق السماء؟ هل سرقه أحد العاملين؟ بالطبع لا، فقد هاتفت (وجدي) و(حسن) بعد أن رحلا، ثم أعدته لموضعه بجيبك بنحو طبيعي. هل من الممكن إنك تركته بمكان ما غير جيبك؟ تفقدت سطح المكتب لتجده خالي هو الآخر من أي دليل عليه، هل وضعته على أحد تلك الأرفف أو حتى بدورة المياة أو على المرتبة في الغرفة الخلفية، لا من جديد، فأنت يا (مؤمن) لم تتحرك من مكتبك حتى مجيء (حسن).

لما عقلك يفكر بهذه السذاجة من الأساس؟ لتسأل (حسن) الماثل أمامك وينتهي هذا العصف الذهني، كدت تفعل هذا لكنك تراجعت عن الأمر، حين لاحظت إن سلويت المرافق هو لرجل ليس لأمرأة! من هذا إذا وأين (جوهرة)؟ هل أتى (حسن) الأحمق هذا ب(وجدي) عوضًا عن (جوهرة) أم إنها لازالت حيلة (وجدي) التي تجهلها.

أما أنا فقد لاحظ شيئًا أخر أثناء تلك النظرات الجامدة! أين

شجرة التفاح القابعة جوار الكشك؟ هل كانت موجودة بهذه البقعة واختفت منذ قليل كعادة الطريق عندما يشرع في التلاعب بزواره؟ أم إن الشجرة لم تكن موجودة بالأساس وأنا بالحقبة الزمنية التي سبقت زراعتها؟

عاودت النظر إليك يا (مؤمن) لأفطن إن أحدهم سلط عقلك عليك، فأنت تفكر بسرعة القطارات وبغباء الخرفان بالوقت ذاته. لكن الأسئلة التالية كان معك كل الحق في طرحها!

لقد ظهرت اليد اليسرى ل(حسن) وكان يرتدي بها قفازًا داكنًا، لم يره يومًا يرتدي مثله طوال حياته لأي سبب! فقررت أن تجهر بسؤالك يا (مؤمن) للمرة الأولى:

- ماذا دهاك يا (عفي)؟

لم يجيب (حسن العفي) بل راح جسده يرتعش مصحوبًا بعرق غزير يتصبب من كافة الغدد بجبهته، رغم إن الطقس مائل للبرودة بهذا الوقت المتأخر ولا يتطلب هذا الكم من العرق الكفيل بملئ البحار الجافة.

- سامحني أيها العمدة، لكني أفعل هذا لأجل أخي.

خرجت يد (حسن) الأخرى لمجال إبصارك يا (مؤمن) من خلف ظهره وهي تقبض على عتلة معدنية صدأة، خشنة

الملمس، لكنها تمثل سلاحًا ممتاز، مرتديًا ذات القفاز.. ثم رفعها بالهواء، وهو يركض صوبك يا (مؤمن) وبعينه أصرار الدنيا والآخرة على عدم الخروج من هنا إلا وهو حامل لأحد الألقاب إما قائلًا أو مقتولًا!

ليس هنالك وقت للتفكير في أي لقب ستظفر به أنت، فالعتلة تدنو من رأسك وعليك فعل شيئًا الآن.

***

التفاحة الثانية والعشرون

لقد أتى (كمال) لهذا العالم بعد عناء طال

تردد والدي (حسن العفي) على شتى أشكال الأطباء سواء بالقاهرة أو بكافة محافظات مصر، المختصين في عمليات الحقن المجهرية والولادة بالتخصيب وأطفال الأنابيب. ولم تأتي أي منها بأي نتيجة تذكر، فكل ما لاقوها بخيبة الأمل، هو خسارة المزيد من الأموال على يد هؤلاء الأطباء الساديين في استنزاف النقود من جيوب مرضاهم حتى آخر قرش.

لم يعلم أبو (حسن) إن زوجته قد ترددت عدة مرات على الدجالين أملا في تحقيق مرادها، قامت بكافة أوامرهم في طاعة مسلوبة الإرادة، المقززة منها كالاستحمام بدماء الدجاج، والمخيفة منها كنزول تربة وحيدة ودس قصيصة قماش مثلثة الشكل بفم جثة حديثة الدفن، والنجسة منها كتدنيس الأديان السماوية أجمع.

كان أبو (حسن) رجلًا بسيطًا كغيره من العامة، استوقف دراسته المدرسية بعد حصوله على الشهادة الإعدادية ليساعد والديه بالعمل، اللذين سرعان ما فارقا الحياة عقب زواجه بعام أو اثنين، كان حينها (حسن) رضيعًا لا يفقه في

الدنيا غير الصراخ كنوع من الهواية. ليجد أبو (حسن) نفسه وحيدًا بهذه الدنيا، لا يملك بها غير أسرته الثلاثية البسيطة، بجانب تملكه لأربعة فدادين من تركة أبويه.

وبعد خمسة أعوام من الانتظار لمآخاة (حسن) بشقيق أو شقيقة يشدا من أزر بعضهما في هذه الدنيا، شعر الزوجان إن هنالك خطبًا بالأمر غير قابل للمراوغة، فلما لم تحبل الأم طوال تلك السنوات ولو حتى حمل كاذب؟

فأخذوا الخمس سنوات التالية يترددون على المعامل والعيادات تارة، وتزور الأم خلسة الشيوخ المحتالين وحدها كما ذكرنا سالفًا. لا يعني إن أبا (حسن) بسيط أو غير مكمل لتعليمه، إنه سينصاع وراء أمور الدجل والشعوذة تلك، فقد رفض عقله منذ الصغر التسليم بها ولازال على قناعته حتى الآن.

وبعد أن يأسوا من الأمل، ورضوا بما كتبه خالقهم لهم أن يكون لهم طفلًا وحيدًا وهو (حسن) لا غيره، وفقدوا أموال الفدادين التي أنفقوها على العمليات، حدثت المعجزة وحبلت الأم. وبعدها بشهور حضر للعالم (كمال) يملئ الدنيا صراخًا تيمنًا بأخيه الاكبر، لم يكن للطب الحديث أو حتى المشعوذين يدًا بالأمر، بل كان التدخل الإلهي الرحيم بهم.

كان (حسن العفي) يكبر أخاه بثلاثة عشر عامًا كاملة، فلم

تكن العلاقة بينهما كالأخ وشقيقه، وبعد وفاه أبو (حسن) تطور الرابط بينهما حتى بلغ حد الأب وابنه، عاشوا معًا على الحلوة والمرة سنوات طويلة كأسرة سعيدة، فأم (حسن) ذاتها لا تذكر إن ولديها تشاجرا ولو لمرة أو شب بينهما أي خلاف، بل كان ما يسود بينهما هو الاحترام والتقدير الدائم.. حتى أتى اليوم الذي توقف به الزمن.

يموت الآلاف يوميًا دون أي تأثير على العالم، يحزن عليه الأقارب أو يفرح به الكارهين لفترة قصيرة ثم يعود كل منهم لاستكمال حياته، لن تبكي السماء حزنًا على أحد، لن تتقاعس الشمس عن الشروق حدادًا على شخص بعينه، لن تثور البراكين كمدًا على واحد بين المليارات.. لكن حين يتعلق الأمر ب(كمال) ستفعل الطبيعة هذا بالنسبة ل(حسن) وأمه وربما أكثر.

لا لم يمت (كمال)، حتى الآن على الأقل، لكن إن لم يقم بعملية باهظة الثمن بالقلب، سيتوقف هذا الأخير عن النبض وتسلب روحه البريئة على مرأى ومسمع من أسرته.

تذكر (حسن العفي) كيف تعامل والده مع عمه أثناء مرضه. أخبر العم الجميع إنه مرهق للغاية وبالكاد يستطيع الحركة، أعتقد أبو (حسن) إن شقيقه الكبير قد صار مسنًا على عمل الأرض أو إنه يتحجج للتقاعص عن هذا اليوم، فعرض عليه

أن يقيم في بيت أسرته حتى تخدمه أم (حسن).. فرغم إن العم لا يفصله عن سن الأربعين سوى سنة أو اثنتين لكنه لم يتزوج بعد، متخذًا من بيت والديه المتوفيان مضجعًا لوحدته.

لم يبدي أحدًا اهتمامًا لرقدة العم، حيث كان (أبو حسن) وزوجته منشغلان حينها في التردد على الأطباء، ولم يكلفا خاطرهما بطلب طبيب العزبة لتشخيص حالته على أقل تقدير.. لم يكن برفقته سوى الصغير (حسن) قليل الحيلة، لكن بصيرته السابقة لحداثة سنه، أيقنت إن الأمر لم يمر ببساطة.. وبالفعل حدث.

مات العم بسبب اهمال أخيه الأصغر، الذي من المفترض أن يكون مسؤولًا عنه في هذه الفترة، تاركًا في نفس (حسن) شرخًا بفؤاده لن تداويه الأيام أو حتى السنين لأنه مات أمام عينه وهو غير قادر على عونه.. ربما بسبب هذا الأمر توقف أخيرًا والديه عن السعي للإنجاب، متعظين بإن كل من عليها فان حتى أشد الرجال قوة كالعم.

وها هو (حسن العفي) يتعرض لذات الموقف، مع خلاف إنه هو الأخ هذه المرة. لكن من أين يأتي بالمال اللازم للعملية؟ فهو يدخر المال لتجهيز الشقة التي سيتزوج بها من خطيبته (إخلاص).

لا.. لن يصبح مثل والده، لن يفضل حياته الخاصة على اسرته الحبيبة، لن يشهد على موت شخص أخر من أسرته أمام عينه دون حول أو قوة منه، سيتدخل هذه المرة، سيدبر أموال العملية مهما كلفه الأمر.. حتى لو إنتهى الأمر به يشحذ الصدقة والأحسان من الناس بالشوارع، حتى لو فسخ خطبته وعاش وحيدًا لأبد الدهر، حتى لو باع كل عضو من جسده تسديدًا لثمن العملية.. المهم إنه لن يترك أخيه يموت وحيدًا وسيثبت له إن هنالك من يقاتل لأجله.

راح (حسن العفي) يبيع كل شيء في طريقه، ما تبقى من فدادين والده وما ورثه من فدادين عمه، الشبكة الذهبية التي اشتراها ل(إخلاص) -التي تركته للزواج من إسكافي العزبة الجاهز من كل مستلزمات العروس-، منزل عمه القديم، كافة ذهب والدته ومدخراته من عمله غفيرًا للعمدة الذي هو أنت يا (مؤمن).

ورغم كل هذا، لم يحُصل سوى نصف المبلغ المطلوب، لكن (حسن) لم ييأس، فهذا ليس خيارًا في موقفه على أي حال. فراح يستعطف قلوب كل صديق أو غريب ليستلف من جيوبهم ثمن العملية، هنالك من أقرضه المال بطيب خاطر، وهنالك من أعتذر في أدب لعدم إمكانيته المادية، وهنالك من ادعى الفقر ليمتنع عن المساهمة في تخاذل.. المهم إن ما

جمعه لازال قليلًا والحيلة نفذت منه.

تذكر (حسن) حين كانا صغاران، يلهوان كالحمقى في بحيرة العزبة، لا يعلم (حسن) ما أصابه حينها لكنه وجد نفسه في الجزء الغويط من ماء البحيرة، ونسبة إلى وزنه وحجمه العملاق، فعلاقته مع السباحة مثل علاقته بفيزياء الكم، لا يفقه فيهما حرفًا.

وجد نفسه يرفص الماء، يتشبث بالهواء، يستنجد بالفراغ، ولكن لن يقدم أيٌ منهم على مساعدته.. أخوه (كمال) وحده من فعل! فرغم جسمه الهزيل وحيلته القصيرة، لم يكد أو يمل من محاولة جذب أخيه لليابسة أو حتى لأقرب منسوب يلمس فيه قدمه الأرض. وبالفعل نجح، رغم إن الأمر يبدو مستحيلًا من وهلته الأولى كما لو إنها قصة خيالية، لكن (كمال) وضع هدف إنقاذ أخيه ولو على حساب حياته الخاصة.. وبالمثل قرر (حسن) أن يفعل الآن.

حتى أتيت في باله يا (مؤمن)! كيف لم يفكر فيك من البداية وأنت رب عمله وصاحب الكثير من الأفضال على أهالي العزبة أجمعين، أنت أبو الكرم ذاته مع الجميع، وبالطبع لن تستخسر في شقيق غفيرك المخلص بعض الألاف وأنت بحوزتك ملايين مسبقًا.

فعرض (حسن) عليك الأمر يا (مؤمن) ولكن بعد تغيير

صيغته، في البدء كان يقول للناس إنه في حاجة لأي مبلغ مالي منهم مهما كان تافهًا، ليساعد على إجبار قلب أخيه في الاستمرار في ضخ الدماء لجسده. أما أنت يا (مؤمن) لست مثل بقية العامة، فأنت العمدة الذي تأمر فيطيعك الأخريين، أنت الذي مهما أهدرت من مال، سيظل جيبك عمرانًا وحياتك ميسورة، فطالبك (حسن) بالباقي من المبلغ المطلوب.

أظهرت يا (مؤمن) الكثير من التأثر الحقيقي، فقد كنت تحب (كمال) هذا كأبنك المتوفي، وترى إن له مستقبلًا مشرقا وكنت تنوي بالفعل المساهمة في جعل حياته أكثر بريقًا بالنجاح، سواء بإيجاد فرصة عمل جيدة لديك، أو بالتوسط لقبوله بإحدى الجامعات المهمة. فأخرجت من أحد أدراج مكتبك رزمة من الأوراق النقدية، تمثل عشرة ألاف جنية، متمنيًا له الشفاء!

أعتقد (حسن العفي) إنك تمزح يا (مؤمن)، فالمعلم (جابر) دفع له خمسين ألف جنية بكل نفس راضية دون أن يجبره على الإمضاء على إيصالات أمانة لرد هذه الأموال كما فعل معه الآخرين، وأخبره المعلم (جابر) إنه يثق في كلمة الرجال في رد النقود، وإن لم يفعل سيعتبرها صدقة من ماله ولن يطالبه بها يومًا!

فكيف للغريب الذي لا يربط بينه وبين (حسن) أي صلة، أن

يدفع له خمسين ألف جنيها، وأنت يا (مؤمن) من تعتبر رب عمله لا يخرج من ذمتك أكثر من عشرة ألاف جنيهًا؟

فقال (حسن) في حرج:

- يا جناب العمدة، إن عشمي بك بعد الله كبير، في أن تقدم لي الأموال التي تنقصني بالكامل، وليس جزء منها كالأخرين.

نظرت يا (مؤمن) له في تعجب، ثم راح (حسن) يتابع في لهفة كما لو إنه يتدارك موقفه في الحديث:

- سأرد هذه الأموال لجنابك بالطبع يا عمدة، أو أخصمها من راتبي إذا أردت، لكنك أملي الأخير في إنقاذ (كمال).

فأجبت يا (مؤمن) في ديبلوماسية:

- كان بودي أن أساعدك أكثر من هذا يا (حسن) فأنت تعلم إنك رجلي الأول الذي لا أستطيع الاستغناء عنه، لكن هذا ما بمقدرتي هذه الأيام، بالأخص إني مقبل على حملة انتخابية ضخمة لمجلس الشعب، وكافة سيولتي نفقتها على الدعاية

ثم علقت يا (مؤمن) مضيفًا وأنت تشير على النقود:

- كما إني ضاعفت لك المبلغ لتعلم كم أنك شخص مميز بالنسبة إلي، مهما بلغت الحالات التي تأتيني من فقر وحاجة، لا أقدم لهم سوى خمسة آلاف جنيه.

حاول (حسن) مجاراه الحديث قائلًا:

- خيرك دائمًا سابق يا عمدة، لكن حالتي خاصة أكثر من هذا، وأنا أستحلفك بعشرة الأيام التي قضيناها معًا.

- اعذرني يا (عفي) لكنه مبدأ واحد يسري على الجميع، إن ميزتك عن غيرك سيطمع بي الآخرون، ويسألون عن سبب شذوذك عن القاعدة، فيثوروا ليصيروا مثلك، وتحدث البلبلة والتمرد الذي يخسرني محبة الناس، ويتهموني بالتفرقة.. أنا أحقق المساواة يا غفيري.

قلت الأمر ببساطة يا (مؤمن) كما لو إنه عرف مسلم به غير سامح لأي نقاشات، فرد (حسن):

- لكنك هكذا لا تعدل بيننا يا عمدة، أنا حاجتي أكثر أهمية من الجميع، وبمقدورك مساعدتي، فلما إذا تمتنع عن الأمر، هل تخشى أن يتفشى الخبر بين العامة فيطالبوك بالمثل؟ ليكن إذا، لو علم مخلوق واحد بهذا الكون الفسيح عن مساعدتك لي، سأقدم لك كفني وكفن أسرتي أجمع إن رغبت، وأقسم إني سأفعل هذا دون تهرب، بروح أبي وعمي وأبنك وحياة أميـ.....

قاطعته يا (مؤمن) منهيًا الحوار:

- لا داعي لكافة تلك الأيمانات يا (عفي) فالسر إن كان بين

ثلاثة أشخاص لن يعد سرًا، سيتلعثم لسانك بالحقيقة تارة أو تثرثر أمك الطيبة العجوز عن الأمر مع جارتها الفتانة تارة أخرى، لا تنس إن عزبتنا ما هي إلا مجتمع مغلق، فسينتشر أتفه خبر بيننا كالنار في الهشيم.. أنا لا أريد العدل، تكفيني المساواة التي ترضيني وتسد الأفواه المتسائلة.

أراد (حسن) أن يصرخ بك يا (مؤمن)، أن يزيح قناع الطيبة تلك عن وجهك أمام أهل العزبة ليظهر الثعلب المكتنز وراءه، أن يسرقك عنوة أنت وأهل دارك أجمع وهو واثق إنه مهما نهب منك سيظل معك الكثير الذي تعوض به خسارتك، بل كان لديه الاستعداد لتقبيل أقذر أحذيتك إن رغبت لتمده بما يحتاج من مال.

لمحت شرارات الغضب وهي تتكون حول عيني (العفي) فأسرعت قائلًا:

- يمكنك أن تأخذ بقية الأسبوع أجازة مدفوعة الأجر، حتى تنتهي من أمر أخيك هذا، عسى الله أن يوفقك ويكتب له الشفاء العاجل.

كان يريد أن يبصق على المال القليل الذي قدمته له يا (مؤمن)، لكنه أخذه، لم يكن مكسور الخاطر أو معدوم الحيلة في نظرته، بل أخذ (حسن) المال متبعًا مبدأ: الذي يأتي من ورائك، خيرًا منك شخصيًا.

لم يأخذ (حسن) الأجازة، بل ظل يعمل في ظلك بكل إخلاص دون أن يفاتحك في أمر عملية (كمال) تلك من جديد، حتى ظننت إنه دبر أمرها بطريقة ما. لكن من يتصور إن الحقد كان يحتشد بقلبه طوال تلك الفترة محرضة إياه على قتلك يا (مؤمن)؟ وها هو الآن ينزل بعتلته المعدنية صوب رأسك بقوة غل قادرة على شق الحجر.. أنت لم تتوقع هذا يا (مؤمن).. أبدًا لم تفعل.

***

باللحظة الأخيرة يا (مؤمن) تفاديت العتلة التي علق طرفها المدبب بمكتبك، محدثًا فيه ثقب مخترقًا خشبه. ابتلعت ريقك توجسًا وأنت تحملق بسطح المكتب المخرب، متخيلًا كيف سيضحى مصيرك إن لم تتنحى جانبًا بالوقت المناسب!

حاول (حسن) إخراج العتلة لمعاودة الكرة في تهشيم رأسك يا (مؤمن) لكنه لم يستطيع، يبدو إن الضربة كانت أقوى من اللازم حتى غرست العتلة بسطح المكتب كمتحابان يتلقيان لأول مرة بعد شوق، أو ربما أبت العتلة طاعة (حسن) خوفًا من مصيرها الدامي بين يديه، فكان أمام (حسن العفي) أما أن يستمر بالمحاولة لتحريرها، أو ينسى أمرها ويصبح أعزلًا مثلك يا (مؤمن)؟

على أي حال لقد اتخذ (حسن) قراره أسرع من اللازم، كما لو إنه لا يريد إضاعة ثانية واحدة قد تستغلها ضده يا (مؤمن)، فراح يسدد لوجهك لكمة بقبضته القوية وأنت حتى الآن يا (مؤمن) لم تستوعب الأمر بالكامل بعد.. فربما الآن (حسن) أعزل من أي سلاح لكن قبضتيه أكثر فتكًا من كافة الأسلحة مجتمعة.

- ما الذي تفعله أيها الوضيع؟.. ابتعد عني.

قلتها يا (مؤمن) كرد فعل طبيعي على ما حدث، لكنها لن تفيدك بأي شي. فتلقيت بوجهك وبمعدتك عدة لكمات يا (مؤمن)، لكن ما حرصت عليه -وهذا هو الأكثر أهمية- ألا يمسك (حسن) بعنقك أو يتشبث بتلابيبك، فأنت الآن لازلت حرًا، تستطيع تفادي الضربات حينًا أو التراجع والفرار حينًا أخرى، لكن إن سقطت بين براثنه، ستضحى معدوم الحيلة ويحسم النزاع لصالحه في ثوانٍ.

بدأت تتقهقر وأنت تبحث عن أي شيء من حولك تستخدمه كسلاح، ولكن هل ستجدي زجاجات الزيت أو مكعبات الجبن في وقف هذا الخرتيت؟ بالطبع لا، أنت يا (مؤمن) في حاجة لشيء أكثر وزنًا أو أسرع مفعولًا.. حتى وقعت عينك على الغرض المناسب.

رحت تبادله اللكمات لكنها لم تكن ذو مفعول مؤثر عليه،

فرغم عودك طويل القامة يا (مؤمن) لكنك لست بالعريض المنكبين أو مفتول العضلات، فأنت أقرب للنحالة من الجسد العادي.. ولا تنس إنك ترتدي حلة رسمية وفوقها عباءة تعيق حركتك نوعًا ما، أم (حسن) يرتدي جلبابًا يسهل عليه الحركة كمصارع محترف. ثم غيرت استراتيجيتك وأنت تقذفه بكل صغير وكبير يصادف يدك، بعضها انحرفت عن هدفها والبعض الآخر أصابت وجهة بحرفية قناص، لكنها لم تزيده إلا غضبًا، كما تفعل الأقمشة الحمراء بالثيران.

شرع (حسن العفي) في توجيه اللكمات لتلك الأشياء التي تقذفه بها يا (مؤمن) كما لو إنه يرد لك الضربة كلاعب كرة تنس محترف، فانتظرت اللحظة المناسبة للكمته التالية، ووضعت أمام صدرك جيوالًا من دقيق الطعام، بالطبع ليس هذا السلاح السري الذي خططت له، لكن الجيوال قد انشق من النصف بفعل لكمة (حسن) وهذا هو المطلوب.

قذفت يا (مؤمن) الجيوال صوب (حسن)، لينتشر منه الدقيق وتتبعثر حباته في كل أرجاء الكشك وبالأخص على وجه (حسن) الذي اقتحم عينه فحالها لجمرة بركانية من فرط الإحمرار والألم بها، وربما الغضب كذلك له عامل في تكوين هذا اللون! غزى المسحوق الأبيض أنفه وبالتالي رئتيه فأضحى التنفس في تلك السحابة الضبابية أمرًا مستحيلًا،

تراجع (حسن) بضعة خطوات وهو يسعل وملوحًا بذراعيه في الفراغ ليزيح هذا الغبار عن مجرى تنفسه، وكانت تلك فرصتك المناسبة يا (مؤمن) لتنقلب الآية.

فأحنيت ظهرك وأنت تركض صوب (حسن) كالصاروخ، صدم كتفك بمعدته، وحاولت تقييد ذراعيك حول خصره حتى تحكم الخناق عليه وتجبره على الركض مثلك، ولكن للخلف قبل أن يستعيد اتزانه. حتى صدمت ظهر (حسن) في عارضة الكشك الزجاجية ليتهشم هذا الأخير لقطع متفاوتة الحجم فوق رأسيكما.

تقهقرت يا (مؤمن) عن (حسن) الذي ظل يتأوه من ألم ظهره وهو يغمض عينيه ويجز على أسنانه في توجع، وأنت تقول محاولًا تهدأته:

- هل جننت يا (حسن)، كيف تجرؤ على التعدي على العمدة، هل تفعل كل هذا لأنني لم أدفع ثمن عملية أخيك، هل تظن إن بموتي ستبتاع حياة (كمال)؟

كم أنت فاشل في كظم غيظ أحدهم يا (مؤمن)!، لقد فتح (حسن) عينيه التي كانت حمراء كالدم، ونظر لك يا (مؤمن) بغضب لم تتصور يومًا أن تتلقى مثل تلك النظرة يومًا ما بل لم تظن إنه من الممكن أن يكمن شخص لغيره قدر هذا الكره.

- إياك أن تنطق أسمه.

ثم قرر (حسن) أن يرد ذات ضربتك بحذافيرها، في خلاف إنك كنت أرفع منه بكثير يا (مؤمن) فلم يحتاج الأمر للكثير من المجهود لينطلق بك كالقذيفة صوب الجدار الخشبي المقابل بعد أن نهض من بين هشيم الزجاج.

انزلقت قدمي (حسن) أثناء ركضه بسبب ما تبعثر من بضائع الكشك على الأرض، ففقد توازنه مخترقًا معك الجدار الخشبي بدلًا من قذفك أنت فحسب يا (مؤمن) صوبه، فأفترش كليكما الأرض متأوهان، ولكن لازال الضغينة حاضرة ولن تنتهي إلا بتحويل الآخر لجثة نافقة.

طالعت المكان من حولك لتجد إنك بأرضية الحمام المرفقة بالكشك، إنها المرة الاولى يا (مؤمن) التي تتعرض لمثل تلك المواقف، بالطبع لقد حاول الكثيرين التشاجر معك من قبل، لكن تلك المرة الوحيدة التي تشعر بها إنك أعزل، فدائمًا ما كنت ترمي الأمر على غفرك المخلصين لنجدتك دون أن توسخ يديك، ولم تعد حسابًا لليوم الذي ينقلب فيه حرسك عليك.. لكن مهلًا! أنت لست أعزلًا! أنت بحوذتك سلاحًا ناريًا قادرًا على حسم هذا النزاع بضغطة زناد واحدة، إنه بأحد أدراج مكتبك وعليك الحركة الآن.

حاولت النهوض يا (مؤمن) لكن يد (حسن) تشبثت

بكاحلك كالقروش المفترسة، استغللت حرية ساقك الأخرى ورحت تصوبها نحو رأسه بكل ما تبقى لديك من قوة، حتى اصطدمت رأسه بقاعدة الحمام الرخامية بالخلفية كاسرًا إياها. بالطبع رأس (حسن) المصفحة لم تتأثر بالأمر أكثر من حيذ الصداع.. سيتعافى منه بعد دقائق دون شك، فلم تدمى رأسه أو يفقد الوعي حتى الآن رغم كل هذا المجهود، لكنك يا (مؤمن) على الأقل ضمنت دقيقة أو اثنتين تأتي فيهم بالمسدس.

نهضت من بين الأنقاض صوب المكتب مترنحًا، وأنت تشعر بالألم يغتصب جسدك، أرحت جسدك على الكرسي، فأنت بالكاد تستطيع الوقوف بعد هذا الجهد المبذول، لكن هذا ليس مبررًا لأخذ قيلولة أو استراحة قصيرة، عليك الحركة الآن.. العجيب بالأمر إنك لن تتعرض لهذا الكم المبرح من الضربات الذي يجعل جسدك رخوًا بهذه الطريقة يا (مؤمن) أنت لم تشارك في قتلًا مصيريًا كهذا من قبل لكنك تعلم جسدك جيدًا وتعرف قدر تحمله سواء أحمال أو حتى ضربات، وأنت تقسم إن هنالك عامل خارجي يؤثر عليك بهذه الطريقة الفجة.

رحت تفتح الدرج الأول من المكتب لتجد به بعض الأوراق التافهة في موقفنا هذا، لا بأس لا بد إن سلاحك الناري

بالدرج الثاني لكنك لم تجده من جديدا، أنه بالدرج الثالث والأخير لا محالة، هكذا قلت لنفسك مطمئنًا، لكن الدرج الثالث لم يختلف عن قرينيه في شيء على الأطلاق!

كيف يختفي المسدس هكذا دون أثر؟! إنه ليس غرضًا صغير الحجم يصعب إجاده، أو غرض تافه يمكن وضعه بأي مكان ونسيان أمره. فعاودت فتح الأدراج من جديد في ثورة يا (مؤمن) حتى كادت تكسر بين قبضتيك، ثم شرعت في تفتيش جيوبك وثنايا ملابسك لعلك أعدت المسدس لها رغم تأكدك إنك لم تفعل.. هذا هو المشهد الذي رأيته مع (فوزي) حين كان يبتاع السجائر، لقد كنت متأكدًا أنه لمحة من ماضي.

رحت تزيح العباءة من عليك، لتخفف عن كاهلك بعض الوزن، وأنت تفكر، هل من الممكن أن يكون بالسيارة؟ احتمال ضعيف لكنه الحل الوحيد الماثل أمامك.

لم تلبث يا (مؤمن) أن تنهض من مقعدك كي تهرع صوب السيارة، حتى فوجئت بكف (حسن) تتشبث بمؤخرة رأسك دافعة إياها بعنف صوب المكتب، فخر جسدك على الكرسي من جديد ورأسك على المكتب كما لو إنك فقدت الوعي أو فارقت الحياة. لكن (حسن) لن يكتفي من الأمر بعد، عليه إتمام مهمته حتى الرمق الأخير منها.

- لم أتخيل إن إبدال حبوبك المنشطة لأخرى مهلوسة، سيكون لها هذا المفعول الساحر.

الآن فهمت يا (مؤمن) لما كان عقلك بالبداية بطيء في اتخاذ القرارات، ولولا الخوف والأدرينالين الفائر بشرايينك، لما نجوت بحياتك لهذا الوقت، أنت لا تحارب (حسن) فحسب، بل تقاوم جسدك المخدر كذلك.

ألتفت (حسن) لأحد الأرف الخشبية خلفه بالكشك التي تتراص عليها البضائع، أزاح ما عليها بأهمال ليقوم بسحب الرف خشبي ذاته بعنف، متعلقة به المسامير التي كانت تثبته بالحائط يوما ما، رفعه لأعلى بكلتا يديه أملًا في إنهاء هذا النزاع لمصلحته، لكنك أفقت يا (مؤمن) مباغتًا إياه بحركة لم يتوقعها على الإطلاق، بل لم تتوقع أنت شخصيًا إن بجسدك الطاقة على حمل (حسن) من وسطه لأعلى ثم النزول به مستعينًا بالجاذبية وقوة دفعك صوب المكتب، الذي لم يتحمل هذا الأخير تلك الضربة، مقررًا إن هذا سيكون الأستخدام الأخير له، فسقط معهما متحطمًا عن آخره.

من جديد كلاكما يتألم، كلاكما خائر القوى، كلاكما مجهد، كلاكما ينزف الدماء من مناطق متنوعة بالوجه، كلاكما على الأرض، كلا وجهكما يغطيه قناع من الدقيق، أخطلت العرق

والدماء به صانعًا إحدى أبشع أقنعة الموت.

الآن فحسب يا (مؤمن) لمحت مسدسك قابعًا بكل وداعة بأحد أدراج المكتب الذي طار بعيدًا بفعل سقوط قنبلة عليه متمثله في جسد (حسن العفي)، لقد كان هنالك منذ البداية لكن عينك خدعتك بفعل الحبوب المهلوسة، وربما هذا مجرد سراب ولازلت تتعرض للأحتيال من قبل عقلك. بجانب إنك أبصرت هاتفك هو الآخر ملقى بأهمال في إحدى زوايا الكشك، كما لو إنه ظهر من العدم، يبدو إنك دسسته في أحد أدراج المكتب هو الآخر لكنك نسيت! كما غفلت إن إخلاص غفيرك ليس دائمًا.

أفق يا (مؤمن)، فأنت العمدة الذي لازال لديك خطتك المستقبلية التي لم تحقق منها سوى جزئًا بسيطًا. بعد وفاة ابنك الذكر الوحيد الذي كنت تأمل منه أن يصير خليفتك في النفوذ ووريثك في السلطة، قضيت أيامك تعمل كالرجل الألي منعدم الشعور، كنت تريد أن تداري حزنك في أي شيء، حتى لو كان هذا الشيء يحول شخصيتك من الطيبة المعهودة التي يشيد بها الجميع، لإنسان خبيث همه الأول في هذا الحياة هو مصلحته.. افعل المثل الآن أيها الضعيف وقدم حياتك على أي شيء، فهي أغلى ما تمتلكه الآن.

تطلعت حولك مفكرًا بخطوتك التالية حتى تعثرت عينك

بعتلة (حسن) التي تحررت أخيرًا من قيدها، فرغم صدأها لكنها كانت تلمع في مقلتيك بشهوة قاتلة، هرعت تلتقطها كالذئب، ووثبت من رقدتك كالقرد جالسًا فوق صدر (حسن) الممدد بجوارك، ثم وضعت العتلة على رقبة (حسن) بشكل عرضي مانعًا الهواء من بلوغها مثقلًا عليها بوزنك بأكمله كالفيل.. كان بودك أن تنقض على مسدسك، منهيًا هذا النزاع بضغطة زيناد واحدًا، لكنها كان أبعد من أن تبلغه يدك على نقيض العتلة القريبة، ثم إنك لازلت غير واثق بعقلك حتى الآن، فكما أخفاه من أمام عينيك بالمرة الأولى قد يتآمر ضدك مرة أخرى بأي شكل من جديد.

لقد فعلت الكثير في أقل من ثلاث ثوان، لا يقدر عليها جسد آدمي منهك كخاصتك. كما لو إن طاقة حيوانية نبتت بك من العدم، لتذكرك بصفة تفضيل البقاء الغريزية الكامنة في أحشائك.. فقد أن الاوان لتتحول الفريسة إلى المفترس.

حاول (حسن) رفع العتلة عن رقبته، لكن الأكسجين البالغ رائتيه شرع في الأضمحلال بالفعل، مقلصًا قواه للنصف تدريجيًا. حاول لكمك يا (مؤمن) أو دفع رأسك للخلف أو حتى فقع عينك إن لزم الامر لتحل عن مراوحه، رغم هذا كانت أنامله رخوية ضعيفة، بالكاد تصل لوجهك أو تؤثر فيك بشيء إن لامست جبهتك.

بصقت يا (مؤمن) كتلة من الدماء تحشرجت بحلقك بعيدًا، مصحوبة بأحد أسنانك التي خارت قواها من التمسك بمضجعها عقب تلك المعركة.. ذكرتني بالأسنان التي وجدها (فوزي) بجيبه في نهاية اليوم، إن لم تكن هي بالفعل!

لتصرخ بجنون في وجه (حسن) الذي بات أشبه بكراسة تلوين الأطفال لكثرة أختلاط الألوان بها.

- لن أموت اليوم يا (عفي).. هل تسمعني؟.. من سيموت هو أنت وأخوك من بعدك، أما أنا ستظل روحي حاضرة حتى بعد وفاتي لتقضي عليكم جميعًا..

ثم شعرت يا (مؤمن) بتلك اليد التي تجذب شعرك للخلف، ليس لكي تبتعد عن (حسن العفي) بل لتستقيم رقبتك، ويكون من السهل تمرير طرف الزجاج الحاد هذا عليها، ممزقة جلد رقبتك وكافة شرايينها، ثم أحبالك الصوتية، ثم قصبتك الهوائية.

لقد أخذك الغرور يا (مؤمن) أو إنه لازال تأثير الأقراص المهلوسة التي أنستك المرافق الذي كان مع (حسن) على التروسيكل، المهم إنك لم تلحظه وهو يتسلل للكشك على أطراف أصابع قدميه، متخذًا أكبر قطع زجاج الواجهة المحطم سلاحًا لنحر عنقك.

سقطت على الأرض قابضًا على رقبتك، بكل ما أوتيت من قوة، بالطبع تعلم إن هذا لن يفيد بشيء، أنت بعداد الأموات الآن، لكنك على الأقل تريد معرفة قاتلك الذي طعنك من ظهرك بتلك الخسة.. ومن أوضع بتلك العزبة غير (وجدي) ليفعلها، يبدو إن من فرط تعامله مع فتيات الليل، أخذ من طباعهم أنعدام الشرف.

كان السائل الأحمر يسيل من رقبتك كالنافورة يا (مؤمن)، صانعة بركة متحركة من الدماء القانية، تلطخ أي شيء في طريقها حتى العتلة التي كانت من المفترض أن تتشرب دمائك، لم تكن هي المسؤولة عن سيل هذه الدماء، لكنها تشربته بنهاية المطاف.

رأيت (حسن العفي) وهو يقف بجوار شريكه بالجريمة مدلكًا رقبته وهو يعبئ هواء الكشك بقدر ما يستطيع في رائتيه تعويضًا عن الأختناق الذي تعرض له.

تعلم يا (مؤمن) إن هذين الأثنين أغبى من أن يقدما على قتلك أو يفكرا بالأمر حتى، أحدهما باع نفسه لبيت دعارة مع أول مأزق يواجهه، والأخر لا يستطيع الأعتراف بأن الموت سيصيب الجميع يومًا ما. هنالك من دبر هذه الجريمة، هنالك شريك ثالث في تلك اللعبة الدنيئة.. من هو يا ترى؟

مع الأسف يا (مؤمن) لقد غاب بريق الحياة عن عينيك

وتوقف جسدك عن الحركة، دون العلم بأجابته، قد تعرف روحك الحقيقة يومًا، وقد لا تعرف أبدًا.

أما الآن علي المغادرة عن هذه الذكريات، وعن العزبة بأكملها، فقد باتت الحقيقة واضحة.

***

التفاحة الثالثة والعشرون

كانت (ورد) هي الشريكة..

بل هي الزوجة التي شاطرتك يا (مؤمن) في كل شيء، منذ أن كنت صغيرًا وهدفك الأوحد هو التعليم وحتى صرت قريبًا للكهولة ولازالت لديك أحلام متجددة يوميًا. كانت تؤيد كل أهدافك بل تسعى لتطويرها معك، تنصرك دائمًا حتى في قسوتك على فتياتك أو على الأغراب، بحجة إنك المتعلم الأدرى بمصالح الأمور، في حين إنها جاهلة، أقصى ما بوسعها فك الخط بعد محاولات عديدة من فتياتها لأتقان الأمر. رافقتك خطوة بخطوة، في تحويل عائلتهم (الشبراوية) من محض أسرة ترث لقب العمودية عبر الأجيال سأم منهم الأهالي، لأمبراطورية استثمارية ضخمة، تملك محلات لا تدري عددها لكثرتها في كافة التخصصات، ويعمل في خدمتها مئات أو ربما ألاف الموظفين الذين يتقاضون رواتبهم من خيرها هي وزوجها.. كانت دومًا لك يا (مؤمن) خير الزوجة والسند التي تقف خلف الرجل الناجح مثلك..

مهلًا مهلًا، لما أنا لازلت بذكريات (مؤمن)؟ لقد مات في الكشك، ولم أتحرك من جانبه حتى خرجت روحه من مضجعها بالفعل، أي إنه لم يتم إنقاذه بطريقة ما بعدها، إذا لمن تلك الذكريات التي لاأزال أتجول بين أروقتها؟ هذه

ليست ذكريات مقحمة على العقل أو مزروعة به بطريقة ما أو حتى هلاوس سكرات الموت، فبعد ألاف السنوات التي عشتها أزاول فيها النيكروماسر، أصبحت محترفًا لأميز بين أنواع الذكريات.

أما هذه الذكريات التي أنا بصددها الان، فهي حقيقية عن بكرة أبيها، ولكن لمن؟ يبدو إن الجثة التي أمارس عليها النيكرومانسر الآن ليست ل(مؤمن الشبراوي) وبالطبع ليست ل(حسن العفي) أو (وجدي المجذوب) اللذان كانا في ساحة المعركة، فقد أستجوبت عقليهما من قبل.

كان بودي حتى الزعم إني بعقل أحد أعضاء اسرة (الشبراوي) بشكل عام، لكن حتى هذا ليس بأحتمال أكيد رغم إن الجثة قابعة بمدفن عائلتهم، فلازالت احتمالية إن كيان الطريق يعبث بي قائمة، سأجاريه في لعبته حتى أكون الصورة الكاملة عنه.

عاودت متابعة الذكريات لأجد إن (ورد) وبناتها الثلاثة في دوار العمدة، كلًا منهن ترتدي ملابس الخروج وليست بأزياء البيت العادية المريحة، إنهن في انتظار إشارة ما ليهجروا البيت في أي لحظة. لكن ما تلك العلامة التي يترقبونها في هذا التوتر المقبض للقلوب.

كان التلفاز مفتوحًا حينها على أحد المواقع الإخبارية

وهي ترصد انفجارًا ضخمًا بأحد المصانع المهجورة بالقاهرة، اهتزت مصر بأكملها من دوي الحادث، الذي لم يستدل على السبب فيه بعد، لكن الأخبار تزعم أما إنه عبوة إرهابية متفجرة أو تسرب غاز قريب من المكان.

لدي شعور إني رأيته من قبل! ليس الخبر فأنا لا أتابع أمور البشر السخيفة تلك بل المصنع ذاته كما لو إني زرته سابقًا، لكن لا يهم الآن، سأتذكره فيما بعد.. اعتقدت أن أحد أقرباء العائلة قد أصابه مكروه بهذا الانفجار لهذا تعتريهم هذه الحالة من الانفعال، لكن إحدى الفتيات أغلقت التلفاز في لا مبالاه وعينيها تحمل نظرة إن فيهم من المشاكل ما يكفيهم، نافية كافة شكوكي.. إذا ما سبب هذا التوتر؟

(ورد) تجلس على إحدى الأرائك وهي تهتز بظهرها وعنقها للأمام والخلف في حركة عصبية مجهده لفقراتها العجوزة، (سمر) الكبرى تعقف شعرها للخلف كذيل حصان، وهي تتحرك ذهابًا وأيابًا بالصالة دون وجهه، آملة في إضاعة الوقت، (فرح) الوسطى تضرب قبضتها اليمنى في كفها الأيسر في قلة حيلة كغيرها، (قمر) تنظر إلى أقرب ساعة سواء المعلقة على الحائط أو بهاتفها المحمول أو المعقودة حول ساعدها، كما لو تستنجد الوقت أن يمر بسرعة.. حتى دخل من باب الدوار مهديء نارهم أخيرًا.

كان (جابر الشبراوي) من اقتحم المشهد ويحيط به مجموعة من غفره. نظروا له بترقب، فتطلع لملابس الفتيات الملونة بقهر وهو يقول:

- غيرن يا فتيات تلك الملابس واتشحن بالأسود كأمكن، وادعوا بالرحمة لأبيكن.

كلمات قلائل، لكن لكل حرف منها تأثير الصاعقة التي تضرب بقلوب الأربعة بلا تمميز أو رحمة، هنالك من شهقت في فزع، وهنالك من لطمت خدها في غير تصديق، وهنالك من انتفضت من موقعها مقتربة من (جابر) كما لو إنها تكذب أذنيها وتريد سماع جملته الأخيرة تلك مرة أخرى، وهنالك من أجهشت في البكاء بعدما أنهارت على الأرض.

هبت (ورد) من مقعدها وهي تصرخ في (جابر) مطالبة إياه أن يعيد ما قاله مع مزيد من التوضيح، ليس غضبًا منه ولكن لمداراة قلبها المشتعل بالحرقة، ليجيبها وهو يجلس على أقرب أريكة لتلاحظ عينيه الحمراوتين من فرط البكاء وهو يقول:

- لقد أتاني استدعاء من نقطة الشرطة خارج عزبة الجزيرة، وحين سألت عن السبب قالوا إنه...

عزبة الجزيرة! هكذا إذًا كانت تدعى العزبة قبل أن تنمو

شجرة التفاح على قارعة طريقها.

فقاطعته (سمر) الأبنة الكبرى في حدة:

- قالوا إنه أمر بخصوص والدي، فأنطلقت معهم برفقة محامي العائلة ثم هاتفتنا بالطريق، طالبًا منا أن نستعد للذهاب للقسم حين تعاود الأتصال، فربما أبي بمشكلة ما ويحتاج لدعمنا أو الأمر تافه وسيتم فضه في أقل من خمس دقائق، لكن علينا الأستعداد.

بكل مرة كانت تنطق بها لفظ (والدي) كانت الدموع تذرف من عينيها بلا سيطرة عليها ودون أن تشعر هي ذاتها بها، لم ترفقها بأي ترحم على روحه كما لو أن عقلها لم يستوعب الأمر بعد ولن يفعل أبدًا.

ثم أكملت (فرح) الابنة الوسطى، على حديث أختها بذات السأم بعدما استشفت إن (سمر) تشعر بغصة في حلقها بالكاد تسمح لها بالتقاط أنفاسها، لكنها لن تعاونها على نطق المزيد من الكلمات.

- نحن نعلم كل هذا، ومن حينها ونحن ننتظرك على أحر من الجمر، هل بأمكانك الدخول لصلب الموضوع؟

في ظروف أخرى، كان (جابر) سيصفع كليهما عقابًا على علو صوتهما على حضرته بهذا الطريقة عديمة الذوق أو

التربية، لكنه يقدر فقدتهم التي لن يعوضها صراخ العالم أطمع.

- حين بلغت قسم الشرطة، لاحظت التوجس على كل العاملين به، من أصغر عسكري حتى وكيل النيابة ذاته، الذي أبلغني إن أخي الحبيب قد نهشت جثته الضباع بالأمس، بعدما استفردوا به بالكشك القابع على الطريق.

صمت هنيهة كما لو إنه يكتم دموعه، هو عمود الأسرة الآن بعد أخيه الذي إذا أنهار، سيسقط الجميع في أعقابه، عليه أن يتحمل حتى يشجعهم على تجاوز المحنة.

- لقد قيدت القضية على أنها حادث، وحصلت على تراخيص الدفن، وسنقوم بدفنه في مقابر العائلة اليوم عقب صلاة العصر.

كانوا جميعًا في حالة من الذهول، من إنكار الحقيقة، من الانفصال عن الواقع، لكن عقل (سمر) تنبه لتلك الكلمات الأخيرة لخروجها عن المألوف، فعلقت معترضة، متحشرجة الصوت:

- مهلًا لحظة، كيف أثبت الطب الشرعي أمر الضباع هذا وحصولك على أذن الدفن بتلك السرعة بين يوم وليلة، فهذه الأمور تأخذ قرابة الأسبوع، لابد من إن هنالك خطأ ما.

فأستغلت (قمر) الأخت الصغرى، الفرصة لتقول من بين دموعها بعدما وجدت أملًا ولو مجرد احتمال واهي أن يكون والدها حي:

- بالفعل قد يكون وقع خطئًا ما، علينا الذهاب لنقطة الشرطة بأنفسنا لنتأكد.

ضرب (جابر) بساقه على الأرض، ليجذب الانتباه إليه قبل أن تتفشى البلبلة بين الفتيات، قائلًا بحزم:

- لقد تم أغلاق القضية وقضي الأمر، لنصب تركيزنا الآن على الدفنة والجنازة.

- ما الذي تعنيه بهذا الهراء، هذا والدي، وسأذهب لرؤيته ولن يمنعني شيء عن هذا.

قالتها (فرح) في حرقة وهي تتوجه صوب باب الدوار للخروج منه، لكن اعترض طريقها اثنان من غفر أبيها مانعين أياها عن الخروج. حاولت أن تأمرهم بالأبتعاد، أن تزيحهم جانبًا بالقوة، أن تستعطفهم لكي ترى ما حدث لأبيها ولو لمرة واحدة، أن تذكرهم بأنه كبيرهم الذي يعتبرهم أفراد من عائلته وليس غفر لديه، أن تذكرهم إنهم مجرد موظفين لديها وعليها طاعتهم وإلا فصلتهم. جربت كل طريقة طرقت لذهنها، ورغم هذا كله لم يتحرك أي منهم قيد أنملة،

متحاملين على تمزق أفئدتهم إثر نحيب الفتاة وقلة حيلتها.. لكن أوامر (جابر) كانت واضحة في غلق كافة منافذ الدوار دون أي تساهل مع أي أحد من العائلة أو حتى الخدم.

قررت (ورد) أن تتدخل أخيرًا وتسأل في حدة:

- لتجب يا (جابر) دون مراوغات، لِمَ أُغلقت القضية بتلك السرعة؟

- هل حقًا تريدين مني الرد على مرأى ومسمع من الجميع؟

ربما (ورد) امرأة طيبة جاهلة، لكنها لم تكن أبدًا ببطيئة الفهم أو محدودة الذكاء، فوجهت أمرها للفتيات أن يصعدن لغرفهن ويبدأن في تغيير ملابسهن استعدادًا للجنازة. حاولت إحداهن أن تستفهم عن سبب تغير موقف أمهن بهذه السرعة لكن (ورد) قاطعتها بأن ينصاع الجميع لتكليفها دون نقاش.

فتدخل (جابر) في الحوار قائلاً كما لو إنه تذكر شيئًا لتوه:

- ليسلم كل منكن هاتفه المحمول أو اي متعلقات إلكترونية للغفر، وستستلمونها بعد الدفنة.. و كونوا عالمات بأن الحراس يحيطون الدوار من الخارج وكافة مخارجة. فلا داع أن تتباها إحداكن برشاقتها وتسلسل من النوافذ أو تتسلق المواسير، سنخرج من هنا جميعًا على الصلاة ثم الدفنة مباشرة، وغير مسموح الحديث مع أي أحد أو الذهاب لأي

مكان قبل هذا الحين.

نظرت الفتيات لأمهن، أملاً في أن تنصف موقفهن أو تدعم كمدهن.. لكن (ورد) ألتزمت الصمت معلنة موافقتها على كلام (جابر) رغم إنها لا تفهم السبب وراء كل تلك الاحتياطات.

مرت بضعة دقائق قبل أن تختفي الفتيات في غرفهن بالطابق العلوي من الدوار، وهن مطأطأت الرأس، وتذرف الدموع على وجنتي كلا منهم. هنالك من راحت تبكي وتصرخ بكل ما أوتيت من قوة وهي تدس رأسها بالوسائد، وهنالك من نظرت للأفق من نافذتها لاعنة شقائها والعالم على خسارتها المتلاحقة، وهنالك من اكتنز جسدها الصغير في أحدى زوايا غرفتها باكية في صمت جاهرة بخوفها من قسوة الحياة بعدما رحل الجميع ولم يتبق سوى القليل.. المهم إنهن اختفين جميعًا من صالة الدوار.

أوصى (جابر) غفيرين بالتمركز على سلالم الطابق العلوي لمراقبة الفتيات إن حاولت إحدهن الهرب أو شيء مجنون آخر قد يحث عقولهن الحزينة على تنفيذه كالأتيان بسلاح أو التهديد بالانتحار.. ثم أمر الباقي بأنتظاره بالخارج حتى يتحدث مع أرملة أخيه على انفراد.

جلست (ورد) جوار (جابر) ثم أخذت شهيقًا عميقاً تحاول

به منع نفسها من البكاء رباطة جأشها قدر ما تستطيع، ثم قالت بعد دقيقة من الصمت ترتب فيها أفكارها وتستعيد كافة ذكرياتها مع (مؤمن) في الأعوام الأخيرة:

- هل كانت من عزبتنا؟

رفع (جابر) حاجبه وهو يقول في دهشة:

- أتعلمين بأمر خيانة زوجك أذاً؟!

- اخرس.. لم يولد بعد الشخص الذي يعيب في زوجي أو يتهمه بجريمة عظيمة كتلك.

تنهدت في قلة حيلة ثم غمغمت مكملة إنها كنت على علم إن ل(مؤمن) أصبح يشعر بالنفور منها، لم يعد يبادلها الحب الذي تعاهدا أن يخلصها في جهره للأخر مهما تقدم بهم الزمن أو وقفت ضدهم الظروف. لكنهما لم يعملا حسابًا للموت الذي أتى على حين غرة يفرق بين شملهم ويحول ما يربطهم إلى هشيم.

أخذ الموت صغيرهما الذكر الوحيد، فتحول على إثره الجميع، رغم إنه شابًا واحدًا على ثلاث شقيقات، لكنه لم يكن أبدًا بالمرفه أو ضعيف تحمل المسؤولية، بل كان متفوقًا دراسيًا لأبعد حد، وبالأجازات كان يرافق والده في إدارة مشروعاته رغم إن (مؤمن) لم يطالبه يومًا بهذا الأمر. كان

دوما محبًا للأجتهاد في كل شيء سواء العمل أو الدراسة، يكسب رضا الجميع ويبدل الخير مع الكل.

ولكن بعد أن كسب الصبي لقب المرحوم، تغير (مؤمن) من معطاء متسامح، لخبيث متخاذل. في البدء كان يعمل ليوفر لصغيره كل سبل الراحة حين يكبر ولا يجعله يعاصر ذات الصعوبات التي مر بها في حياته، ولكن بعد وفاة وريثه في العمودية تغير سبب العمل.

كان يعمل كالقطار لأكثر من عشرين ساعة يوميا، بهدف إنهاك عقله فلا يفكر في ابنه الفقيد أو يتمزق فؤاده على فراقه، ولأرهاق جسده فيعاود منزله للنوم دون السماح لذكريات الماضي بالتسلسل لأساريره. كما أخذت (ورد) عهد على نفسها بعدم مفارقة الأسود في ملابسها حتى آخر العمر. وبالمثل حاولت (سمر) تعويض أبيها عن أخيها الأكبر، فأخذت ترتدي الملابس الذكورية من القمصان و السراويل الواسعة مستغنية عن التنورات والفساتين النسائية، مع التخلص من كافة زينتها من أقراط للأذن ومستحضرات التجميل، مع عقف شعرها على هيئة ذيل حصان دون إطلاق حريته كأختيها، لتعطي إيحاء للغير بإنها أصلب من أي فتاة ولا تقل في شيء عن أي فتى، فلولا الملامة لقصت شعرها ذاته في تقرب أكثر لصورة الصبيان، كل هذا ليشعر والديها

إن إبنهما لازال حيًا بروحه في مكان ما وسطهم، وبالمثل فعلت (فرح) التي دمرت طفولتها بعد أن اتخذت من الأسود مذهبًا لكافة ملابسها لا تحيد عنه.

لكن (ورد) لم تعلم إن حالة الحزن قد هيمنت على (مؤمن) حد التملك، ولم يلحظ أي محاولة من أسرته للتخفيف عنه، وهم بدورهم لم يحاولوا أكثر من هذا. أنهم في أمس الحاجة لمن يوسيهم هم أيضًا.. وفاقد الشيء لا يعطيه.

فكيف يربتون على ظهر (مؤمن) وهم أعناقهم محنية؟ كيف يجففون دموع (مؤمن) وهم كادوا يبكون بدلًا من الدموع دمًا؟ كيف يخرجون البسمة من فم (مؤمن) وهم وجوههم تجهمت حتى خمد بريقها؟

فراح يستأجر بائعات الهوى من بيت (أم الكنوز)، محيلًا كشك الطريق لمضجع تلك النزوات، وأخذ يدمن الحشيش والحبوب المنبهة التي لم يمسها من قبل في حياته.

فسألت (ورد) في اقتضاب:

- المهم.. هل هي من عزبتنا؟

- لا.

- جيد.

و فجأة بدأت (ورد) في العويل! ليس صراخًا على فقيدها، بل حمل في نبرته طلبًا للنجدة أو الغوث! لم يفهم (جابر) ماذا دهى هذه المجنونة من خبال؟ و لم يجد وقتاً للفهم.. حيث اقتحم الغفر الدوار وهم شاهرين أسلحتهم النارية أسفل ذقونهم، على أهبة الأستعداد لأطلاق النار بأي غريب. مسحوا كل شبر من الصالة بعيونهم في أقل من ثانيتين، لكنهم لم يجدوا غير (جابر) و(ورد).

سأل أحدهم ملوحاً بسلاحه في الهواء باحثًا عن سبب الخطر، عن سبب صراخ السيدة (ورد)، فأجاب (جابر) في توتر بأنه لا شيء قد حدث، لكنهم لم يصغوا إليه كما لو إنه ليس موجودًا من الأساس. فقد تم استدعاؤهم بواسطة صيحات (ورد) ولن يصرفهم إلا أمر منها.

أخبرتهم (ورد) بالفعل أن يرحلوا، فما كان صراخها إلا لرؤية فأر كبير بعض الشيء! لم يقتنع الغفر ولم يتزحزحوا عن وضعية الأستعداد لأطلاق النار تلك، حتى أكد (جابر) على أمر الفأر هذا بأنه قد أخافه هو أيضًا رغم إنه رجلًا صلب، ولا يبلغه الرعب بسهولة. بالطبع لم يصدق الغفر حرفًا من هذا الهراء لكنهم تقهقروا لمواقعهم ما دام الوضع على ما يرام ولا حاجة لوجودهم

ألتفت (جابر) في حركة سريعة نحو (ورد) وهو يجز على

أسنانه في غيظ، قائلاً:

- ما فائدة هذه المسرحية أذاً؟

- انطق يا (جابر) دون مراوغة، ما الذي وجدتموه مع جثة زوجي دفعك لغلق المحضر دون تحقيق أو انتظار نتيجة الطب الشرعي؟

- فتشوا هاتفه المحمول ليجدوا أخر مكالماته مع عدد لا بأس به من العاهرات ذات الملفات المكدسة لدى شرطة الأداب، ناهيك عن المخدرات التي كانت بحوذته حينها.. لقد دفعت لوكيل النيابة مبلغًا ليس بالهين لأنهاء القضية دون تعميم خبرها، أو فتح تحقيق مفصل بالواقعة، فلو وصلت هذه الأحراز للمحافظة سيسحبون من عائلة (الشبراوي) عمودية العزبة وربما الحجز على بعض أملاكنا بحجة التأكد من إن أصل أموالها، إنها ليست نابعة من الإتجار في المخدرات أو هي غطاء على نشاط غير قانوني ما.

كانت (ورد) تشك إن زوجها يفعل هذا وربما أكثر، لكنها لم تعد حساب أن يأتيها يقين شكها مع خبر وفاته دفعة واحدة. فردت بحزن إنها موافقة على عدم المطالبة بفتح تحقيق رسمي لكشف السر وراء مقتله أو حتى تغسيله بمنزلهم، ولكن ليس خشية على الأملاك كما قال (جابر) بل خوفًا على اسم وسمعه (مؤمن الشبراوي) أمام فتياته، وكي لا يتشوه صورة

عودة الكتب حرامية

هذا الأب المثالي في أعينهن، فيكفيهم مصيبة واحدة لهذا اليوم.

- لكن لدي شرط واحد، أريد سفك دماء كل عاهرة عاشرها زوجي.. أعلم أن كلهن عاهرات، ف(مؤمن) ليس بالخائن لدرجة أن يتزوج في السر أو يجامع أمرأة متزوجة مسبقًا.

تعجب (جابر) لما طرق على مسامعه للتو، فلو توقع الشر وأشتهاء الدماء من العالم الأجمع، لن يجول بباله لحظةً أن تتفوه (ورد) الطيبة بمثل هذه النية الخبيثة.. فلم تمهله هذه الأخيرة فرصة للتفكير وهي تكمل.

- أعلم إنك ستصير العمدة الجديد يا (جابر) بعد وفاة كلًا من زوجي وأبني، لكني رغمًا عن أنف الزمن سأظل زوجة (مؤمن الشبراوي) التي ستظفر دومًا بأحترام وطاعة الجميع مهمًا كان ولائهم.. وأعتقد أنك لاحظت أستطاعتي على هذا حينما دخل الغفر مسرعين لنجدتي، رغم إنك أطلقت عليهم (غفرك) أكثر من مرة في الدقائق الأخيرة، وهم بالأساس غفر العمدة (مؤمن الشبراوي) وليس أنت.

ثم أضافت بسخرية:

- يبدو إنك نصبت نفسك عمدة لعزبة الجزيرة قبل أوانك يا (جابر)، وقبل حتى أن يرقد أخيك بتربته

فقال (جابر) في غضب صريح، كما لو إنه أتخذ من (ورد) عدوته وليست نسيبته:

- هل تهددينى يا زوجة أخي؟

(ورد) ذاتها لم تدرِ بنفسها، لم تفكر في أي حرف أو فعل قبل الأقدام عليه، كما لو إن حزنها قد تملك منها وراح يحركها بعفويته. لم تتخيل أبدًا أن تطالب بأراقة الدماء بهذا الثبات كما لو إنهم تأمر بذبح بعض الدجاجات التافهات لوليمة ما، وليس أرواح بشرية قد تثير أعين الشرطة صوبها، أو تدفع أحدًا للأنتقام لأجلها.. لقد ارتدت ثياب القاضي والدفاع في نفس الوقت وحكمت عليهم أجمعين بالموت متغاضية عن ظروف الحياة المريرة التي قد تدفع أي فتاة مثلهن لهذا العمل المهين.

لم تكن (ورد) من قبل بتلك القوة ولكن لما لا؟ فبمقدورها فعل كافة تهديداتها وأكثر. فإذا صرخت ثانيةً وأقتحم الغفر الدوار كالقوات العسكرية كالمرة السابقة، مضيفة عليها إشارة بسبابتها صوب (جابر) مع بعض علامات الخوف على ثغرها، لن يهتم الغفر إن كان هذا شقيق العمدة أو العمدة ذاته، سيفرغون ذخيرتهم في جسده أولًا ثم يستفسرون لاحقًا.

فأجابت (ورد) في ثبات:

- لا أهتم كيف تفهمت حديثي يا (جابر).. المهم هل لدينا صفقة أم ماذا؟

لم يجد (جابر) سوى الموافقة، وسيظل هذا سرهم الصغير الذي قد يستخدمه ضدها يومًا ما في المستقبل إن فكرت في الانقلاب عليه. فبعد طلبها الأخير هذا، سينفي عن عقله أي صورة للطيبة أو السذاجة تتعلق ب(ورد)، ومن الآن فصاعدًا سيعد لها ألف حساب وإنها لا تقل دهاءًا عن زوجها.. لقد أزهق (جابر) الكثير من الأرواح من قبل، ولا مانع عنده لتكرار الأمر، مادام سيحقق مبتغاه الأعظم.

وقف (جابر) ناويًا على الرحيل، لكن (ورد) أستوقفته وهي تسأل:

- هل حقًا نهشت الضباع جسد (مؤمن)؟

ظل جابر يعبث بعباءته بعض الشيء قبل أن يخرج منها صورة فوتوغرافية، أراها ل(ورد) التي لم تلبث أن ترى محتويات الصورة لثانية واحدة حتى أشاحت نظرها عنها في سرعة رهيبة وهي لا تزال تكتم دموعها.

لقد كان المشهد أبشع من أن يتحمله عاملو الطب الشرعي الذين يتعاملون مع الجثث يوميًا بكافة أشكالها وأصنافها، فما بالك بسيدة بسيطة ك(ورد) تختبئ بحجرتها أوقات

الذبح بعيد الأضحى لعدم قدرتها على تحمل بشاعة الدماء.

وثبت أنا كالقط بجوارها –وأنا كذلك حقًا- لأرى الصورة بدوري، والتي كانت بالفعل تفوق انتقام الشياطين وقصاص الجان.

أخرج (جابر) قداحته ليشعل الصورة، التي تحولت لرماد في أقل من دقيقة وهو يقول:

- هذه أقل الزوايا بشاعة التي سمحوا لي بأخذها من ملف القضية، للحق لا أظن إن للضباع يدًا في هذا الأمر أو أي حيوان على وجه الأرض قادر على أحداث مثل هذا الخراب.. بل إن هذا الكم من الوحشية والسادية مقاربة لبطش الشياطين ذاتها.. يبدو إن عزبة الجزيرة قد لعُنت وراح أخي الحبيب ضحية تلك اللعنة.

غادر (جابر) على وعد أن يعود ليقلها هي وبناتها بعد ساعتين أو ثلاثة للدفنة، حتى ينهي مع ولده (كريم) أمر باقي الإجراءات المطلوبة، أغلق الباب من خلفه، ليتحطم مع خروجه ثوب القوة الذي كانت تدعيه (ورد) طوال تلك الفترة، وتشرع في البكاء بكل حرقة، لتظهر على حقيقتها المعهودة من الهشاشة والرقة. لقد فقدت سندها الوحيد للتو وتركها لبراثن العالم عديم الرحمه كما فعل إبنها.. ورغم هذا ستواجه الأمر ولن تستسلم، وستثبت للعالم إنها ليست

باللقمة المستباحة على ألسنة الجميع، لكن ليس الآن.. ستفعل كل هذا وأكثر ولكن فيما بعد، فقد حان الوقت لتحزن من قلبها بذات القوة التي أحبت بها.

***

التفاحة الرابعة والعشرون

عزبة شجرة التفاح

عام ٢٠٢٢م

مساء اليوم الرابع

فتحت عيني على ظلام مطبق! آخر مرة كنت بتربة عائلة (الشبراوي)، بالطبع حينها كان المكان مظلمًا عن بكرة أبيه لكن رغم هذا كنت أرى بالظلام بعيني القططية، أما الآن لا أرى سوى فراغ معتم من كافة النواحي، إلا إذا..

بالطبع أنا لم أفقد حاسة البصر خاصتي، فلازلت أشعر بمقلتي عيني تدوران بمحجريهما، لكني لم أعد أشعر بجسد القط بعد الآن!

أين اختفى فرائي الدافيء؟ أين ولى ذيلي المشعر؟ لما لم يعد بإمكاني تمديد جذعي كما كنت أفعل مسبقًا؟ لماذا لا أشعر بحرية إحناء فقرات ظهري أو دفعها للأستقامة؟ لقد اختفت الكثير من الأعضاء الخارجية كأنيابي المدببة وأظفاري الحادة، وبالمثل الداخلية من أعضاء الجهاز الهضمي والتنفسي التي أشعر بتغيرها.. أنا داخل جسد بشري!

يبدو إن أحدهم نقلني من جسد لأخر، لكن كيف؟ ناهيك إنة يجب أن أظل واعيًا لتتم هذه العملية بنجاح ولست مخدرًا في أجراء النيكرومانسر، هنالك شروط أخرى سرية للغاية ليتم نقلي من جسد لأخر، فكيف علم بها ناقلي إذًا؟ إما أنهم أعدائي الذين تحاشيتهم كثيرًا، قد تمكنوا من العثور على مخبئي أخيرًا، أو إنه خصم جديد قام بدراستي جيدًا حتى يباغتني بتلك الطريقة دون أن ألاحظه.

في كافة الاحوال هو عدو، وإلا لما الجسد البشري الذي أنا عالق به الآن مقيد؟ لا يمكنني تحريك أي عضو من جسدي غير فمي، وعيني التي لا تبصر غير العتمة، فحتى رأسي ذاتها مثبتة بسطح خشن ما، ولا أستطيع الشعور بأي من ذراعي أو ساقي.

بلغ مسامعي صوت حركة من حولي، لقد بدأ الخوف يتملكني بالفعل وتلك من المرات النادرة في حياتي، نسبة لموقفي معدوم الحيلة. ولكني وجدت نفسي أصيح بتلقائيتي البشرية الجديدة:

- من هناك؟.. أظهر نفسك

مهلًا.. أنا أعرف هذا الصوت الذي خرج من حنجرتي! أنا لست في جسد أي بشري عادي، بل أنا بجسد (جابر الشرقاوي) ذاته!

كيف كنت غبيًا لهذه الدرجة؟ لقد كانت تلك جثة (جابر) التي كنت أستجوبها وليست ل(مؤمن)! ليتني أزحت الكفن من على رأس الجثة في بداية المطاف، مختصرًا على نفسي كل هذا الغموض.. لا أعلم كيف مات أو تم تكفينه ودفنه في مقابر العائلة بتلك السرعة رغم إني رأيته اليوم الذي يسبقه وهو يطرد (ورد) من العزبة على مرأى ومسمع من الجميع.. إنه العمدة الذي إذا انتابته نزلة برد بسيطة، سيعلم أهالي العزبة أجمعين، فما بالك بأن يموت ويدفن، سيسير بجنازته أهل العزبة أجمعين سواء بالدعاء له بالرحمة أو تمني ختم روحه بجهنم وبأس المصير، وأنا لم أشهد أيًا من هذا رغم إني ظللت مستيقظًا أمس طوال اليوم أراقب (فوزي) من نافذة منزل الجزار، وأراقب الأجواء المحيطة بشكل عام تحسبًا لأي شيء.. الأمر ليس طبيعيًا على الإطلاق فهنالك تدخل صريح من كيان الطريق.

هذا بالطبع لا يفسر لما أنا بجسد (جابر) الآن، لكنه يؤكد إنه هو منذ البداية، هو الشريك الثالث في جريمة قتل (مؤمن الشبراوي)، وإلا كيف عرف أحداث واقعة اغتيال (مؤمن) بتلك التفاصيل إن لم يكن مشاركًا بها؟

لقد كان دومًا (جابر) العامل المشترك بين حكايتي كل من (حسن العفي ووجدي)، بل هو من كان القشة التي قصمت

ظهر البعير في كل مرة.

في البدء عُرف (وجدي) على بيت (أم الكنوز) وربما مدح في أخلاقه بعض الشيء أمام صاحبة البيت لتتمسك به للعمل معها، ولا أستبعد كذلك أن يكون ل(جابر) دورًا في إغلاق جميع فرص التوظيف أمامه حتى يحرمه من رفاهية الأختيار ولا يتبقى سوى القبول بوظيفة (أم الكنوز) المهينة لروحه والمغيرة لشخصيته.

ثم أعطى ل(حسن العفي) مبلغًا ضخمًا من المال دون مقابل، ليظهر أمامه بهيئة الرجل الكريم المعطاء، وأي شخص غيره ما هو إلا بخيل أو منعدم التقدير للحالات الإنسانية كتلك.. ولكن منذ متى نزلت تلك الشهامة على (جابر)؟ لم يلحظ حينها (حسن) إنه يستلم المال من ذات الرجل الذي قاضى وسجن من تأخر عليه في سداد أمواله، بل أخذ نقوده بالقوة مرات عديدة بعيدًا عن القانون، سواء بنهب ممتلكاتهم أو حرقها ارضائًا لفساده.

ليس هما فحسب.. بل قدم (جابر) خدمات تعاكس شخصيته الطيبة المزعومة لأناس عشوائيين، لكن يجمع بينهم رابط واحد حتى لو كان واهيًا، وهو تقربهم أو اختلاطهم ب(مؤمن) بطريقة ما.

لقد كان (جابر) يجمع أكبر قدر من الأتباع استعدادًا

للأنقلاب على أخيه.

فرغم إن (مؤمن) هو الأخ الكبير، ويحق له خلافة العمودية عن غيره، لكن (جابر) رأى إنه الأصلح لها. أين كان (مؤمن) حين ظل (جابر) بجوار والدهما، يعمل ويشقى من أجل النهوض بأعمالهم الأستثمارية؟ أين كان (مؤمن) حين ظل (جابر) يحرث الأرض ويزرعها كأي عامل بسيط لتقوية عوده حتى لا يستهان به أحد ونعته بأبن العمدة المدلل؟ أين كان (مؤمن) حين ظل (جابر) يساهم والدهما في كافة المشاكل التي واجهوها سواء الضرائب أو المحافظة أو حتى العائلات الكبرى المعادية لعائلة (الشبراوي)؟ أين كان (مؤمن) حين نسفت البورصة نصف أملاكهم وكادت الديون تقضي على النصف الأخر؟ كان (مؤمن) يتعلم ويلهو بين ضواحي القاهرة، يستلم الأموال كل شهر ليعبث بها دون أكتراث لمن شقى وتعب لأجل توفيرها له، في حين (جابر) من كان بوجه المدفع طوال هذا الوقت، لهذا هو أحق منه بكل شيء، فظن إن (مؤمن) لن يعود للعزبة أبدًا وسيظل خارج حدودها أو خارج حدود مصر كلها راكضًا خلف المكانة العلمية.. لكنه عاد مخربًا كافة طموحات أخيه رغم كل شيء.

لم يقلل (مؤمن) من شأن أخيه أو يهمشه من إدارة العزبة، فقد حفظ له مركزه كما هو، وتلك هي المصيبة، في البدء

كان الرجل الثاني بعد والده، والآن بعد كل تلك السنوات صار الرجل الثاني من جديد ولكن بعد أخيه هذه المرة!

لم يكن بيد (جابر) أي حيلة، خاصة عقب تأكده إنه بعد عدة سنوات سيضحى الرجل الثاني بعد ابن (مؤمن)، فسلم أمره راضيًا بقدره، ولكن بعد وفاة ابن (مؤمن) رأى إن هنالك فرصة أخيرًا بأن يصير الرجل الأول كما حلم دومًا، لكنه بالطبع لا يضمن أخيه. فكما كسر (مؤمن) كافة التوقعات وعاد للعزبة بعد كل تلك السنوات، بكل بساطة يمكنه أنجاب صبيًا غيره غدًا أو الزواج بشابة غير (ورد) تأتيه بولي العهد.. عليه أن يضمن مكانه حتى لو على حساب حياة (مؤمن) ذاته.

لقد رأى في الأخبار بيانا عن انفجار أحد المخازن بالقاهرة الذي ظل حديث الساعة، لأسبوعين، ومن هنا كانت الشرارة التي أشعلت النار بالهشيم.. رأى أن مهما كانت المباني عريقة أو كبيرة، فتخريب صغير قادر على إحالتها لأنقاض وذكريات حتى تختفي من الوجود مع الوقت، قد يحزن صاحب المخزن على أمواله التي تبخرت بغمضة عين، أو يتضرر الجيران من هذا الخراب الذي طالهم بطريقة ما، ولكن إلى متى؟ فبعد بضعة أشهر وربما سنوات سينسى المُلاك أنفسهم أمر المخزن هذا من الأساس، قد يعاودوا بناءه أو ربما

يستعوضوه بغيره، ناهيك بالطبع عن عامة الناس الذين لن يتذكرون حرفًا عن الحادث بمجرد تغيير قناة التلفاز.. وذات هذا السيناريو لا ينطبق على المباني فحسب، بل سيتكرر بحذافيره مع البشر كذلك!

ومن بين كافة الرجال الذين اشتراهم سواء بالمال أو الخدمات، استعان ب(وجدي وحسن).

(وجدي) الذي يعلم تحركات (مؤمن) التي يصير فيها وحيدًا، بعيدًا عن غفره لممارسة نزواته الغير شريفة. وعده (جابر) أن يخلصه من غريمه الذي يؤرق نومه ويهدده بفضحه بالعزبة، ليبقى عمله في بيت (أم الكنوز) سرًا للأبد، بل وكذلك يعود لسابق عهده كمعلم بأكبر مدارس مصر الحكومية أو الخاصة ذات المرتبات الكبيرة إن أراد.. لم يعلم (وجدي) إنه بالمستقبل القريب سيخسر سمعته التي يكافح لأجلها تلك وعلاوة عليها عقله بفعل كيان الطريق، قبل أن يفقد حياته على يدي.

كذلك (حسن) الذي يبتاع ل(مؤمن) الحبوب المنشطة والحشيش، ويمكنه تبديلهما ببساطة لحبوب مهلوسة تسهل عملية القضاء عليه، هو القوة التي يعتمد عليها (جابر) لأنجاز الأمر بعد وعده بسداد أموال عملية أخيه بأكملها.. لم يدرِ هو الآخر إن حياة أخيه (كمال) التي قايضها بحياة (مؤمن)

سيقتنصها كيان الطريق عن وجه الأرض قبل أن يدخل في نزاع معه ليثبت ل(حسن) إن مهما بلغت قوته من شدة سيظل هنالك من أعتى وأكثر بأسًا منه.

لقد علمت كل هذا أثناء تجولي بذكريات (جابر)، كما علمت من قبل التاريخ الكامل للقط الذي كنت أتلبس جسده.

كل هذا جميل، كل هذا خلاب، لكن لما أنا بجسد (جابر) الآن؟ لقد استجوبت الكثير من الذكريات التي تخص كيان الطريق، بل إنني سمعت وقرأت وعاصرت بعض المواقف المميتة عنه، أعتقد إن هذا كافي لأحدد كنهه.. ولكن علي التفكير بسرعة فأنا أشعر إنني لست وحيدًا بهذا المكان.

«رأيت في ذكريات (وجدي المجذوب) المعالم الجسدية للكيان سواء من الحلة الداكنة أو القامة الطويلة أو الوجه الممسوح من أي معالم، والتي هي قريبة نوعًا من هيئة (مؤمن الشبراوي) ذاته، حيث عرف عنه طول القامة، وحبه لأرتداء البدلات الداكنة على نقيض باقي أهالي العزبة، ناهيك عن إن وجهه كان مسلوخًا بعد قتله كما رأيت في الصورة التي قدمها (جابر) ل(ورد).. مما يرجح إن الكيان هو شبح (مؤمن) العائد للقصاص».

ظهرت من حولي ثلاث شعلات نار على هيئة مصابيح زيتية قديمة الطراز، لتظهر أخر من توقعت رؤيتهم في

حياتي. ليسوا أعدائي القدامى أو المطالبين برأسي، بل هن (سمر وفرح وقمر).. نجلات (مؤمن الشبراوي).

«سمعت من حكاية (جابر) إن كيان الطريق استهدف السائق (غريب) من خارج العزبة، وهذا ينفي فكرة روح الانتقام، لأن تلك الأرواح تستهدف قاتليها دون إيذاء الغير، حتى لا يعانوا من ذات المصير الذي تعرضوا له، إلا إذا منع أحدهم رغبتهم في الانتقام وحاول إيقاف شرهم.. ولا أظن إن ل(غريب) هذا دور من قريب أو بعيد في مقتل (مؤمن الشبراوي) إذًا هو ليس بروح على الإطلاق، ربما هو جان متنكرا».

كانت الإضاءة التي سببتها مصابيحهن الثلاثة ضعيفة لكنها كانت كافية لأستبيان حالتي، الآن فحسب علمت لما لا أشعر بساقي أو ذراعي، ليس لأنهما مقيضان أو مخدرتان، بل لأنهما مبتوران من الأساس.. جسدي عبارة عن منطقة الصدر والحوض والرأس فحسب كما كان جسد (مؤمن)! مع خلاف إن مناطق التمزيق في أعضائي قد تم كويها بالنار بطريقة بدائية، ليس لنجدتي بل لمنع تسرب الدماء من جسدي وجعلي حيًا أكبر فترة ممكنة جبرًا، لكن تلوث الجرح هذا سيودي بمقتلي عاجلًا أم أجلًا.

«قرأت في رسالة (كريم بن جابر) الأخيرة أن كيان الطريق

ليس هو مصدر التهديد الوحيد، بل كل روح عالقة بها كذلك، ربما كيان الطريق يأسرهم أو يتحكم في تحركاتهم كما فعل مع روح (سهيلة).. ولكن من جديد هذه ليست خاصية تابعة للجان، فلا يوجد جان ثائر لسبب أجهله، يكون جيش من الأرواح بهذه الطريقة العشوائية دون قانون أو قوى توقفها، فما الذي يمنعه إذا من قتل كافة سكان العزبة بضربة واحدة! سلطة الجان ولو حتى ملوكها أضعف من هذا.. ربما هو شيطان إذًا؟»

لم يظهر على الفتيات أي نوع من الرعب على حالي، التي أراهن إنها ستجبر أشد الرجال بأسًا على الانهيار فزعًا مع العيش طوال حيتهم مع عقدة نفسية أو مرض مزمن على أقل تقدير. بل ظللن يدنين مني ببساطة وشفاههم تتمتم بكلمات مقتضبة، كما لو إنهم رأوا مثل حالتي تلك عشرات المرات.. راحت الأضاءة تنتشر بالمكان أكثر فأكثر من مصابيحهن، لأتبين أين أنا.

«أبصرت في استجوابي لرأس (حسن العفي) إن كيان الطريق يمكنه التلاعب بالذكريات، فقد نظر صوبي كما لو إنه يراني وجه لوجه وليس محض ذكريات في رأس تالف.. هذا بالطبع يفسر لما لم أعلم بشأن اشتراك (وجدي وحسن) في مقتل (مؤمن) رغم إني استجوبت كليهما، لقد كانت هنالك

بعض الذكريات المحجوبة، كما لو إن كيان الطريق لم يأذن لي بعد بمعرفة الحقيقة كاملة.. ولو كان هذا تلبس شيطاني، فهو يترك في أعقابه أدلة نستدل عليه منها، كأن تنفق الحيوانات، و تذبل النباتات وتفسد المحاصيل وتسمم المياة وتمطر السماء طيورًا نافقة، وأنا لم ألحظ بالعزبة أيًا من هذه العلامات.. هل يعقل أن يكون أحد سكان المطهر؟».

لقد كنت على طريق العزبة المشئوم إياه، هنالك حبال غليظة تقيض جسدي –أو بالأحرى ما تبقى منه- بجذع شجرة التفاح، وأنا مستقر على أرضية الطريق الرملية.. كما لو إني أملك رفاهية الحركة من الأساس بأطرافي الأربعة المبتورة تلك حتى لو كنت مفكوك الوثاق. ناهيك إن رأسي مثبت بشريط لاصق بساق الشجرة بأحكام، لتمنع رقبتي عن الحركة.

«عاصرت مع (فوزي) إن كيان الطريق ليس له جنس محدد، حيث كان أنثى وهذا يخالف فكرة كيانات المطهر التي لا يمكنها الكذب في أي شيء ولو حتى أشكالهم.. ناهيك إنه لم يستطع مسنا بمجرد أن بلغنا العزبة كما لو إن قوته محدودة عند الطريق فحسب، وهذا بالطبع مخالف لطريقة استدراج (غريب) من خارجها، وانتشار الهامات في العزبة وعدم وجود أثر لأي جان أو شيطان بها.. ماذا يكون إذا، هل

هو إحدى الكيانات القديمة؟».

لقد فاض بي الكيل، للمرة الأولى بحياتي لا أستطيع التعرف على خصمي، لقد قضيت بالعزبة ثلاثة أيام وخرجت بلا شيء. فكلما توصلت لدليل ما أبني عليه كافة استنتاجاتي، سرعان ما يأتي الدليل التالي له مخالف لسابقه راميًا بكافة استنتاجاتي عرض الحائط.. اعلن انهزامي ولكن ليس استسلامي، سأظل أحارب حتى رمقي الأخير.

- ظننت إنك ستنجو بفعلتك تلك يا عمنا (جابر)؟

- تآمرت على قتل أبينا واستحوذت على أمواله، ونزعت أي سلطة من أيدينا، بهذه البساطة دون عقاب.

- لقد آن أوانك الآن لتدفع الثمن وتلقى مصرعك بذات الطريقة التي فعلتها بأبينا.

خرجت هذه العبارات الأخيرة بثلاث نبرات أنثوية متنوعة، لا أعلم من تحدثت ومن لم تفعل، فثلاثتهم يطأطأون رؤسهن لأسفل، فتتزاحم الظلال على جبهاتهن ولا يظهر غير أفواههن المتحركة.

قلت في سأم:

- كفاكم هراء أيتها الفتيات.. أنتن على دراية كاملة إني

لست (جابر الشبراوي) من الأساس، لقد دسستموني في جسده المحتضر عنوة بطريقة ما، هل يمكنني أن أعلم لماذا؟

قالت إحداهن في عجلة كما لو إنها انتظرت وتحضرت جيدًا للرد على هذا السؤال:

- كما رأيت في الذكريات التي مارست عليها سحرك، إن كل شخص تغيرت حياته عند نقطة معينة.. (وجدي) حين فُصل من مدرسته.. (حسن) عندما أصاب المرض أخيه (كمال).. والكثير من الحكايات الأخرى التي عاصرتها بطريقتك.. ولكن الأهم من كل هؤلاء هي عائلتنا.. أبينا (مؤمن) فقد شغفه للتمسك بالحياة.. أمنا (ورد) لم يعد بمقدورها إعادة الأمل لوالدنا وهي ذاتها خسرته بدورها.. عمنا (جابر) هيمن عليه الجشع.. كل هذا حين مات شقيقنا على يديك منذ اثني عشر عامًا.

ما الذي يقصدونه هؤلاء المعاتيه؟ لقد قتلت الملايين سواء

من بشر أو شياطين أو جان على مدار حياتي الطويلة.. فلما أخيهم هذا مميز عن غيره لأتذكره أو حتى ليعبىء به أحد. لتتمزق أسرتكم أربًا أو تذهبوا للجحيم جميعًا، فلو كل أسرة تحطمت على يدي وحاولت الانتقام مني، سأقضي الألفية التالية في المحاكمات فحسب.. ثم كيف عرفوا أساسًا إني أنا المسؤول عن مقتل أخيهم هذا الذي لا أتذكره؟ أنا دائمًا حذر في عدم ترك أي دليل خلفي يقود إلى أستنتاج إني الفاعل، خاصة بالأونة الأخيرة، فأنا لست كهؤلاء السفاحين البشريين المخابيل الذي يتركوا توقيعهم بجوار كل ضحية جديدة كنوع من إثبات الملكية أو إرسال ألغاز للشرطة على سبيل الدعابة.. إلا إذا...

- هل تتذكر اسمه؟ بالطبع لا فقد عانى من بطشك الكثير الذين قد لا تعرف اسمائهم من الأساس.. لكني واثقة إنك تتذكر اسم (أنور عسكر) جيدًا.. أو بالأحرى (أنور مؤمن عسكر الشبراوي).. فمن ينسى اسم المفتاح الذي سهل لأحدهم التحرر من محبس قضى بين كنفاته عشرات القرون؟ أليس كذلك أيها الشيطان الواحد والعشرون؟

***

التفاحة الفاسدة الأخيرة

«أن يحيى المرء حياته وهو حفيد للشيخ (عبد الله بن الحظرد) اليمني، لهو أمر في غاية البساطة، يشاهد جمال الدنيا في عينيه البريئة كأقرانه من الأطفال، ينمو وينضج تفكيره كالأخرين، يتعلم الفارق ما بين الخطأ والصواب ويميز بين الحرام والحلال كباقي العالم، يبكي عند الحزن ويتبسم عند الفرح وتحمر وجنتاه عند الخجل وكافة تلك البديهيات.. الخلاصة إنه كغيره من الأطفال، لا تعتريه حالة عصبية خاصة أو محفور على جسده شامة مميزة أو يفوح منه رائحة خاصة. بل يجهل الطفل ذاته هو وأبويه وكافة أجداده إنهم أنجال أقوى سحرة الأرض وأكثرهم علمًا بالعوالم المظلمة وكياناتها المميتة.

ولكن حين يتعلق الأمر بأقوى شياطين الجحيم والأرض، وألد أعداء (بن الحظرد)، هنا يشعر الأحفاد بتميزهم وإنهم ليسوا محض أناس بهذا الكون الفسيح، مقدر لهم الحياة والموت في سلام، بل إن ورائهم مهمة لم تكتمل حول أنقاذ البشرية من فناء محتم، وصراع أذلي لم تحسم نتيجته بعد

فمنذ أن توصل (بن الحظرد) قديمًا لتحصيل المعلومات عن الشياطين العشرين وأخيهم السري والأكثر بطشًا، قد علم حينها إن حياته تغيرت للأبد، لم يعد وظيفته محض

كاتب، يطبع العلم الذي اكتسبه على ورق ليأخذه معه لقبره ببساطة. بل إنه أصبح في صراع من أقوى السادة بعد حمله على عاتقه واجب حماية الأرض من مخططات الشيطان الواحد والعشرين في صناعة (عتاد الخطاة).. التي حتى الآن لا أحد يعرف ما الذي تفعله، ولكن مادامت من تفكير الشيطان الواحد والعشرين ونظرًا إلى محاربته المستبدة لصنعها، فحتمًا لها علاقة بقلب كافة موازين الطبيعة التي نعهدها رأسًا على عقب على أقل تقديرا!

يمكننا الزعم إن هذا النزال قد تجمد مع تضحية (ابن الحظرد) بنفسه في سبيل أسر الشيطان الواحد والعشرين في سجن أبدي، ولكن من قال إنه قد حسم بشكل نهائي؟ فقد تمكن الشيطان الواحد والعشرين من التحرر من أسره، مستغلًا التضحية ب (أنور عسكر) أحد أحفاد (ابن الحظرد).. ومن هنا كانت بداية سقوط عائلة (الشبراوي).

لم يمت (أنور) في سلام، فبمجرد أستحواذ الشيطان الواحد والعشرين على جسده، دبت بخلجات جميع أخر نسل ل(ابن الحظرد) على وجه الأرض ذات الرجفة الغريبة.

جميعهم أصيبوا بحالة شديدة من الأعياء، ارتفعت درجة حرارتهم حتى أضحوا أفران متحركة، مع كل سعلة يرافقها شعور ألف سكين وهي تطعن رئاتهم الضعيفة، شعروا بصهد

يصيب كيانهم كما لو إنهم يشوون أحياء، خارت قواهم حتى أضحى تحريك عيونهم بمحاجرها أمرًا مرهق يلهثون على أثره، كل هذا يندرج أسفل تأثير الحمى مهما بلغت تطرفها، فما الخطير بالأمر إذا؟

حين يبلغ الأعياء حد نزيف الدماء من الأذن، تعلم إن الأمر لن يمر بسلام. حين يتساقط كل شعرة من جسدهم دون سابق إنذار أو عامل خارجي كما لو إن خصيلاتهم سأموا من التعلق بأجسادهم، تعرف إن الوضع ليس طبيعيًا على الأطلاق. حين تسقط كافة النباتات من حولهم ميتة بعد أن أصابها جفاف مفاجئ، تفطن إن إشارة روحية ما.

ظلت بنات (مؤمن عسكر الشبراوي) وأبناء (جابر) كذلك، على هذا الحال لأسبوع وبضعة أيام، ولم يكد يتعافون حتى بلغهم نبأ موت شقيقهم (أنور) بالقاهرة، ليكمل عليهم الحزن ما بدأه الألم.

أدعوا التعايش مع بعضهم بإعتبار إن الحياة ستستمر مهما سقط بها من أحباء، حتى قرر (جابر) تسريع أجل أخيه، لم يكلف رجاله بقتل (مؤمن) فحسب بل كانت أوامره دقيقة في تشويه جثة (مؤمن) عن بكرة أبيها، أراد ألا تتعرف عليه زوجته إن رأته من فرط تشوه جسده، بل لدرجة إن (أم مؤمن) ذاتها لو كانت حية لهذه اللحظة لكانت خلطت

بين فلذة كبدها وبين جثة أي حيوان دهس أسفل عجلات السيارات.

فبتر رجاله جميع أطرافه بأدوات ليست حادة، أو على الأقل لم تصنع لمثل هذه المهام، أراد أن تكون عملية التمزيق تلك حيوانية أكثر من اللازم حتى لا تتهم الشرطة أي بشري بها، بإعتبار إنه لا يوجد آدمي على الأرض يحمل هذا القدر من الكرة لغيره فحتى الشياطين لا تكره الملائكة لهذا الحد، كما لا يوجد عاقلًا يتحمل القيام بتلك الوحشية عن طيب خاطر دون الأصابة بصدمة عصبية تودي بحياته

لكن الشرطة لن تعمل حساب إن هنالك شخصًا يفكر كأبالسة البشر، أو لديه أتباع يسوقهم الحاجة والطمع لفعل أي شيء مهما كان مضاد للطبيعة الآدمية وموافق لفطرتهم الحيوانية.

لم يكن بمقدورهم أخذ أطراف (مؤمن) المبتورة لأي مكان بعيد عن موضعهم، وهي تفرغ ما بجوفها من دماء بتلك الطريقة الفجة، فلم يكن أمامهم سوى نبش رمال الطريق ودفنها على يمين الكشك، حاولوا جعل الحفرة عميقة بقدر استطاعتهم حتى لا يكون هنالك أي أثر لدماء تفضح فعلتهم. ثم رحلوا عن المكان بعد أن وضعوا الجثة في وضعها الأخير الذي نعرفه، وعقب أن قلبوا محتويات الكشك رأسًا على

عقب.

راحوا يدمرون كل شيء وأي شيء دون تفريق، يهشمون الواجهات الزجاجية، يلقون محتويات الأرفف من بضائع أرضًا بكل إهمال، يعبثون بالجدران سواء خدشها أو تحطيمها، إفراغ طلقتين أو ثلاث من مسدس (مؤمن) هنا وهناك لأثبات إن هنالك معركة قد نشبت وحاول هذا الأخير الدفاع عن نفسه بأي وسيلة.

ولم ينسوا بالطبع ترك الأموال التي كانت في أدراج المكتب وجيوب (مؤمن) كما هي دون مس.. فقد أراد (جابر) ألباس التهمة لخرافات الريف التي لا تعد ولا تحصى حتى يسهل عليه أغلاق المحضر بشكل أسرع، فلم يسمع أحد من قبل النداهة أو أبو رجل مسلوخة على سبيل المثال وهم يسرقون ما بمحافظ ضحاياهم قبل الفتك بهم.. بل كذلك مهد للأمر جيدًا من قبلها حيث راح ينشر بين العامة هو وأتباعه أشاعات حول تجول بعض الضباع على الطريق ليلًا، بسبب كثرة حالات السعار التي تصيب الحيوانات المفترسة في تلك المواسم كل بضعة أعوام، وسماعهم لبعض الحسيس الذي لا يخرج من حناجر بشرية على الإطلاق، ناهيك عن السيارات التي تتعطل على الطريق بالذات تاركة سائقها في موقف لا يحسد عليه.. لقد بات الطريق -وبدون مجهود

يذكر- مسكونًا عن جدارة وبشاهدة نصف أهل العزبة رغم إن ما من أحد قد تعرض لأي شيء يثبت ادعائه. لكن خيالهم الواسع وعقولهم البسيطة جعلت من حادث مهما كان تافهًا أو له مبرر علمي واضح، هو في الأصل بسبب طريق العزبة الملعون.

لكن (جابر) لم يتصور أبدًا أن تتحول خرافته الكاذبة تلك، لحقيقة ملموسة!

لم تتجاوزَ فتيات (مؤمن) الثلاثة بالألم فحسب مع تحرر الشيطان الواحد والعشرين، بل اكتسبن معرفة لم يخطر ببالهم إنها موجودة من الأساس، وعلم لم يتصوروا أن يقع بين أيديهن دونًا عن سائر البشر. لقد اشتموا رائحة الجمال العربية وشعروا بالرمال اليمنية من تحت أقدامهن وأستقبلوا صهد الشمس الصحراوية على جبهاتهن.. هم فحسب دونًا عن باقي نسل (ابن الحظرد) بالعالم.

لم يعرفوا إن ما كان يرونه هذا، هو هلاوس مرافقة للألم أم سكرات سابقة للموت، لكنهم مع الوقت علموا إنهم خاضوا الكثير رغم إنهم طريحات الفراش. عاصروا حياة جديدة عليهم كليًا، وعاشروا أيام اختلطت بها مشاعر الخوف والترقب والحذر، وفطنوا لأسرار تقام عليها حروب أو تفض أعتى الصراعات.. الخلاصة إنهم أكتسبوا ذاكرة جدهم الأكبر

(ابن الحظرد) بكل هولها، وعلموا عنه كل شيء. كيف عاش حياته يتهمه الناس بالجنون، رغم إنه كان صادقًا في كل حرف ينطق به. كيف قضى أيامه يخط أشنع الأسرار، على حساب حياته الشخصية التي لم يتمتع بها كغيره. كيف أفنى حياته لنجدة البشرية من الشيطان الواحد والعشرين، وحتى بعد مماته ترك رسائل لمن هم بعده للتصدي لهذا الخطر إذا عاد للعالم، عن طريق تعويذة ما ألقاها على نفسه ونسله من بعده تحسبًا للأمر.

بالطبع كانت بنات (مؤمن) مجرد فتيات صغيرات لا يفقهن شيئًا في هذه الدنيا غير التدلل بين أحضان أبيهن وأمهن. فلم يعبئن لعلوم (ابن الحظرد) تلك ولم يفكرن في استغلالها. أو بالأحرى لم تكن قلوبهن بذلك التصلب بعد لمواجهة أعتى شياطين التاريخ، بأستخدام أكثر أنواع السحر تحريمًا وإهلاكًا.. حتى مات والدهن وماتت في أثره قلوبهن.

اكتست أرواحهن ذاتها بظلامية غير محدودة، فتحولت (سمر) من فتاة تخاف رؤية أي أثر للدماء، لساحرة تقطع الحيوانات وتتشرب دمائها بكل نفس راضية. كما تغيرت (فرح) من مراهقة تخاف سيرة الترب، لنباشة قبور متمكنة بجانب تدنيسها لجثث الموتى بكل دم بارد. وبالمثل اختلفت (قمر)، فلم تعد آخر عنقود العائلة التي يأتيها كل ما تأمر به،

بل أمست مشعوذة تأتي بالعطارة والأضحيات بنفسها لأتمام تعاويذها الخبيثة بكل أريحية مع الأمر.. خاصة بعد أن نمت شجرة التفاح!

نمت تلقائيًا بذات الموضع الذي تم به دفن أشلاء (مؤمن الشبراوي). هكذا وبكل بساطة تابع أهالي عزبة الجزيرة نضوج الشجرة يومًا بعد يوم من تلقاء نفسها، وتحولها من مجرد ساق هزيلة، لعود صلب متشعب منه الفروع والأوراق والثمار الناضجة. دون أن يضع أحدهم البذور في الأرض أو يمدها بالسماد أو المياة اللازمة لريها، انبثقت من الرمال الجافة كالصبار أو كالنبت الشيطاني.. وهكذا تحول اسم العزبة من عزبة الجزيرة لعزبة شجرة التفاح.

نمت الشجرة تعبيرًا عن الظلم والتأمر الذي تعرض له (مؤمن) قبل وفاته، ليس على يد الأغراب بل بتدبير أخيه وأقرب الناس له. لم يفهم أحدًا المعنى الحرفي للشجرة، لكن من يملك عين (بن الحظرد) قد فهم.

أخذت الفتيات عهدًا على أنفسهن بأستغلال القوى التي ظفروا بها، للقصاص من كل من عبث بأستقرار عائلتهم المسالمة، ليس من (جابر) وأعوانه فحسب بل من الشيطان الواحد والعشرين ذاته الذي قتل أخيهم البريء ونشر الحزن والجشع بينهم، كما علموا من ذكريات جدهم الأكبر.

نعم سيتحدون أحد سادة الجحيم، ولما لا؟ فقد فعلها جدهم من قبلهم قبل ألف عام وأكثر، بل حينها كان وحيدًا ضد بطش الشيطان الواحد والعشرين وأتباعه الجحافل من الجان والمسوخ. أما الآن فهن ثلاثة، ثلاثة عقول ضد واحد، ولا ننس إن الشيطان الواحد والعشرين الآن أضعف من أي وقت مضى، وتخلى عنه نصف أتباعه أو ربما كلهم.

لكن أولًا عليهم أن يصنعوا الخرافة التي أختلقها عمهم (جابر) والتي زعم إنها قاتلة أخيه، ليلقى مصرعة بذات الطريقة التي لفق لها جريمته ولكن عن صدق هذه المرة.. ستكون هذه الخرافة هي الرائحة الشهية التي ستستدرج الشيطان الواحد والعشرين لعزبتهم الملعونة والمتعطش للقوى.

والآن قد أتموا كل شيء من خطتهم ولم يتبق سوى الجزء الأخير من انتقامهم».

هذا ما قالته لي الفتيات، لا أهتم من قالت ومن صمتت ولا أبالي حتى إن كانوا يتحدثون من أفواههم أو حتى بطونهم.. كل ما أدركه الآن أني في خطر محتم.

فمنذ الأحداث الأخيرة وأنا عالق في تلك الهيئة الشبحية، لم أعد أتمتع بكافة قواي الشيطانية، أحتاج لجسد لأتملكه أو أستحوذ عليه، وإلا ستتبعثر روحي عبر الهواء وأفنى للأبد!

وما تفعله هذه الفتيات الآن هو سجني بهذا الجسد وأبطال كافة قواي الشيطانية، حتى يضحى التخلص منه بمثابة قتلي.

مع الأسف لم يعد لدي الطاقة الروحية الكافية لأيقافهم كما فعلت مع كيان الطريق من قبل برفقة (فوزي)، حيث يبدو إنهن محصنات لعقولهن جيدًا بتعاويذ هذا اللعين (ابن الحظرد)، كما إن عقلي ليس بأفضل حالاته لمحاولة تجاوز كافة جدران الحماية خاصتهم. لقد شرع أحساس الألم المهيمن على الجسم ببلوغي، أطرافي المبتورة التي تأن توجعًا بسبب بترها، البرد الذي يعتلي جسمي بسبب ما خسرته من دماء، مذاق العلقم بفمي مبشرًا بقرب نهايتي

وبالطبع ليس لدي أي طاقة بجسدي، فقد أعدوا الجسد الذي سيسجنوني به جيدًا، لا أملك أي أطراف للركض، أو حتى المقاومة. كما إنهم أحكموا تقييدي بالشجرة فلا أستطيع دحرجة جسدي كالكرة صوب البحيرة طمعًا في الغرق، بجانب تثبيتهم لرأسي حتى لا أصدمه بالشجرة حتى الموت.. لقد درسوا عدوهم جيدًا بل وعلموا إنه يكمن بالموت خلاصي.

أحتاج أن أقتل هذا الجسد ليتم تحرري، هكذا فعلت بالمرات السابقة والتي كلفتني التقيد بتلك الهالة الضعيفة

لستة عشر عامًا مر منهم أحد عشر، في البدء نقلت نفسي لجسد الفأر في حجرة (أنور) ثم هربت من المدرسة، أتنقل بين الأجساد للثأر ممن أفشلوا خطتي، ثم لجسد ذلك البشري الذي لا أتذكر اسمه، ثم استحوذت على جسد القط الذي كنت به أخر مرة حين فررت من انفجار المصنع.. مهلًا أنه ذات المصنع الذي رأيته في الأخبار!

الآن فحسب تذكرت لما لفت أنتباهي أمر هذا المصنع حين رأيته بالأخبار، يالها من سخرية القدر حين كان هذا الانفجار هو بمثابة الشرارة التي أشعلت حماسة (جابر) على قتل أخيه، وتوريطي بهذا المأزق!

لقد كنت أنا الناجي الوحيد منه بعد أن ضحى خادمي المخلص (إيواس) بنفسه لنجدتي من الانفجار. ومن حينها وأنا وحيد، بل وهارب إن صح التعبير، جميع أتباعي تخلوا عني بعد أن رأوني أضعف منهم إلا (إيواس) الذي ظل على عهده بالولاء لشيطانه الأكبر حتى الرمق الأخير. فاتخذت من الليل ساترًا ومن الزحام مخبئًا، لا أقيم في المكان الواحد لأكثر من يوم، ولا يغفل لي جفن إلا والآخر متيقظ استعدادًا لأي هجمة غادرة من أعدائي القدامى، فقد صنعت خلال عمري مائة عداوة وألف ضغينة، فهنالك كيانات كونية تطالب برأسي، وعشائر كاملة من الجان تسعى للفتك بي.

حاولت البحث عن أخوتي العشرين للعيش في حمايتهم أو حتى العثور على عتاد الخطاة التي أتموا صناعتها بالفعل، بنفسي لعل سحرها يساعدني في تجاوز تلك السنوات على خير، لكن طاقتي كانت أضعف من الأستشعار بمخابئهم، يبدو إنهم حصنوا أنفسهم والعتاد بالكثير من الطلاسم المخفية للأثر حتى لا يستشعر بهم أمراء الجحيم أو ملوك الجان.. من يتصور أن يأتي اليوم على (ابن المضبع) ذاته الذي يخشى به عمار المكان التافهين والقرناء الساذجين، خشية أن يكونوا هم الأخرين يبحثوا عني لتسلمي لأي من أعدائي، أو لتحقيق قصاصهم بأيديهم.

لكن مهلًا لحظة! من قال إني وحيد؟ أن لست بائسًا أو قليل الحيلة لهذه الدرجة، فأنا لازلت (ابن المضبع) الشيطان الواحد والعشرين ذاته، هنالك أشخاص أو حتى كيانات تكن لي الأحترام والأخلاص، مهما ساءت الظروف أو تغير الزمن، حتى لو كانوا أقلاء يتم تعدادهم على أصابع اليد الواحدة، لكنهم على الأقل متواجدين و لديهم الأستعداد للتضحية بحياتهم من أجل نجدتي، وقد آن آوان تلك التضحية.

ظللت أضحك كما لو إنها نهاية العالم، أكركر دون اكترات لأي شيء، أسعل من فرط القهقهة على غباء الدنيا التي تظن إنها ستنتصر علي يومًا. توقفت الفتيات عن التمتمة

ليحملقوا صوبي بغرابة على فعلي العجيب. من المفترض إني سألقى مصرعي على أيديهن بعد ثوان، فلما أضحك بهذا الخبال الهيستيري؟ لا بد إن هذا السؤال يتردد على أذهانهم قبل أن يتبادلوا نظرات ذات معنى إني فقدت عقلي على أقل تقدير.

- كم أنتن ساذجات يا حفيدات (بن الحظرد).. هل اعتقدتن حقًا إني أتحرك وحيدًا دون أتباعي.. الآن يا (جووووودة).

قلت عبارتي الأخيرة متحاملًا على ضحكاتي، عدا الجزء الأخير الذي صرخت به بكل ما تبقى من جسدي البالي من قوة، لدرجة إن الدماء تناطرت من بين شفتي دون قصد، ليظهر بطل تلك الليلة من بين الظلام.

جذب أنظار الفتيات الثلاثة وأنظاري أنا شخصيًا وهو يصوب مسدس ناري ناحية صدري. كادت الفتيات أن تنطق بشيء ما لتوقفه على غرار (أياك، أو لا تفعلها) أو حتى تهم أحداهن لإيقافه بشخصها، لكنه عقد العزم على نيته قبل حتى أن يدركن ما يحدث، حيث أطلق النار علي ليهوي رأسي على صدري مصارعًا الحياة في أنفاسي الأخيرة، ثم قال بصوت جهوري تعمد أن يسمعه الجميع.

- من أجل القاهر نضحي، حتى يتسلح الأعظم ونسود.

ثم صوبه ناحية رأسه وضغط على الزناد بحسم، ليتحول جسدينا بين ثانية وضحاها لجثث نافقة ثم أنقطعت ضحكاتي عن المكان وعم المكان في هدوء تقشعر له الأبدان.

***

تصاعد الأجيج من نار المصابح، رقصت الرياح لتداعب

الدغل، شردت الشظايا بين الأفق، وتطايرت الهمسات حتى الشفق، نزفت الدماء بلغوا الأزل، كما انهال العرق من الأبدان كالسيول، تموجت النشوة بين العوالم، وشردت الأعين حتى تصادمت، اختنقت الأنفاس حتى ذبلت، وتذبذبت الذرات حتى انطفئت.. فقط حينها فتحت عيني.

كان جسدي ممددًا على الأرض والدماء تغطي جبهتي وأغلب ملابسي، تحاملت على مفاصلي المجهدة حتى استقمت على قدمين! لأجد المشهد كما هو لم يتغير.. لا أعلم إن كان قد مر القليل على رقدتي تلك أم إني استغرقت الكثير لكن حالة الذهول التي أعتلت الفتيات جمدتهن في موضعهن حتى لو ظللت غائبًا عن الوعي لأشهر كاملة، فلن تتحرك أيًا منهن قيد أنملة.

لقد تغير المنظور، بعد أن كان المشهد الذي يقابله عيني هي الثلاث فتيات بمصابيحهن الزيتية، أصبحت أرى الثلاث فتيات كما هن، لكن برفقة جسد (جابر) الممزق هذه المرة وهو مقيد بالشجرة، فلم يعد هذا الأخير جسدي بعد الآن، فأنا الآن قابع بجسد (جودة) العجوز.

لقد كان (جودة) برفقتي من أول مرة وطئت فيها ساقي هذه العزبة وأنا بجسد القط، بل كان معي بذات الميكروباص الذي أقلني للعزبة، فكيف لقط أن يركب وسيلة نقل بتلك

البساطة دون أن يجذب الأنظار، إن لم يكن برفقة أحدهم!

***

الآن أترجل من بين هؤلاء العامة. لا لست هذا الكهل هزيل الجسد ذا الشارب العملاق المضحك والذي يحرص على نموه ليداري جرح ذي ماضي ما.

***

كان غباء هذا الطيني (جودة) هو السبب في شقائي طوال تلك السنوات حين قرر التآمر على قتلي وأنا بجسد (أنور) وحبسي بتلك الهيئة لستة عشر سنة مريرة منذ عام ٢٠١٠، فعاقبت الكل وأنتقمت منهم شر قصاص، سواء كان له دخل في تقييدي بتلك الحالة الشبحية أو لا.. عدى (جودة)!

لقد كنت أدخره حتى النهاية لأتحرر من تلك الهيئة، وحينها سأتفنن وأنا أمزق أشلائه بمخالبي أو أسلخه حيًا جحيمي أو أبتر أطرافه بأسناني أو أهشم عظامه بذيلي. لكني تراجعت عن الأمر حين وجدته أخذ من اسمي معبودًا يتوسل مني المغفرة ويطلب الرحمة من عطفي، كافرًا بكافة معتقداته ومذاهبه الخاصة، لقد كان للخوف تأثيرًا قويًا في هدم كل إيمانه ليتحول لعابد (تيليما) أصيل.

بالطبع أنا لم ولن أرحمه، حتى بعد تضحيته من أجلي تلك..

بل إني أنتظر عودتي بالجحيم لتعذيب روحه بكافة الطرق التي لا يتصورها عقل طيني من قبل، فما فعله هذا الوضيع بي لم يكن بالهين لكني على الأقل قررت أن يصبح موته ذا فائدة لي مع بعض الوعود الكاذبة بالمغفرة بالطبع.

أنا لا أستطيع التنقل من جسد لآخر بهذه البساطة، بل يجب أن يُقتل الجسد الذي أتربع به أولًا، ثم يكون بالجوار جسد أخر يحتضر في ذات اللحظة لأستحوذ عليه.. لقد علمت حفيدات (بن الحظرد) كل هذا عني بسحر جدهم بالطبع، وقرروا استغلاله ضدي، لكنهم لم يعملوا حساب أن يأتي طرف ثالث ويهد لهم كل ما دبروه من تخطيطات وتجهيزات وأضحيات.. وهكذا وبكل بساطة أنا الآن قابع بجسد أحد عبيدي المخلصين.

تحسست جانب رأسي بيسراي، لأجد إن ثقب الرصاصة قد تلائم بعدما احتللت هذا الجسد، قد أشعر بألم خفيف موضع الطلقة النارية لكني سأعيش بالطبع، ولكن أحفاد (بن الحظرد) هن من لن يعشن بعد الآن. وجهت المسدس بيمناي صوبهن وأنا أبتسم كالمخابيل، لأجدهم يتراجعن وهن ينظرن صوبي بفزع.

لقد حصنوا أنفسهن جيدًا من قواي الشيطانية، لكن ماذا عن أسلحة البشر النارية يا ترى؟ هذا ما كنت أريد أختباره

لكن لم يسعفني الوقت! فقد ظهر كيان الطريق من خلف الشجرة وهو يحملق بي بوجهه الممسوح من أي تعابير!

لم تقع عيني عليه لأكثر من ثانية حتى اختفى من مكانه وظهر بموضع آخر فوق البحيرة! وجهت مسدسي صوبه وأنا أحاول تصيده، لكنه أختفى من جديد! بزغ من العدم أمام الكشك وقد اقترب مني أكثر! حاولت تصويب السلاح الناري ناحيته من جديد وأنا ألهث من فرط الانفعال، وكهولة هذا الجسد، لكنه كان أسرع مني! أنبثق أمام الفتيات الثلاثة كما إنه يحميهم بعد أن اقترب مني أكثر من اللازم ثم اختفى! كنت متوقع أن يكون ظهوره التالي وهو يغرس أنامله العملاقة بجمجمتي كما فعل مع (حسن العفي) أو أجد مشنقة تلتف حول عنقي كما حدث لأم (اخلاص)، أو يبتكر طريقة ما ليقسم جسدي نصفين أو حتى يختلع قلبي من بين ضلوعي.. لكني كنت له بالمرصاد.

مددت يدي اليسرى للأمام بقوة وأنا أقبض على الفراغ، ليتبع حركتي السريعة تلك صرخات ألم مكتومة، كما لو إن أحدهم يصيح بالنجدة أو يتوسل بالرحمة. ثم ظهر جسد كيان الطريق الطويل جاثيًا على ركبتيه أمامي وعنقه قابعة بين أناملي.

رغم طول ذراعيه وإمكانيته احالة وجهي لمصفاه بكل

بساطة إن مد أصابعه للأمام فحسب، لكنه ظل يحاول حل قبضتي عن رقبته، راح جسده يتبخر ثم يعاود التواجد من جديد كما لو إنه يحاول الانتقال لمكان الآخر للفرار مني، لكن من زعم إني سأسلم له تلك الفرصة بكل يسر؟

زدت من أحكام قبضتي حول عنقه لجعل الخناق أشد وطأة عليه، فراح جسده يتقلص كالأسفنجة التي يعصر منها المياة، وشرعت أطرافه للعودة لحالتها الآدمية دون تلك المخالب بل أظافر آدمية ضعيفة ثم أخذت ملامحه في البروز واحدة تلو الأخرى، من أنف وفم وأعين وكافة تضاريس الوجه تلك، كما لو إن الزمن يتحرك بكيان الطريق لكن بصورة عكسية.. ليقبع بين يدي بالنهاية (مؤمن الشبراوي)، يغطيه طبقة من الدقيق الأبيض التي غلفته أثناء شجاره الأخير مع (حسن العفي)، هذا إذًا سبب لون بشرته البيضاء طوال الوقت!

بجانب تلك الحالة من التساؤل التي كانت تصيب أي زائر للطريق يمارس عليه (مؤمن) ألاعيبه قبل أن يقتله أو يتركه ينجو بعد أن يسلي وقته به قليلًا. فأثناء أستجوابي لذكريات كل من (حسن ووجدي) لاحظت إن العقل البشري حينها لم يكن يعمل بأكمل وجه، بل يتصرف كما لو إنه تحت تأثير حبوب مخدرة، ليس بفعل الخوف فحسب، كالتي دسها

(حسن) ل(مؤمن) قبل إعلان الحرب.

لم أعد أبالي بتلك الأدلة على أي حال، فها هو (مؤمن) شاحب اللون، أقرب للشفافية، ينتفض بين أناملي كالسمكة التي تعافر للعودة للماء.. إنه يوم سعدي الذي أرى به أحد أحفاد (بن الحظرد) وهو يهان دون حول أو قوى منه بعد كل تلك السنوات، حتى لو كان مجرد روح هائمة

شهقت الفتيات بفزع حين رأين والدهن في صورته الطبيعية بين يدي، منهن من أرادت أن تفديه بحياتها ومنهن من أرادت أن تركض لتحتضنه ومنهن من أرادت أن تبكي حتى ينتهي العالم.. يالها من مشاعر أنسانية ساذجة تثير ضحكي.

ضحكت وأنا أتمتم بصوت (جودة) العجوز:

- لقد ظللت أتتبع أي أثر لسحر (ابن الحظرد) في كل أرجاء مصر، حتى عثرت أخيرًا على منبع لطاقة شعوذته المميزة بتلك العزبة، فكيف لا أتعرف على سحر من أسرني لألفية كاملة وأكثر؟ أعتقدت في البدء إن كيان الطريق هذا هو أحد الجان أو الشياطين التتابعين ل(ابن الحظرد) ونسله ممن بعده، فحضرت للعزبة لأجل الخروج منه بأي معلومة تمكنني من استرجاع هيئاتي الشيطانية بعد أن فشلت في العثور على أخوتي

فمن قال إن من يتم أسره لآلاف السنين سيضحى ستة عشر عامًا مجرد هراء بالنسبة إليه؟ ربما لو كانت ظروفي مختلفة لأثرت السلامة وأنتظار ما تبقى من مهلة للتحرر من محبسي كما فعلت من قبل، لكن حين تتعرض يوميًا لعشرات محاولات الأغتيال، ومئات المطاردات، سيضحى لليوم العادي تأثيرًا خطيرًا على حياتك، وقد يتوقف عليه موتك للأبد، أو نجاتك لتعاشر ذات تلك المخاطر ليوم أخر.. قد أنقذت حياتي اليوم أو ربما الغد، لكني لا أضمن ما يأتي بعد هذا.

راح طيف (مؤمن) يصرخ بكل ما أوتي من قوة وأنا أضغط بقبضتي على عنقه، من المفترض أن يتحشرج صوته نتيجة هرسي لحنجرته بين أناملي، لكن من قال أني أخنقه من الأساس؟ لتتمزق على أثر هذه الصرخات طيات قلوب الفتيات.

شعرت بأحدى الفتيات وهي تتمتم بتعاويذ الحماية على أنفسهن مني، كم أنتن حمقاوات يا حفيدات (بن الحظرد)؟! تملكون من العلم أرطالًا وينقصكم الحكمة لأستخدامه.. فتحولت عيني للون أحمر قاني وأنا أكمل:

- حاولت التعرف على نوع هذا الكيان لكني لم أعرف على الإطلاق، فكل الأشارات متضاربة مع غيرها، حتى بدأت

أشك إنه كيان فريد فر من الجحيم أو من عالم مظلم أخر للأرض بطريقة ما، لكني لم أتخيل أبدًا أنه مثلي.. محض هيئة شبحية، لكن ببعض سحر (ابن الحظرد) -الذي تتبعته- أضفتوا عليه الكثير من القوى والقدرات الأستثنائيه، ليقتل ويفزع من يشاء، مع القصاص من قاتليه بالطبع.. لكن رغم هذا، يظل محض روح تافهة، يسهل الأستحواذ عليها، ولها مصدر يربطها بهذا العالم.

ثم صوبت مسدسي وأطلقت كل ما بها من رصاصات، وكانت مع وقع كل رصاصة دوي عظيم كعشرات القنابل، تزامنت مع صراخ (مؤمن) الذي يتعالى مع كل رصاصة حتى توقف أخيرًا مع أنتهاء جزينة السلاح الناري.

أغلقت الفتيات الثلاثة أعينهن وهن يستعددن لأستقبال الرصاصات، تمر رصاصة من جانب أحدهن فتتخيل أختها الصريعة على الأرض وهي تشهق محاربة الموت، وتتوقع مصيرها المماثل بعد ثوان. فتنتفض قلوبهن، وترتعش أوصالهن، وتتمزق أعصابهن عقب كل رصاصة لا تمسهن.. ثم عم الصمت المكان!

لم يمتن بعد، فلازلن يشعرن بكل شعرة منتصبة من الخوف على أبدانهن، بالطبع هن لم يتوقعن أن يرحمهم الشيطان الواحد والعشرين، فهذه ليست من شيمي.. سمعن صوت

سائل ينسدل من مكان ما صحبه جسد يهوي أرضًا، فهممن سريعًا لفتح عيونهن للأطمئنان على بعضهن البعض.

كانوا ثلاثتهن معافين، سالمين دون أن تصاب أحدهن بشظية واحدة، تفقدت كل منهن جسد أختها لتجدها بخير هي الأخرى، حتى أكتشفن أخيرًا مصدر السائل. لقد كانت دماء بالطبع، فما غيرها قد يكون حاضرًا لجلستنا الرومانسية تلك؟ لكنه كان نابعًا من الشجرة!

ربما حاول الكثير أقتلاع تلك الشجرة عن جذورها من قبلي أو حتى حرقها عن أخرها، لكنهم فشلوا في ذلك، فهي تحت حماية روح فائقة القوى، لكنهم لم يجربوا تشويهها بيد شيطانية كخاصتي من قبل.. وكانت تلك النتيجة، أضحت الشجرة تنزف كالبشر، ثم راحت أوراقها تجف وثمارها تذبل وتتساقط بالتدريج، كما لو إن الحياة تسلب منها.

نظرن صوبي ليجدن إن الجسم الذي هوى على الأرض، كانت جثة (جودة) النافقة! بالفعل جثة (جودة)، فهذا لم يعد جسدي بعد الآن.. فقد تحررت أخيرًا من محبسي وظهرت بتلك الهيئة التي فضلتها عن غيرها.. التي كانت هيئة (مؤمن الشبراوي) ببذلته الداكنة المميزة!

لم أتخيل أن يكون حظي سعيدًا لهذه الدرجة، فأنا لم أعثر على أحد أتباع (بن الحظرد) في العزبة كما توهمت، بل

عثرت على احفاده الذي يكمن في عروقهم الحلول لكافة مشاكلي. فبطاقة (مؤمن) الروحية، والسحر الذي تعزز به، تحررت أخيرًا من كافة توابع تعويذة (الحلقة) البغيضة ومن أي شعوذة أخرى ل(عبدالله بن الحظرد)، وعدت لسابق عهدي، أنا (القاهر بن المضبع) الشيطان الواحد والعشرين

رغم إني كنت متشكلًا في هيئة والد الفتيات، لكن قلوبهن لم ترق هذه المرة، بل أقشعرت خوفًا حين رأوا ذيلي الدامي وهو يتموج من خلفي، وتجمدت الدماء بعروقهن حين أبصرن عيني الحمراء كجمرات الجحيم ذاتها، ثم توقفت عقولهن عن التفكير حين شاهدن قدماي الحافيتين بأظفارها التي لا تماثلها حوافر أي حيوان أو أي بشر قد رأوه يومًا، بل كانت شيطانية خالصة.

خطوت فوق جثة (جودة) لتنصهر تحت قدمي كقطعة الثلج، كما لو إن الجحيم ذاته قد طالها، فقلت وأنا أتقدم صوبهن ورائحة اللحم المحروق تطاير بالأجواء.. مهندمًا لربطة عنقي في لا مبالاة:

قبل أن أبدأ في البحث عن أشقائي وعتاد الخطاه، علي البدء في التخلص من نسل (بن الحظرد) وسحره عن الأرض كلها وللأبد، حتى لا أتعرض للمزيد من المناوشات المعرقلة لخطتي.. هلا بدأنا!

ثم أطلقن العنان أخيرًا لصرخاتهن التي جاءت ملهبة لحماستي رغم تأخرها، كم افتقدت هذا الصياح الخلاب الذي يطرب قلبي حتى الثمالة؟!

فهرعت صوبهن كاشفاً العنان عن وجهي الحقيقي الذي لم يراه طيني من قبل إلا وخر صريعًا بعدها على الفور دون مقدمات، لتبدأ الملحمة ويتشابك سحرهن الضعيف بقوتي الشيطانية المهولة.. تزامنًا مع سقوط آخر ثمرة تفاح فاسدة وانهيار الشجرة

تمت بحمد الله

عن الكاتب

كيرلس عاطف

يدرس بكلية الهندسة قسم التشييد بالجامعة الروسية المصرية

صدر له:

- رواية (المقايض).

- رواية (صندوق الموتى).

- رواية (المتربص).

-رواية (الشيطان الواحد والعشرون).

الإنجازات الأدبية:

- مركز أول بمسابقة صلاح هلال الأدبية للقصة القصيرة عن قصة (اللوحة الملعونة).

- القائمة القصيرة لجائزة إبداع ٨ عن رواية (قضية ثمرة الكمثرى) دورة (لطيفة الزيات)

معد برنامج (حنيكة فارغة) و (السبرتاية) على اليوتيوب مع المذيع يحيى عزام.